كامل الشناوى

شاعر الحب والحرية

حياتــه وشــعره

محمد رضوان



جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

كامل الشناوى.. شاعر الحب والحرية

تأليف: محمدرضوان

الغلاف للفنان: أحمدشوقى

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



القاهرة: ٤ ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو ـ من ميدان الأوبرا

٢٧٨٧٧٥٧٤ ـ ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

Tokoboko_5@yahoo.com

لستُ أشكو منك

فالشكوى عذابُ الأبرياءْ

وهى قيْدُ ترسفُ العزة فيه والإباءْ

أنا لا أَشكو ، ففى الشكوى إنحناءْ

وأنا نبضُ عروقى كبرياءْ

* * *

أنا يا مِصْرُ فَتاكِ

بدَمى أَحْمِى حِماكِ

ودمى مِلءُ ثَراكِ

كامل الشناوى

شاعر الحب والحرمان والحرية
كامل الشناوى

إذا كان كامل الشناوى قد عرف بأنه شاعر الحب والحرمان والعذاب مع محبوباته، فإنه كان أيضاً شاعر الحب والحرية، حيث اثار ضدّ عبودية الإنسان وواجه كل قوى الظلم والاستبداد كما ثار أيضاً على عبوديته للحب، وثار على أسر العشق من أجل حريته وكرامته وعزة نفسه.

محمد رضوان

مقدمة

محمد رضوان... عاشق الرومانسية !

بقلم الشاعر د. حسن فتح الباب

أتى على الشعر - وهو فن العربية الأول - حين من الدهر أفلت فيه نجومه، فتحول من الازدهار الذى حققه فى العصر العباسى والعصر الأندلسى الى الاضمحلال فى عصر المماليك والعثمانيين باستثناء ضئيل تمثل بضعة شعراء مثل: البهاء زهير الذى عبر بشعره عن الطابع المصرى!

ولم تكد شمس العصر الحديث تبزغ وتسترد مصر - فى عهد محمد على - أنفاسها حتى بدأت حركة الشعر تنبعث وترهص بميلاد جديد.

وقد تحقق هذا الميلاد بصورة مكتملة على يد محمود سامى البارودى رب السيف والقلم، إذ كان هو مؤسس مدرسة الكلاسيكية التى أعادت الى الشعر ديباجته مستفيدة من تراثنا العربى فى أزهى عصوره وخلف البارودى فى نهاية القرن التاسع عشر شوقى وحافظ ومطران وأحمد محرم فى مصر والزهاوى والرصافى والجواهرى فى العراق وبشارة الخورى الملقب بالأخطل الصغير وعمر أبو ريشة فى لبنان ومفدى زكريا شاعر الثورة ومحمد خليفة فى الجزائر.

ودارت عجلة التطور فجاءت المدرسة الرومانسية أو الوجدانية كما يسميها الناقد الكبير د. عبد القادر القط وكان أبرز أعلامها: إبراهيم ناجى وعلى محمود طه، والهمشرى، وصالح جودت، وأحمد فتحى، وكامل الشناوى، وحسن كامل الصيرفى وغيرهم فى مصر وأبو القاسم الشابى فى تونس

وفهد العسكر وأحمد مشارى العدوانى وأحمد السقاف وصقر الشبيب فى الكويت وأحمد عبد الغفور عطار وحسن عبد الله القرشى ومحمد حسن فقى وعبد الله بن خميس فى السعودية وسلطان العويس فى الإمارات وعبد الله البردونى فى اليمن والتيجانى يوسف بشير فى السودان.

وقد اقتصرنا فيما سبق على ذكر الشعراء الرومانسيين الذين يكتبون قصائدهم فى القالب العمودى، نظراً لأن من يصوغون الكثرة الغالبة من أشعارهم فى قالب قصيدة التفعيلة معظمهم ينتمى إلى التيار الواقعى، أما القلة فيغلب عليها الطابع الذاتى، فالمضمون رومانسى والشكل متحرر فى إيقاعه خلافاً لنظرية وحدة الشكل والمضمون.

ويعد الشاعر الطبيب د. أحمد زكى أبو شادى رائد هذه المدرسة الرومانسية نظرا لاطلاعه على الشعر الرومانسى الإنجليزى، وتأثره بأعلامه وهم كيتس وشيلى وبيرون ووردذ ورث وولتر سكوت، وإصداره مجلة «أبو للو» عام ١٩٣٢ لنشر قصائد الشعراء الرومانسيين العرب، ومن ثم سميت الحركة الشعرية الجديدة باسم هذه المجلة واختارت أمير الشعراء أحمد شوقى رئيساً شرفيا لها.

وقد واكبت هذه الحركة مدرسة الديوان التى أسسها الشعراء النقاد الثلاثة عبد الرحمن شكرى وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى الذين ضخموا دماً جديداً فى دماء المدرسة الكلاسيكية الجديدة والمدرسة الرومانسية بدعوتهم إلى الوحدة العضوية للقصيدة وإضافتهم بعداً فكرياً إنسانياً إليها إثراء لبعدها العاطفى وتوسيعاً لآفاقه، وكان هؤلاء الرواد متأثرين أيضا بالثقافة الأوروبية وآدابها وفنونها.

كما واكبت هاتين المدرستين مدرسة ثالثة تمثلت فى شعر المهجر الذى صاغه شعراء الشام الذين أقاموا بالأمريكتين الشمالية والجنوبية.

وقد أطلق د. محمد مندور على شعرهم مصطلح «الشعر المهموس» وكان فى صدارة مبدعيه: ميخائيل نعيمة،وإيليا أبو ماضى، وجبران الذى كان يكتب القصيدة العمودية المتحررة والشعر المنثور إلى جانب الفن القصصى والروائى كما كان فنانا تشكيلياً وعلى الرغم من تفرد كل مدرسة من المدارس الثلاث الأخرى ببعض الخصائص الفنية والنفسية والفكرية التى تميزها عن الأخرى، فإن ثمة قاسما مشتركا بينها وهو النزعة الرومانسية حيث تتجلى هذه النزعة فى الوعى الفردى بمعنى رؤية العالم من خلال التأمل فى داخل الذات وانعكاس خواطرها على هذا العالم، فهذه الذات عند الشعراء الرومانسيين هى محور الوجود.

والشاعر عندهم نصف إله أو نبى أو ملاك وقد عبر أحدهم عن هذا المعنى فى قوله:

ولد الشاعر العظيم ملاكا طبع الوحى قبلة فوق ثغره

فإذا شدوه وليد أساه وإذا حلوه عصارة أمره

ويتبين فى هذه الأبيات أيضاً النزعة الميتافيزيقية التى يتميز بها معظم شعراء هذه المدرسة كما يتميزون باتخاذ الطبيعة فردوساً لأحلامهم وملاذا يلجؤون إليه للهروب من جهامة الواقع، تلك الجهامة التى تثير فيهم نزعة الحزن والشعور الحاد بالألم والتعلق فى كثير من الأحيان بعالم المهمشين بذلك يختلفون عن الشعراء الذين يصورون الواقع المعاش، ويصدرون عنه لا عن ذواتهم فى تأملاتهم ورؤاهم، فالشاعر الذى ينتمى إلى المدرسة الواقعية - التى خلفت المدرسة الرومانسية أو الوجدانية - يستمد تجربته من الحياة التى تحيط به والمجتمع الذى يعد فردا من أفراده، ويؤمن بنظرية د. محمد مندور: الأدب والفن للحياة والمجتمع خلافا لنظرية د. رشاد رشدى: الفن للفن.

وإذا كانت السمة الدرامية تغلب على الشعر الواقعى بالنظر إلى كونه يصور حركة الصراع بين الأضداد، فإن كثيراً من شعراء الرومانسية يتخذون هذا الصراع موضوعا لبعض قصائدهم، فيغنون للشعوب الثائرة على المستعمرين، وتتدرج هذه القصائد فى شعر المقاومة والنضال فى سبيل تحرير الوطن والذودعن أرضه وشعبه واسترداد الحقوق المغتصبة مما يذكرنا بقول الشاعر الرومانسى شيللى: «تتملكنى شهوة تغيير هذا العالم»!

والمثال الساطع فى هذا الاتجاه قصيدة "فلسطين" للشاعر على محمود طه وقصيدة نشيد الحرية لكامل الشناوى وقصائد الشعراء الذين استلهموا مقاومة الشعب المصرى ممثلا فى مدينة بورسعيد للعدوان الثلاثى الغادر سنة ١٩٥٦ والذين استوحوا الثورات العربية ضد الاستعمار وحرب العاشر من رمضان (أكتوبر ١٩٧٣) المجيدة.

وفى هذا المقام يتفق الرومانسيون مع الواقعيين فى المضمون وإن اختلفوا فى الشكل والصياغة والإيقاع.

لقد خطر لى أن أعيد قراءة خريطة الشعر العربى الحديث التى صاغ جانبا كبيرا منها الشعراء الرومانسيون حين اطلعت على هذا الكتاب للأديب الناقد محمد رضوان بعد أن اختصنى بكتابة مقدمة له.

وعلى الرغم من كثرة المؤلفات (ولا سيما الرسائل الجامعية) التى تناولت شعراء الرومانسية، فإن هذا الكتاب الذى بين أيدينا يضيف مزيدا وجديدا من المعلومات والأفكار إلى ما اطلعنا عليه من المؤلفات بفضل ما بذله الأديب الباحث من جهد جهيد فى جمع مادة هذا الكتاب الذى يعد دراسة أدبية من جانب وترجمة لحياة واحد من شعراء هذا الإتجاه الوجدانى وهو كامل الشناوى الذى تناول حياته وشعره.

ويرجع توفيق أديبنا الناقد فى هذا العمل الأدبى إلى صدقه وإخلاصه

ومحبته للشعراء الرومانسيين الذين غمروا الساحة الأدبية بفيض من إبداعهم منذ العشرينيات من القرن العشرين كما يرجع هذا التوفيق الذى أحرزه إلى أنه لم يقتصر فى كتابة مؤلفه على قراءاته لانتاجهم الأدبى، أو التحرى عن حياتهم فى شتى المصادر فحسب، بل اعتمد على حصيلة لقاءاته مع بعضهم، إذ بدأ مسيرته وهو فى ريعان العمر بالسعى الحثيث إلى هذه اللقاءات مهما تجشم من مشاق، انطلاقاً من إعجابه بشعرهم وتقديرا لدورهم فى إثراء فن العربية الأول والنهوض بحركة الشعر الرومانسى الذى استأثر باهتمامه، واعتبر العكوف على دراسته رسالة سامية نذر جهوده للوفاء بها، فأصدر دراساته عن شاعر النيل والنخيل صالح جودت، وشاعر الكرنك أحمد فتحى، وشاعر الجندول على محمود طه، وشاعر الأطلال ناجى، وشاعر الهمسات أحمد عبد المجيد وأخيرا هذا الكتاب وعن كامل الشناوى: شاعر الحب والحرمان.

* * *

تحية وتقدير للأديب الناقد محمد رضوان الذى يستحق أن نشد على يديه، وأن نتمنى له مزيداً من العطاء بحيث يشمل بدراساته القادمة شعراء الرومانسية الآخرين فى مصر وفى سائر البلاد العربية.

القاهرة أكتوبر ٢٠٠٩

د. حسن فتح الباب

مقدمة المؤلف

شاعر الحب والحرية!

كان شاعر الحب والحرية كامل الشناوى، شاعرًا رومانسياً حالماً لم يتسع قلبه إلا للحب، ولم ير أمامه سوى الجمال، فعاش حياته معذباً بين خفقات قلبه العاشق، وضربات الواقع الأليم، حيث كانت معظم تجاربه العاطفية حباً من طرف واحد فكان يحب ويسهر الليل يتعذب ويناجى النجوم لعلها تهمس لحبيبته بمعاناة هذا العاشق المفتون المضنى!

وقد اعتصرت الحيرة ليالى هذا الشاعر العاشق، وعصفت بأمنه واستقراره فلم يعرف كامل الشناوى أضواء حياته إلا فى ضباب الليل الكثيف، ولم يبصر طريقه إلى الصباح إلا على أشلاء قدمين معذبتين، أضناها السرى فى دروب الليل ومتاهاته، لكن قلبه المحب العاشق المحروم كان فى نفس الوقت ينبض بحب وطنه مصر وينفعل بأحداثه وقضايا أمته العربية!

وأرى أن هناك عاملين نفسيين قد امتزجا فى نفس كامل وهما قلقه، وسخريته، فكانت سخريته الضاحكة الباكية، فعلى الرغم من أن أسلوبه فى الحياة كان أسلوب النكتة الحلوة أو المرة، ذلك الأسلوب الساخر الضاحك، فقد كان كامل الشناوى شاعر الدموع، فكان يبدو فى خلواته وكأنه دمعة كبيرة قد تحولت إلى إنسان يعذبه شعره ويعذبه حبه!

ويذكر صديقه الشاعر الكبير صالح جودت أنه بالرغم من قلة ما نظمه من قصائد خلال رحلته الشعرية منذ سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٦٥ فإن الكم ضاع عنده لحساب الكيف، لكنه استطاع بهذه الأبيات المحدودة أن

يدخل التاريخ، ويتربع على عرش الشعراء الرومانسيين فى هذا العصر.

وكان أول بيت فى ديوانه، هو بداية لنهاية أكبر حب فى حياته وأكثر معاناة له:

لا تكذبى إنى رأيتكما معا

ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى

من عين كاذبة فأنكر وادعى

ويرى البعض أن تمثال العذاب الذى أقامه أحمد رامى لكوكب الشرق أم كلثوم لا يقاس بوله كامل الشناوى بمحبوبته "المينيون" وعذاباته وشكوكه التى أرسلها على الملأ فى قصائده الغنائية وغير الغنائية التى انتزعها من شغاف قلبه وأحزان روحه وليالى عذابه الطويلة!

وإذا كان مفهوم الحب عند كامل الشناوى يرتبط بعشقه لليل وظاهرة الخيانة التى تعتبر أول خيط من خيوط مأساة حبه، إنه يحس بتمزق نفسى حين يجلس مع حبيبته الراقصة "روز"فى الكبارية محاصراً بعشرات من عشاقها والمعجبين بها، فهو لا يحس بالقرب منها إلا جراحاً:

كنت ألقاك على البعد

فألقى فيك أحلامى وروحى

صرت فى قربى ولا ألقاك

لا ألقاك إلا فى جروحى

ويتفجر ذلك الصراع حمماً بركانية ثائرة، وصرخات عاطفية ملتاعة فى قصيدة «الخطايا» وفيها تبدو ثورة الرومانسيين الحزينة:

آه منــهـــــــا.. أنــا لــم أدرك مـــــــــــــداهــا

آه مـنـــى... هـــى لــم تــدرك مــــــــــــدايــا

حطمـــــتنى مـــثلمــــا حطمــــتـــــهـــــا

فـــــــــهـى منـى وأنــا منــهـــــــــا شـظـايـا

ولكن شظايا الحب المتطايرة تمزق نفسه، وتنفذ إلى قلبه سهام حيرة وقلق، ويحاول بعد ذلك ان يتسلى بحب حسناء "الكافيتريا" وغيرها... ولكن جرح الحبيبة الهاجرة كان غائراً فى أعماقه.

إنه فى النهاية ثائر على الوجود، هائم بالعدم، رافض ليوم مُولده فى ساعات يأسه وقنوطه، وإخفاقه فى التواصل مع من يحبها ويرتل فى محرابها أناشيد الحب والغزل والهيام بلا جدوى حتى أنه يرى أنه ضائع ما بين الحان والمعبد:

ضـــاق بـى مــــعــــبـــــدى

وضـــــــاقـت حــــــانـى

لا صــــــلاتـى تجــــــــدى

ولا ألحـــــــــــــــــانـى

ومشكلة كامل الشناوى مع الكتابة أنه كان يعيش حياته ويرشف كل قطرة فيها أكثر مما كان يكتبها ولذلك كانت أعماله الشعرية والنثرية قليلة لا تناسب الفترة الزمنية الطويلة نسبياً منذ بدأ يكتب فى مطالع الثلاثينيات من القرن العشرين حتى رحيله فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥، ومعظم ما كتبه جمع فى عدة كتب من الصحف والمجلات التى كان يكتب فيها نشرت بعد رحيلة منها: بين الحياة والموت، اعترافات أبى نواس، لقاء

معهم، عرفت عبد الوهاب، ساعات، الذين أحبوا أمى، وبخلاف رسائله العاطفية المخطوطة التى جمعها شقيقه الشاعر مأمون الشناوى ونشرها بعد رحيله تحت عنوان "حبيبتى" وبالطبع ديوانه الوحيد «لا تكذبى».

* * *

كان كامل الشناوى يرتشف الحياة قطرة قطرة، فكان يثأر من الزمن بالسهر كل ليلة حتى مطلع الفجر، حتى يحتمى من الموت والوحدة وسط الناس بالصخب والمرح فى سهرات مليئة بالمقالب والضحكات تمد خلاله الموائد العامرة ويسيل الشراب أنهاراً حتى لو أثقلته ديون البنوك لأنه كان يرى أن «عمرى مثل ديونى.. أدفعه على أقساط... فى كل سنة أسدد اثنى عشر قسطاً» وهكذا كان إحساسه الحاد بالزمن لأنه كان يعشق الحياة..

وقد عاش كامل الشناوى حياته راهباً فى محراب الجمال، فعشق المرأة روحاً وجسداً وكان يردد «إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد... فأنا أحب الجمال فى الطبيعة، والفن، والأخلاق، والمرأة. وهذه الأشياء تعبر بصدق عن جمالها... أما المرأة فهى وحدها القادرة على التعبير عن الجمال باغراء! والصدق يعطينى صورة مستقيمة للجمال، والإغراء يعطينى صورة ملتوية... ولكن هذا الالتواء يشدنى من مشاعرى، ويلوينى معه"!

"بين الناس من يسمى هذه التجربة حباً، وبينهم من يسميها وهماً... ولقد عشت التجربة أياماً، ولا أدرى إن كنت أحب... أو كنت أتوهم"

وهكذا عاش كامل الشناوى حياته كالفراشة التى تحوم حول الضوء... حتى أحرقته هذه النار وحطمت قلبه، وحولته إلى شظايا!

* * *

وبعد، فقد حاولت فى هذا الكتاب عن كامل الشناوى شاعر الحب

والحرمان، أن أقدم سرائر قلبه، وأسرار روحه وأبرز الملامح الإنسانية والفنية لحياته وأدبه، ولاأزعم أننى قلت كل شئ عن كامل الشناوى أديباً وإنساناً ولكنى حاولت الاقتراب من سيرته وأدبه ومن محراب الجمال الذى عاش فى حماه يرتل له أجمل أغاريد الحب والجمال ثم احترق كالفراشة وسط اللهب.

وإذا كان كامل الشناوى قد عرف بأنه شاعر الحب والحرمان، فإنه أيضاً كان شاعر الثورة والحرية الذى تفاعل مع قضايا وطنه مصر وأحداث الأمه العربية، وشارك بشعره الثورى والوطنى مواكباً لكل الأحداث والقضايا الوطنية ويكفى أن نذكر أنه انفعل بأحداث المقاومة الشعبية فى منطقة قناة السويس فى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين فغضب وثارت كبرياؤه المصرى فى قصيدة نارية قال فى مطلعها

أنت فى صمتك مرغم   أنت فى حبك مكره
فتكلم وتألم   وتعلم كيف تكره

ولحنها وسجلها الموسيقار محمد عبد الوهاب للإذاعة المصرية لكنها ظلت حبيسة حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فأفرج عن الأنشودة لتصبح أنشودة الحرية هكذا:

كنت فى صمتك مرغم   كنت فى حبك مكره

ومنذ ذلك الوقت اجتمعت فى قيثارة كامل الشناوى أوتار الحب والحرية، وأنغام همسات قلبه العاشق، وأناشيد الثورة والحرية لمصر والعروبة!

القاهرة أبريل ٢٠١١   **محمد رضوان**

الفصل الأول

حياته وثقافته

أين يأسى؟ لقد مضى

ومضت مثله المنى

فحياتى كما ترى

لا ظلام ولا سنا

كل ما كان لم يكن

وأنا لم أعد أنا

كامل الشناوى

شاعر الحب والحرمان

كان كامل الشناوى شاعراً رومانسياً رقيقاً، غنى للحب والجمال أبدع أغاريده التى انتزعها من عذابات قلبه وأحزان روحه، فرغم جراحه ولوعته وأحزانه القاتمة الحادة، إلا أنه ظل يغنى للحب ويهتف للجمال... وهكذا كان شاعراً صادقاً، فأفصح عن أحاسيسه ومشاعره بصراحة وصدق.

كان شعر كامل الشناوى يتسم بالرقة والعذوبة والطلاوة، وهذه الخصائص والسمات كان لها جذور ضاربة فى النشأه والبيئة ومصادر الثقافة، فهو ابن بيئته الصادق، فقد كان منذ مطالع صباه شاعر الحب والشك والحرمان.

■ ولد فى قرية «نوسا البحر» القريبة من مدينة المنصورة، مهد الحب والجمال فى ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨ وكان أبوه - الشيخ سعيد الشناوى - يعمل بوظيفة نائب المحكمة الشرعية العليا، وكان من مؤيدى الزعيم الوطنى مصطفى كامل ولذا سماه "مصطفى كامل" تيمنا باسم الزعيم الوطنى الكبير.

وكانت أمه قد نذرت وليدها للأزهر الشريف ونسيت الأسرة النذر، فعندما كبر الطفل الصغير أدخلوه المدرسة الإبتدائية ولكنه مرض، فأخرجوه من المدرسة الابتدائية وأدخلوه الأزهر، وفى الأزهر بدأ يتجه لقراءة روائع الشعر القديم بنهم وشغف ولكن الدراسة لم تكن كلها شعراً وأدباً، فاستغرقه الأدب والشعر وأنساه ذلك دراسته ولم يواصل دراسته بالأزهر واعتكف بمنزله يقرأ ما تهفو إليه نفسه من دواوين الشعر لفحول

الشعراء القدامى والمحدثين، فقرأ دواوين المتنبى والشريف الرضى وأبى نواس وعمر بن أبى ربيعه والبحترى وخليل مطران وأحمد شوقى وغيرهم، وحفظ من شعرهم ألوف الأبيات.

وكان أشد ما يجذبه فى الشعر موسيقيته وعمق معانيه... وإن كان يميل لشعر الحب والغزل وشعر التأمل الفلسفى الحزين.

وفى تلك الحقبة بعد تركه الأزهر كان يقطن فى حجرة بحى السيدة زينب كان يجتمع فيها بشباب الأدباء وتدور المصاولات والمساجلات الأدبية وكان من روادها الشعراء: صالح جودت ومأمون الشناوى وعبد الحميد الديب وغيرهم. وفى نفس الوقت بدأ يتعلم اللغة الفرنسية ليواصل دراسته بباريس ولكن الظروف أبت إلا أن يبقى فى مصر.

* * *

وبدأ كامل الشناوى حياته الصحفية مصححاً بجريدة "كوكب الشرق" بمرتب لا يتجاوز بضعة جنيهات، ثم ما لبث ان انتقل إلى صحيفة "الوادى" وكان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين وعلى صفاحتها صال قلمه وجال ونشر فيها أجمل أشعاره وأرقها وخاض على صفاحتها أعنف معاركه الأدبية مع جماعة أبوللو، وبعد ذلك انتقل للكتابة فى صحف مختلفة منها الأهرام والأخبار والجمهورية حتى أصبح من ألمع رجال الصحافة والأدب فى العالم العربى.

الحب الأول

فى بدايه حياته الصحفية كان هناك حب كبير فى حياته ألهب شاعريته... كان ذلك عام ١٩٣٠ وهو فى حوالى العشرين من عمره ولم يكن قد أتم دراسته فى الأزهر بعام واحد وذهب كامل الشناوى الى أحد المتفقهين

فى اللغة الفرنسية ليأخذ دروساً على يديه... وفى منزله رآها... كانت ابنته...

أعجبه فيها تكوينها الإنسانى قبل تكوينها الجسمانى... كانت رائعة الجمال تختلط فيها الملامح المصرية والأوربية.... وكانت رقيقة الملامح ليس فيها ما يثير الصخب إلا ذكاؤها الحاد وجمالها الأكثر حدة.... كانت شقراء... فى عينيها السوداوين كل الحنان وعلى شفتيها بسمة أمل وبين خصلات شعرها المتهدل تكمن أسرار كأسرار الليل المجهول!

وجد فيها كامل الشناوى ضالته المنشودة....

كان حباً روحياً رائعاً... علمته أن يحب الموسيقى الغربية وشرحت له أشعار موسيه وهوجو ولا مرتين بلثغة فرنسية كانت أحب إلى قلبه من أجمل السيمفونيات!

أحبها كامل بعنف وهام بها.... وألهبت شاعريته، فألهمته أجمل قصائد الحب والغزل... ولكن لظروف ما افترقا وملء قلبيهما الحسرة والمرارة....

وكانت صدمة عنيفة لكنه ظل يستوحى من الهجر والفراق معانى لونت شعره بطابع سوداوى حزين قاتم فيه الفرقة واليأس والأسى!

شاعر الحرمان والتساؤل

نشأ كامل منذ صغره محروماً شقياً حزيناً... لا أقصد الحرمان المادى بل الحرمان المعنوى الذى عذبه وأضناه، فقد كان ضخم الجسم، قليل الحظ من الوسامة، تتكالب على جسده مجموعة من الأمراض المختلفة.... وأمضى حياته فى قصة طويلة مضنية مع المرض والليل والكأس والمرأة. كان يقابل الحياة بصدر رحب وصفاء نفس وابتسامة عريضة رغم آلامها وصدماتها العنيفة. خاض عدة تجارب عاطفية كان نصيبه منها الحرمان والشقاء.

ومن العوامل التى جعلته يوغل فى حديث الحرمان والتشاؤم والحيرة قراءاته الكثيرة لفيلسوف التشاؤم والحزن والحرمان "أبي العلاء المعرى" فقد كان أول شاعر أثر فى شخصية شاعرنا وفى شعره، وأخذ عنه كامل نزعة التشاؤم ولكنه كان يسميها "نزعة التشاؤل".

وكان كامل يفرق من الموت ويتساءل كثيراً عن سره وعن غايه الحياة ومصير البشر مما يذكرنا بحيرة فيلسوف الرباعيات عمر الخيام وفلسفته المتسائلة!

وقد حاول الدفاع عن اتهامه بالتشاؤم والإغراق فى الحزن والسلبية، وكثرة تساؤلاته الفلسفية فقال:

"لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبه الجبين".

"فما دام الموت يتعقب حياتنا، ومادمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلا، لست متشائماً، ولست مجنوناً، ولكنى أحاول أن أكون صادقاً مع ما أشعر به، وما أفكر فيه".

وكان دائماً يتساءل لماذا خلقنا؟ وكيف؟ ولماذا نموت؟ وإلى أين المصير؟ وقد عكس حيرته وقلقه وأحزانه الروحية فى قصائده... يقول فى إحدى قصائده:

أنا فى الظل أصطلى ... لفحة النار والهجير

وضميرى يشدنى ... لهوى ما له مصير

وإلى أين؟ لا تسل ... فأنا أجهل المصير

وتبلغ ذروة حيرته وتساؤله وشكه وأحزان روحه فى قصيدة نلمح فيها حيرة الخيام... فيتساءل شاعرنا "من أنا؟ ":

يارب فيم خلقتنا نهب الضباب

فلا ظلام... ولا سنا

وندب فوق الأرض لا ندرى بها

وندب فوق الأرض لا تدرى بنا

أنا من أنا ؟ أنا من أكون ؟

وسيلة؟ أم غاية؟

أنا لست أعرف من أنا ؟

ومن الطريف أنه سئل ذات مرة:

«ما هى الأبيات التى تختارها لتصحبك فى رحلتك إلى العالم الآخر؟»

فأجاب: «إذا كان عندى وقت للاختيار فإنى سأختار قصيدتى "من أنا؟"».

ليس فيها شك... بل فيها تفكير والله يدعونا إلى أن نفكر!.

وكان يتشاءم من يوم ميلاده لأن وجوده مشكلة... وقد نظم قصيدة يرثى فيها نفسه فى استقبال عيد ميلاده، وقد نظمها فى الخمسينيات فى فترة كان يمر فيها بأزمة نفسية حادة، رأى نفسه وقد بدأ رأسه يشتعل شيباً، رغم أنه ظل حتى رحيله أسود الشعر لم يتسلل الشيب إلى رأسه وقد أصيب بصدمة عاطفية، فأحس بأنه ضائع فى الطريق الطويل الذى لا يعرف له بداية أو نهاية وهو طريق الحياة:

عـــدت يا يوم مـــولدى	عـــدت يا أيهـــا الشـــقى
الصـــبـــا ضـــاع من يدى	وغـــزا الشـــيب مـــفـــرقى
لـيت يـا يوم مـــــولـدى	كنت يومـــــاً بلا غـــــد

* * *

لـــيـــت أنـــى مـــن الأزل	لـم أعـش هـذه الحـــيـــاة
عـــشت فـــيـــهـــا ولم أزل	جـــاهلاً أنهـــا حـــيـــاة
لـــيـــت أنـــى مـــن الأزل	كـنـت روحـــــا ولـم أزل

أنا عـمـر بلا شـبـاب — وحـيـاة بلا ربيع
أشـتـرى الحب بالعـذاب — أشـتـريه فـمن يبـيع
أنا عـمـر بلا شـبـاب — أنـا وهـم أنـا سـراب

* * *

شاعر الشك

كان كامل الشناوى كثير الشك والقلق بسبب أحزانه العميقة وإحساسه الحاد بالغربة الروحية والوحشة الطويلة، فكان يحاول تعويض ذلك بالمرح والفكاهة والنكتة اللاذعة!

تجلت فلسفة الشك عنده فى تجاربه مع المرأة...

وقد خاض عدة تجارب عاطفية. اقتنع بعدها أنه لن يستطيع الزواج.

وكان يحلو له أن يردد قول أبى العلاء المعرى:

هـذا جـنـاه أبـى عـلـىّ — ومـا جنيتُ على أحـد

وقد سئل عن ذلك مرة فحاول تبرير ذلك تبريراً فلسفياً، فقال: «أنا مشكلة» وليس من المعقول أن أتزوج وأتسبب فى خلق إنسان جديد منى، فكأننى بدلاً من أن أحل مشكلة نفسى، ألد للدنيا مشكلة جديدة".

ولكن السبب لم يكن هذا الاعتقاد الفلسفى فحسب، بل أنه كان يشعر بالألم والحرمان المعنوى، كما أن الصدمات العاطفية التى قابلته جعلته يزداد إيماناً برفضه للزواج... وظل هكذا حتى فاته سن الزواج، فأخذ يردد بحزن ومرارة قول فيلسوفه المفضل المعرى!

فلو سمح الزمان بها لضنت — ولو سمحت لضن بها الزمان

لقد كانت له تجارب خصبة عميقة فى دنيا الحب والعشق وخبر غدر المرأة وتلونها.

كان مشركاً فى الحب... خاض أكثر من تجربة وأحب أكثر من ملهمة وصدم أكثر من صدمة وقد أتاح الشرك فى الحب لشاعرنا فرصة التغلغل فى دراسة أهواء المرأة وأحلامها وفهم نفسيتها وطباعها المتقلبة وصدم بأكثر من تجربة اكتشف فيها غدرها وتلونها فتحول شعره إلى قيثارة شجية ترجع أناته الحزينة وأحلامه الباكية يبكى فيها مصارع حبه وتهاوى أحلامه وغدر من أحبهن وأخلص لهن الود والوفاء.

وكان يردد دائماً فى شعره ذكر «الرجل الآخر» فى حياة المرأة.. ويضعها فى قفص الاتهام ويدينها.....

وكانت قمة تجاربه مع المرأه والشك والمرارة تجربته مع "الحب الكبير" فى حياته... لقد ظل يبادلها عاطفة الحب سنوات طويلة حتى صدم عندما رأى بعينيه دليل غدرها وخداعها... ولكنها حاولت الدفاع عن نفسها ولكنه صرخ فى وجهها "لا تكذبى "وقدم لها دليل غدرها وخيانتها:

لاتكذبى..

إنى رأيتكما معا..

ودعى البكاء..

فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور

إذا جرى..

من عين كاذبة

فأنكر وادعى..

واشتعل صراع فى نفسه بين الضعف والاصرار بين العودة والإباء ولكنه صمم على الفراق، فحاول أن يردع قلبه عن العودة لها فيطمئنه بأنه كان قد صنع هذا التمثال الجميل الذى اكتشف أنه كان وهما:

كيف يا قلب ترتضي طعنة الغدر في خشوع ؟
وتدارى جحودها في رداء من الدموع
لست قلبي.. وإنما خنجر أنت في الضلوع

ثم يهيب بقلبه أن يرجع لصوابه لأنه أصبح فى حال من الهوان والذلة والألم بسبب غدرها مما يجعله يلفظها بعيداً، بعد أن حطمته وألقت به من الثريا إلى الثرى ومن القمة إلى السفح!

فيتوسل إلى قلبه أن ينساها فيروى له ما فعلته به:

أوتدرى ؟ بما جرى؟ أوتدرى ؟ دمي جرى
جذبتني من الذرى ورمت بي إلى الثرى
أخذت يقظتي، ولم تعطني هدأة الكرى

* * *

ويعود مرة أخرى إلى تبرير ضعفه وهوانه واستكانته واستسلامه لسطوة هواها رغم عذاب روحه بسبب غدرها وتلونها وخداعها وما أذاقته من ألوان الغدر والجحود، فيلقى التبعة على هذا القلب المتمرد عليه الذى يهفو لها ويحن إليها.. رغم إصراره على السلو والنسيان:

لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها

ويثور شاعرنا على قلبه، فيحاول أن يضع كرامته فوق حبه وفوق حنينه ويحاول أن يرغم قلبه على النأى بعيداً عن أغلال العبودية وقيود الهوى:

عـــلام يـا قـلـب تـشـكـو نقض الحـبـيـب عـهـوده

دع الـهـــــــوان وحـطـم أغــــلالـه وقــــيـــــوده

ثم يستنزل عليها سخطه وغضبه فيقول لها:

كـونى الجـحـيم سـعـيـرا

فلن أكـــون وقـــوده !!

شاعر الحطام والضباب

صدم شاعرنا بعدة صدمات من المرأة وكان من نتاج ذلك أن أصبح كامل الشناوى شظايا روح وحطام قلب وبقايا نفس !

آه مـنـهـــــــــــــا..

أنـا لـم أدرك مـــــــداهـا

آه مـــــــــنـــــــى..

هـى لـم تـدرك مـــــــدايـا

حطمتنى مثلما حطمتها

فـهي مني وأنا منها شظايا

ولا يرى أمـامـه بعـد صـدمـاتـه فـيـمـن يحب الإ ظلال الشك وأطيـاف الضباب وحطام قلبه ويصبح كريشة فى محيط تعصف بها الرياح والهواء:

كــــهــــارب لـيـس يـدرى مـن أيـن أو أيـن يمـضـي؟

شـك ضـــبـــاب حـطـام بـعـــضـي يمزق بعـــضـي

ويسميه أنيس منصور بعد وفاته بشاعر الشظايا!

وتبلغ بشاعرنا ذروة يأسه وأحزانه فيرى أن حياته قد أصبحت بلا

معنى وبلا لون أو طعم حتى أنه فقد الاحساس بالمكان والزمان!

أين يأسي ؟ لقـد مـضي	ومـــضت مـــثله المني
فـحـيـاتي كـمـا تري	لا ظـــلام ولا ســـنـــا
كل مـــا كـــان لم يكن	وأنـا لـم أعـــــــد أنا

وحاول شاعرنا أن ينسى قصة قلبه الحزين مع المرأة.. فلجأ إلى الليل يتخذ منه سميرا وأنيسا.. يسهره كله مع بقايا الذكريات ومع الكأس يدفن فيها أحزان روحه ويملأ حياته مرحا وضحكا عله ينسى أو يسلو.

وتمضى حياته وهو لا يخشى إلا من سكرات الموت أو سكرات الحياة:

"أستطيع أن أعانى الشقاء والعذاب والمرض. ليس فى الدنيا ما أفزع منه إلا اللحظة التى أعانى فيها سكرات الموت أو سكرات الحياة".

وفى سنواته الأخيرة تبدو لهفته الحارة للوصال مع ملهمته رغم ما أصابت قلبه من جراح الغدر وسهام الخديعة لأن المصباح كاد يجف!

"ليس فى حياتنا ماض ومستقبل.. حياتنا فترة واحدة هى الماضى".

"الأمس مضى واليوم يمضى والغد سيمضى"!

"تعالى ولا تترددى فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى"!

ثم مضت رحلة شاعر الشك والحرمان مع المرض والليل والمرأة والقلم.

وتفاوتت قصته مع المرأة والمرض بين المد والجزر تبعاً لخفقات قلبه ووثبات شياطين شعره!

وأخيراً خبت الشعلة وانتهت قصة كامل الشناوى مع المرض والمرأة والليل والقلم فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٥ بعد أن قدم ذوب قلبه وأعصابه وروحه فى كتاباته التى انتزعها من عذابات قلبه وأحزان روحه!

وعندما صدر ديوانه الوحيد "لاتكذبى" سنة ١٩٦٤ كتب صديقه الشاعر صالح جودت قبل رحيل كامل الشناوى بشهور قليلة يقول[1]:

لا تحس، وأنت تقرأ هذا الكتاب الذى أحدثك عنه اليوم.. "لاتكذبى".. لكامل الشناوى، بأنك تقرأ شعراً، بقدر إحساسك بأنك تستمع إلى مجموعة من الأغنيات الحلوة...

حروف المطبعة تكاد تذوب أمام عينيك، لترسم مكانها علامات موسيقية... وعناوين القصائد تكاد تثقب الورق، لتطل من هذه الثقوب أعناق أم كلثوم وهى تدق على باب مصر... وعبد الوهاب وهو يترنم بالخطايا... وفريد الأطرش وهو ينشج بأنشودة "عدت يا يوم مولدى" ونجاة الصغيرة وهى تهمس لنفسها: لا تكذبى !.

هذا أول ديوان لكامل الشناوى، عاشق الكلمة المنغمة، فى الشعر والنثر سواء بسواء.

وفى هذا الديوان ٢٨ قصيدة، مالم يلحنه الملحنون منها، لحنه وقع الكلمة فى الأذن والقلب .

وكامل الشناوى شاعر مقل... ينظم الشعر منذ عهد أبو للو - أى منذ ٢٢ سنة - ومع هذا، فإن ديوانه هذا لا ينتظم أكثر من ٣٢٠ بيتا..هى كل ما نظمه فى حياته أعنى أنه ينظم الشعر بمعدل عشرة أبيات فى السنة..

وإذا عز علينا ألا يثرى كامل الشناوى شعر هذا الجيل بمزيد من نفحات روحه الشاعرة، فعزاؤنا أن الكم قد ضاع عند الشناوى لحساب الكيف.

فى هذا الديوان ٢٨ قصيدة، بعضها لا يجاوز البيتين وأكثرها - إذا

(١) مجلة الهلال/ شاعر أحب الخائنات/ عدد يناير ١٩٦٥.

استثنينا شبه الملحمة "جميلة" - لا يصل إلى العشرين بيتا، وأقل القليل منها يحاول أن يصل إلى الثلاثين أو الأربعين ومع هذا، فقد استطاع الشاعر - بهذه القلة - أن يقنع رواد الشعر الأصيل بأنه من طلائعهم .

واستطاع أيضا أن يخدع دعاة الشعر الجديد بأنه مترخص معهم، بحيلة بسيطة، هى أنه قطع قصائده فى المطبعة تقطيعا موسيقيا أو معنويا، فحسبوا أنه يطفف الكيل ويبخس الميزان ويظلم القافية، كما يفعلون خد مثلا مطلع أغنيته الأثيرة " لا تكذبى " لقد جاءت هكذا على ورق الديوان:

"لا تـــــكـــــذبـــــى . . .

"أنى رأيتكمـــا مـــعـــا

"ودعـــى الـــبـــكـــاء

"فـــقـــد كـــرهت الأدمـــعـــا

"مـــا أهون الدمع الجـــســـور إذا جـــرى

"مـــن عـــيـــن كـــاذبـــة

" فـــــــأنـــكـــر وادعـــى

"أنـــى رأيـــتـــكـــمـــا

" أنـــى ســـمـــعـــتـــكـــمـــا

"عـــيـــنـــاك فـــى عـــيـــنـــيـــه

" فـــى شـــفـــتـــيـــه

" فـــى كـــفـــيـــه

" فـــى قـــدمـــيـــه

" ويداك ضـــــــارعـــــــتـــــان

" ترتعـــشـــان من لهف عليـــه "

من هذه الصورة، وبهذه الخدعة، ظن دعاة الشعر الجديد أن القصيدة من الشعر الجديد، فشطرة تخلص فى كلمة، وشطرة تمتط كاللولب، بينما القصيدة فى مبناها - وفى قرارة شاعرها وقرارة كل شاعر - سليمة وأصيلة، وهذا بناؤها الخليلى:

" لا تـــــكـــــذبـــــى...

"أنى رأيتكمـــــا مـــــعـــــا

"ودعـــــى الـــــبـــــكـــــاء

"فـــقـــد كـــرهت الأدمـــعـــا

"مـــا أهون الدمع الجـــســـور إذا جـــرى

"مـــن عـــــيـــــن كـــــاذبـــة

" فـــــــأنـــكـــر وادعـــى

"أنـــى رأيـــتـــكـــمـــــا

" أنـــى ســـمـــعـــتـــكمـــا

"عـــينـــاك فـــى عـــينـــيـــه

" فـــى شـــفـــتـــيـــه

" فـــى كـــفـــيـــه

" فـــى قـــدمـــيـــه

" ويداك ضـــــارعـــــتـــــان

" ترتعـــشـــان من لهف عليـــه "

وهكذا ترى أن بناء القصيدة سليم من الوجهة الخليلية، فهى تعتمد على البحر ومجزوئه فى تفاصيل منتظمة، تضفى على الشعر طاقة موسيقية زاخرة، نجيزها كل الإجازة، ولا نرى فيها عدوانا على أصالة الشعر فنحن نبيح تلوين الشعر بالبحر ومجزوئه، ونبيح تسلسل البحور المختلفة فى القصيدة الواحدة مع التزام الروح الموسيقية، كما ينتقل المغنى من " البياتى " إلى " السيكا" على تحميلة من "الرصد" .

ونحن نجيز أيضا تنويع القافية، مادام هذا التنويع يسير فى جسد القصيدة كلها على نسق معروف .

معنى هذا أننا لسنا متزمتين فى التمسك بالشكل، ولا متعنتين فى جمود الحركة الموسيقية، ولكننا لا نريد أن نفتح أبواب الشعر على جميع مصاريعها لكل عاجز فى الموهبة والصنعة معا .

كل شعر كامل الشناوى - لو رسمناه على هذه الصورة الخليلية - فيما عدا قصيدة واحدة أو قصيدة ونصفا على الأكثر - حجة معنا لا علينا.

ومع هذا، فقد خدع الرسم المطبعى دعاة الشعر الجديد، فضموا هذا الديوان إلى حجتهم عن جهالة!.

* * *

وأبرز ظاهرة فى شعر هذا الديوان، أنه فى أكثره شعر حب، ولكنه لون من الحب لا تشم منه رائحة الجسد، ولا تلمس فيه أثر الجنس فى كيان الشاعر نفسه ولكنك تشم تلك الرائحة وتلمس هذا الأثر فى كيان حبيباته، وفى كيان الآخرين.

فكل حبيبات كامل الشناوى - فى مرآة شعره - خائنات، وكأنه لا يتعلق قلبه إلا بالخائنات، وهو مكتف من الموقف كله بالسخط والغضب والثورة والحرمان والتعذيب.

قصيدة "لا تكذبى" كلها تتحدث إلى الخائنة التى رآها مع واحد من الآخرين، وعيناها فى عينيه وفى شفتيه وفى كفيه وفى قدميه ويداها ضارعتان ترتعشان من لهف عليه، تتحديان الشوق بالقبلات التى تلدغ الشاعر بسوط من لهيب...

وقصيدة " حبيبها " تقول فى مطلعها:

حبيبها لست وحدك

حبيبها، أنا قبلك

وربما جئت بعدك

وربما كنت مثلك

فلم أزل ألقاها

وتستبيح خداعى

بلهفة فى اللقاء

برجفة فى الوداع

إلى أن يقول كامل الشناوى والألم يعتصره:

حبيبها، وروت لى

ما كان منك ومنهم

فهم كثير، ولكن

لا شئ نعرف عنهم

أنها صورة " ممثلة"... قد لا تكون ممثلة على مسرح ولا على شاشة... وقد تكون... ولكنها امرأة تجيد تمثيل دور الحب على أحبائها،

وهم كثير... على حد اعتراف الشاعر... ومع هذا فإنها تستبيح خداعهم، وتحسنه بلهفة فى لقاء كل منهم وبرجفة فى وداعه !.

وقصيدة «قلبى» تقول:

كـيـف يـا قـلـب تـرتـضـى
طـعـنـة الـغـدر فـى الـضـلـوع
وتـدارى جـحـودهـا
فـى رداء مـن الـدمـوع
لـسـت قـلـبـى، وإنمـا
خـنـجـر أنـت فـى الـضـلـوع

ثم يصف هذه "الغادرة" وكيف هوت به خيانتها من القمة إلى السفح قائلا لقلبه:

أو تـدرى بمـا جـرى ؟
أو تـدرى دمـى جـرى ؟
جـذبـتـنـى مـن الـذرى
ورمـت بـى إلـى الـثـرى

وبرغم هذا الغدر... وهذه الخيانة وبرغم هذا السخط... وهذه الثورة لا زال قلبه يحبها، لأنه يحب الخائنات:

ويعترف بهذه الحقيقة فى نهاية القصيدة التى يخاطب فيها قلبه:

دمـرتـنـى لأنـنـى
كـنـت يـومـا أحـبـهـا

وإلـــــى الآن لــــــم يــــــزل

نـابـضـــا فـــيك حـــبـــهـــا

لـــســـت قـــلـــبـــى أنـــا إذن

إنمـا أنـت قـلـبـــــــهـــــــا

وحول المحورين نفسيهما - محور الخيانة ومحور الرضا بالخيانة - تدور قصيدة " ظمأ وجوع " فتقول:

أحـــبـــبـــتـــهـــا وظننت أن لقلبـــهـــا

نـبـــضـــا كـــقـلبى لا تقـــيـــده الضلوع

أحـــبـــبـــتـــهـــا فـــإذا بـهـــا قلب بلا

نبض، ســـراب خـــادع، ظـمـــأ وجـــوع

فـــتـــركـــتـــهـــا، لكن قلبى لم يزل

طفل يعـــاوده الحنيـن إلى الرجـــوع

وإذا مـــررت، وكـم مـــررت ببـيـــتـــهـــا

تـبكى الخطا منى وترتعـــد الدمـــوع

* * *

كل قصيدة من قصائد الديوان كله، يتصاعد منها بخار الخيانة والغدر...

حتى القصائد الوطنية، يتمثل فيها الشاعر وطنه المصرى، أو وطنه العربى فى الجزائر، أو وطنه الأكبر فى الأمة العربية كلها، حبيبة أثيرة، يفجعه فيها غدر الآخرين الخونة والطامعين والمستعمرين .

يقول فى " نشيد الحرية ":

عـــرضك الغـــالى على الظالم هان

ومـــــشى العـــــار إليـــــه وإليك

أرضك الحـــــرة غطاها الهـــــوان

وطغى الظلم عليـــــهـــا وعليك

قـــدم الآجـــال قـــربانا لعـــرضك

إجعل العمـر سياجا حـول أرضك

* * *

وعاشق الخائنات يواجه هذه الخيانة بالسخط والثورة، يتجليان فى صور شتى، وينتهيان إلى نهايات متباينة وينتهيان أحيانا إلى الاستسلام والرضا بالواقع، أو إلى التنازل عن قضية الحب كله، كقوله فى نهاية قصيدة «لا تكذبى»:

فــأنا صنعتك من هواى ومن جنونى

وأنا برئت من الهـــوى ومن الجنون

أو إلى ترك النهاية لمشيئة القدر، كقوله فى نهاية قصيدة "قلبى":

وضـــــمـــــيـــــرى يشـــــدنى

لهـــــوى مـــــاله ضـــــمـــــيـــــر

وإلـــــى أيـــــن ؟ لا تـــــســـــل

فـــــأنا أجـــــهل المصـــــيـــــر

* * *

أو إلى التزام الصمت إشفاقا على الكبرياء، فى قصيدة «لست أشكو» إذ يقول:

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قـيـد ترسف العـزة فـيـه والإباء

أنا لا أشكو فـفى الشكوى انحناء

وأنا نبض عـروقى كـبـرياء

وقد يوغل فى الثورة، ويتحول هذا المستسلم الحنون، إلى تيار جارف من القسوة، ويدعو الله أن يعذب حبيبه كما عذبه، وفى نهاية قصيدة «بدرى»:

يارب عـذب بالهـيـام قلبـه

وزد على مـر الليـالى حـبـه

ولا تفـرج بالبكاء كـربه

لعله يرحم من أحـبـه

ويعلق الشاعر صالح جودت على شعر كامل الشناوى فى ديوانه فيقول: ولعل هذه القسوة - التى لا تشيع فى روح الديوان هى الهنة الوحيدة التى آخذها على صاحب هذا الديوان .

ونعود إلى «المقدمة»

ولأن الطبيعى أن نتحدث عن المقدمة فى أول الحديث، لولا أن الشاعر نفسه شاء أن يغالطنا، بأن يقول فى المقدمة أنه ليس متشائما ثم يختتم الديوان بقصيدة «عدت يا يوم مولدى» التى يصل فيها إلى ذروة التشاؤم.

يقول الشاعر فى مقدمة ديوانه:

ولا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة

الجبين... فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلا.

«لست متشائما، ولست مجنونا، ولكنى أحاول أن أكون صادقا مع ما أشعر به، وما أفكر فيه».

هذه العبارة تثير أكثر من جانب من جوانب هذا الشاعر، وتأخذك عبارته «أن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة».

والمعروف عن كامل الشناوى أنه من ظرفاء هذا العصر، وأنه يملأ مجالات الحياة حوله ضحكات عالية وفكاهات صارخة، وهذه الحقيقة تأخذ بخناقه إذا طبقنا عليه عبارته هذه، وتضعه فى عداد المجانين.

ولعله يعترف بهذا الجنون فى أكثر من قصيدة، ومنها قوله: فأنا صنعتك من هواى ومن جنونى، ومنها قوله:

يا لهفتى من خاطر
أسود مجنون الخطا
ينسل فى جوارحى
لصا على روحى سطا
جردنى من هدأتى
وشدنى إلى الجنون
حبيبتى أين ؟ ألا
جواب لى إلا الظنون ؟

* * *

ويقول فى قصيدة " يا حيتى"

مــــازال يحـــمل قلبـــه الجنونا

فـاسـقـه من غـصص الخـداع فنونا

صـــبى له الكأس التى مـــا ذاقـــهـــا

إلا وجـن مـن العـــــــذاب جـنـونـا

أما وقد عرفنا لماذا يملأ كامل الشناوى أجواء حياته الاجتماعية بالضحكات، فليس لنا أن نلوم جنونه، فإنه لا ينفرد وحده بالجنون، لأنه ما من فنان على الأرض خلا من الجنون .

والظاهرة العجيبة فى عالم الأدب عامة، وفى الأدب المصرى خاصة أن أمرح الكتاب والشعراء فى حياتهم الاجتماعية، هم أحزن الكتاب والشعراء إذا كتبوا أو نظموا، وكأن المرح فى كيانهم قشرة ظاهرة بينما الشجى راسب متأصل فى الأعماق، والأمثلة الصادقة لهذه الحقيقة حافظ إبراهيم، وإبراهيم ناجى... وأحمد رامى، وكامل الشناوى .

* * *

ثم خوفه من الموت فى قوله: «فمادمنا نعرف أن الموت يتعقب حياتنا، الخ».

وقد تتناقض هذه العبارة مع ما نلمح فى شعره من قدرية، ولا أدرية كقوله:

إلى أين نمضى أيهـــا الدهر بعـــد مـــا

نصـيـر هبـاء،لا ضــجـيج ولا صــمت

وبنـسل منـا الشـــــر والغى والمقت

إلى أين يمـــضى شــيـبنا وشـــبـابنا

إلى أين يمضى الومض والنبض والصوت

وفى أى قبـو منك خبـأت من مـضـوا

وأبعـدت مـشـواهـم فـراحـوا ولم يأتوا

وقوله فى تساؤلاته الفلسفية الحائرة:

يارب فـيـمـا خلقـتنا وتركـتنا

نهب الضـبـاب فـلا ظلام ولا سنا

وندب فـوق الأرض لا ندرى بهـا

وندب فـوق الأرض لا تدرى بنا

كل هذه "اللا أدريات" التى تذكرنى بلا أدريات إيليا أبى ماضى... وهذه القدريات الساخرة.... مع هذا الإشفاق من الموت.قد يتناقض بعضها مع بعض، إلى أن تجد الجواب فى أول المقدمة:

"لا تحاول أن تنسب هذا الشعر إلى مدرسة فنية بذاتها، كالواقعية والرومانسية والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب أحد منها".

وهذه هى الأصالة...

الأصالة أمر من اثنين، فإما أن تكون صاحب مذهب، تكون أنت منشئه ومخترعه ورائده، لا تابعاً ولا مريداً ولا مقلدا فيه.

وإما أن يكون مذهبك أن تطلق ينابيع نفسك على سجيتها، دون أن يقيدك مذهب بذاته أو تتميك مدرسة بعينها.

وهذا هو شأن صاحب هذا الديوان.

* * *

وهكذا لم يترك لنا كامل الشناوى من حصاد رحلته الشعرية على مدى أكثر من ثلاثة عقود غير هذا الديوان اليتيم الذى كان على قلة قصائده نموذجاً رائعاً للشعر الوجدانى الصادق الذى يعكس مشاعر قلب عاشق معذب أصلته نيران الغدر والهجر والخيانة، فانطلق يرسل دموع قلبه، وأنات روحه!

كما عبر كامل الشناوى عن مشاعر قلب محب لمصر وللعروبة، عايش مختلف الأحداث والقضايا القومية وعبر عنها بنبض وجدانه فجاءت أناشيد الوطنية والقومية تعبيراً عن مشاعر الجموع، وتجسيداً لآمالها وطموحاتها فى الحرية والكرامة والنضال.

* * *

الفصل الثانى

شاعرية كامل الشناوى

داري غرامي - ما بدا لك - داري
أنا بالصبابة هاتك أستاري
هيهات... لا أقوى على كتمان
ما باحت به عيناك من أسرار
عيناك حدثتا بما سكرت به روحى
وعربد خمره بوقارى !

كامل الشناوى

كان كامل الشناوى شاعراً رقيقاً، ذواقة، قرأ لفحول الشعراء العرب القدامى والمحدثين، خاصة شعر المتنبى وأبو نواس والمعرى، وكان أول ما يفتنه فى الشعر إشراقة الديباجة والعذوبة والجرس الموسيقى بجانب صدق الشعر وحرارته وبعده عن التكلف والافتعال وإلا أصبح نظماً، ولذلك هز شعر كامل الشناوى مشاعرنا لصدقه وعفويته وحرارة انفعالاته، يقول كامل:

«الشعر إذا لم يهز قلبك، وذهنك... فهو ليس شعراً. ولا يكفى أن ينبض فيك الشعر الذى تقوله، بل يجب أن ينتقل نبضه إلى قلوب الآخرين».

"والشعر رقصة عاطفية وعقلية، ولابد للرقصة من موسيقى تصاحبها، وتقودها، وإلا صارت خطوات ملتوية".

"وقد حاولت فى شعرى أن أغنى، وأبكى، وأرقص بصدق وموسيقى... ولا أعرف هل نجحت محاولتى أو فشلت؟"

"كل ما أعرفه أنى كنت صادقا فى غنائى، وبكائى، ورقصى".

* * *

وكامل الشناوى لم يتأثر فى شعره بمدرسة فنية بذاتها: كالواقعية، والرومانسية، والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب واحد منها.... إن فيه واقعية تعبر عن تجربة ما، وفيه رومانسية تحلق فى الخيال، وفيه طبيعية حرة لا تقف عند ما هو كائن، ولكن تتحرق شوقاً إلى معرفة ما وراء الطبيعة!

لكن إذا صنفت كامل الشناوى وشعره وجدته فى النهاية شاعراً رومانسياً محلقاً، عاش بعواطفه ومشاعره المشتعلة حبا وعشقاً للجمال والمرأة ومصر ووطنه العربى، وظل يغرد على أغصان الجمال، حتى انقطع الوتر، وتحطم القيثار!

* * *

وعن الشعراء الذين صنعوا شاعرية كامل الشناوى يروى لنا صديقه الشاعر الكبير صالح جودت[1]:

"كان كامل الشناوى بسمة على ثغر الحياة.... لا تكاد تذكر يوماً من أيامه، أوليلة من لياليه، إلا قفزت على شفتيك ابتسامة لنكتة قالها، أو بيت طريف رواه، أو "مقلباً" هيأه لبعض أحبابه وأصحابه......"

"وكأن الله حينما خلق الهموم على الأرض، شاء - من لطفه بعباده - أن يخلق قوماً موكلين بإزالتها. ومن طلائعهم كامل الشناوى".

"فى مأتمه. كنت أسير مع رامى وظل رامى يهمس لى: فاكر....؟ وفاكر....؟ وفاكر....؟"

كان يذكرنى بروح كامل المرحة، لعله يسرى الهم عن نفسه وعنى، من ذلك، أن رامى عاش ما عاش، وهو يأبى أن يدخل التليفون إلى بيته، وكنت أسأله فى ذلك فيقول:

- أصلى خايف حد يضرب التليفون لمراتى ويقول لها أن جوزك بيحب أم كلثوم، وكان كامل الشناوى يعقب على هذه الخصومة بين رامى والتليفون بقوله أن شاعرين اثنين فى الدنيا لم يدخل التليفون فى بيتهما، هما أحمد رامى، وامرؤ القيس.

وفى مطلع عام ١٩٦٥ فقط، اقتنع رامى بضرورة التليفون، فأدخله فى بيته وسمع بذلك كامل، فاتصل برامى، وقال له:

- مبروك يا رامى... لكن كيف عرفت تدخل تليفون؟

فأجاب رامى... ببراءة:

---

(١) الهلال/ ١٩٦٦.

- والله يا كامل دانا غلبت على ما عرفت آخذ خط.

فقال كامل... جاداً:

ـ طيب يا أخى مادام لك نفوذ بالشكل ده، ما تتوسط لأمرئ الفيس

* * *

وله فى التفكه وقائع طويلة مع شاعر البؤس عبد الحميد الديب، رحمة الله عليه، عاش الديب أكثر حياته جائعاً، بلا مأوى، ولا دخل.

وكان كامل الشناوى فى مطلع حياته الأدبية، سنة ١٩٣٢ يقيم فى بيت ذويه بأحد منعطفات شارع السد البرانى، بالسيدة زينب، وهو بيت قديم مؤلف من ثلاثة طوابق، كان كامل وحده يحتل الدور الأول منه، وكان - على رقة حاله فى ذلك العهد- كريماً مضيافاً. فكان يؤوى الديب عنده أياماً طويلة، ويقتسم معه طعامه.

ولكنه كان لا يفتأ يتندر على الديب ويتفكه به طوال مقامه عنده، وكان الديب - على سعة صدره وشدة حاجته وخفة ظله هو الآخر - يضيق أحاناً بفكاهات كامل، فيثور، ويترك البيت، ويحتمل حياة الجوع والعراء أياماً، إلى أن يصالحه كامل، فيعود.

من تندره عليه، أنه كان يخرج من جيبه عشرة قروش، ويقربها من الديب، ويقول للديب مشيراً إلى العملة:

- حضرتها... عشرة صاغ

ثم يلتفت للورقة، مشيراً إلى الديب، ويقول لها:

- وحضرته... الشاعر الكبير عبد الحميد الديب.

أى أن أحداً منهما لم ير الآخر أبداً.....

ثم يفعل مثل ذلك بقطعة من الصابون، أى أن الديب لم ير الصابون ولم يستحم فى حياته.

* * *

وكان بارعاً فى تقليد الأصوات إلى أبعد حد وقد استغل هذه البراعة فى كثير من "مقالبه".

ومنها أن الأستاذين عباس العقاد - رحمه الله - وتوفيق دياب، كانا صديقين.

وذات يوم، كتب توفيق دياب مقالاً سياسياً فى جريدته "الجهاد" واتصل كامل الشناوى بتوفيق دياب تليفونياً، وزعم له أنه العقاد، وقلد صوته وأسلوبه فى الحديث بطريقة لم تدع عند توفيق دياب مجالاً للشك فى أن محدثه هو العقاد.. الذى راح يفند المقال، ويهاجم توفيق دياب، ويتوعده بمعركة قلمية هادرة.

وثار توفيق دياب، وكتب مقالاً ينتقد فيه أدب العقاد بقسوة. وبدأت المعركة الهادرة بين الكاتبين الكبيرين.

* * *

فى ذلك البيت الذى حدثتك عنه، بمنعطف من شارع السد البرانى عرفنا الندوة الأدبية فى أول عهدنا بالشعر، وكان كامل الشناوى عهدئذ قد تمرد على الأزهر - الذى ألحقه به أبوه على غير رغبة منه - وهجر الدراسة، وتفرغ للثقافة العصامية يطلبها فى دار الكتب، وكنا نجتمع فى "مندرة" البيت كل ليلة لنسمع من كامل ما أعجبه من محصول يومه فى دار الكتب.

وفى الحق أنه كان ذواقة نادراً، وكان من خير الرواة ومن أحلى الأصوات العذبة فى تلاوة الشعر، إلى حد أن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا يطربان لإلقائه من أمثلة ما سمعنا منه فى تلك الأيام، هذان البيتان

للشاعر العباسى، العباس بن الأحنف، يقول لحبيبته:

أستغفر الله، إلا من محبتكم

فإنها حسناتى يوم ألقاه

فإن زعمت بأن الحب معصية

فالحب أجمل ما يعصى به الله

وهذه الأبيات لملك أذله الحب، هو الخليفة سليمان المستعين، من خلفاء بنى أمية:

عجبا، يهاب الليث حد سنانى

وأهاب لحظ فواتر الأجفان

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا

فقضى بسلطان على سلطان

فأبحن من قلبى الحمى وتركننى

فى عز ملكى كالأسير العاتى

لا تعذلوا ملكا تذلل فى الهوى

ذل الهوى عز وملك ثان

وهذه الأبيات لأعرابى مجهول:

شكوت، فقالت: كل هذا تبرما

بحبى؟ أراح الله قلبك من حبى

فلما كتمت الحب، قالت: لشد ما

صبرت وما هذا بفعل شجى القلب

وأدنو فـتـقـصـينى، فـأبعـد طالبـا

رضـاها، فـتـعـتـد التـبـاعـد من ذنبى

فـشكواى تؤذيهـا، وصـبـرى يسـوءها

وتجـزع من بعـدى، وتنفـر من قـربى

وكـان كـامل لا يفـتـأ يردد حكاية الشـاعـر الأعـرابى الذى ارتكب فى حياته كل معصيات الدنيا، فلما تقدمت به السن وشارف الموت قال:

هل الله عـاف عن ذنوب تسلفت؟

أم الله، إن لم يعف عنهـا، يعـيـدها؟

* * *

من هذه الأمثلة، تتبين لك اتجاهات كامل، كذواقة تأخذه من الشـعـر موسيقاه ورقته، ينقب فى بطون الأدب العربى يستخرج منها روائع لم تشتهر من قبل، لأن اكثر رواة المختارات التى طبعت فى الكتب، وفرضت على تلاميذ المدارس وطلاب الأدب، كان ينقصهم ذوق ذواقه ككامل الشناوى.

وفى تلك "المندرة" علم كامل إخوته الشعر، فشبوا جميعاً وما منهم إلا شاعر أو راوية.

نظم آخوه "أبو الفضل" شعراً لطيفاً وهو فى نحو العاشرة، وإن كان قد انصرف عنه بعد ذلك.

وبدأ أخـوه"مـأمـون" بنظم الشـعـر منذ مطالع صـبـاه. وكـان ينظم بالفـصـحـى، وينشـر مـا ينظم فى مـجـله "أبو للو" قـبل أن ينصـرف عن الفصحى إلى العامية، ويتفرغ لنظم الأغانى الدارجة، ويشتهر بها، وآخرها "بعيد عنك حياتى عذاب" لأم كلثوم.

* * *

وقد لا يعرف الكثيرون من أصدقاء كامل وقرائه أنه بدأ حياته الأدبية فى مجلة أسبوعية صغيرة، كان يصدرها المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس، بمرتب لا يزيد على جنيهين فى الشهر.

وكان نتاجه فى هذه المجلة مقصوراً على أدب الفكاهة، من شعر ونثر ومقامة. وكان هذا المناخ فى مجموعه، يمثل طرفاً من حركة أدبية كانت قائمة فى ذلك العهد بين جماعة "أبوللو" برئاسة شوقى وتوجيه أبى شادى، وبين العقاد ومريديه.

وقد أخذت المجلة التى يعمل بها كامل جانب العقاد، فضلع كامل فى المعركة رغم حبه لشوقى وإيمانه بمدرسته - بينما استعانت أبو للو على حملتها، التى شملت يومئذ طه حسين، وإبراهيم المازنى مع العقاد، ببيرم التونسى - رحمه الله - وكان بيرم يومئذ فى منفاه فى باريس، وكان يحرر عن طريق المراسلة جميع صفحات مجلة الإمام التى أصدرتها جماعة "أبوللو" يومئذ من الغلاف إلى الغلاف.

"وهكذا شهدت دنيا الأدب فى ذلك العهد معركة ضارية، لا أنكر أنها أسفت فى بعض الأحيان، ولم تسلم من التجنى - من الجانبين - ولكنها رغم ذلك كله أسفرت عن تصفيات كبيرة لعناصر الضعف. وأبرزت خطوطاً واضحة فى مدارس الأدب المعاصرة، وأخرجت إلى النور مواهب كثيرة شقت طريقها إلى الذروة. ومنها كامل الشناوى الذى اتجه بعد هذه المعركة إلى الصحافة اليومية، فبدأ من السفح إلى أن بلغ القمة، بدأ كامل مصححا فى جريدة "كوكب الشرق" إلى أن وصل إلى رئيس تحرير الأخبار".

وفى غضون ذلك. عمل بالجهاد والأهرام وروز اليوسف اليومية ودار الهلال والجمهورية.

ثم يقول صالح جودت:

«وقد أتيح لى خلال هذه المدة أن أعرف من كامل الشناوى أكثر مما عرفت منه فى أول شبابه».

كنت وأنا طالب بالجامعة، أناديه كما يناديه أخوته، بقولنا: ياسى كامل وحينما نال رتبة البكوية فى العهد الملكى، قلت له مرة واحدة: "يا كامل بك"... فغضب منى... وقال لى: "قل لى يا كامل فقط".

ومن يومها استجبت له، وجعلت أناديه باسمه المجرد.

وقد عملنا فى "الأهرام"، ثم فى "الأخبار" فى أول نشأتها، وذهبنا معا إلى أسوان عند إرساء حجر الأساس للسد العالى فعشنا أياماً فى غرفة واحدة، ثم سافرنا معا إلى مؤتمر الأدباء بالكويت، فلم نفترق ليل نهار طوال أيام المؤتمر.

وكانت هذه أول مرة - وآخر مرة - يسافر فيها كامل الشناوى إلى الخارج، كما كانت أول مرة - وآخر مرة - يركب فيها الطائرة .

"وكنت أعرف أنه - على ضخامه جسده - ضعيف الأعصاب، يفرق من كل شئ، ومن أقل شئ، وكان من المأثور عنه، إذ نحن نعمل معا بجريدة "الأهرام" أثناء الحرب، هو فى السياسة الداخلية وأنا فى السياسة الخارجية، أنه كان لا يكاد يسمع صفارة الإنذار، حتى يلوذ بدورة المياه، فيلبث بها إلى أن تتجلى الغارة، فيخرج منها شاحب الوجه مهلهل الجسد.

فلما ركبنا الطائرة إلى الكويت لحضور المؤتمر، رأيت الإشفاق من الموت فى عينيه ويضحك فى محاولة للتجلد، وهو يردد بيت أمير الشعراء، الذى كان يفرق من ركوب الطائرة هو الآخر، ولهذا لم يركبها فى حياته:

أركب الليث ولا أركبها

وأرى ليث الثرى أوفى ذماما

"أقول رأيت هذا الإشفاق من الموت فى عينيه، فأغريته بمضيفة الطائرة، وسألتها - بينى وبينها - أن تتلطف معه حتى تزول غشيته، وكانت شابة لبنانية مرحة، تحب الشعر، فما زالت به تداعبه وتشاغبه حتى نسى أنه فى طائرة، واستخفه الحسن، فهانت عليه الرحلة حتى نهايتها.

* * *

كان يستخفه الحسن كما قلت، فعاش عاشقاً، لا ينجو من حب إلا ليقع فى حب جديد.

وكانت أحب النساء إليه، ذوات الجسد الضئيل والصوت العذب.

ويضيف صالح جودت:

ولهذا، فإنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة لى، يلحنها عبد الوهاب، لتغنيها نجاة الصغيرة، عنوانها "مينيون" وهى كلمة فرنسية لا مرادف لها بالعربية، ترسم فى الذهن صورة للمرأه الحلوة الرقيقة ضئيلة الجسد كاللعبة. ومطلع القصيدة يقول على لسان هذه "المينيون" لرجلها فارع القامة:

أحبه، أحبه... ويزدهينى حبه
وفرته تعجبنى... وقلتى تعجبه
كأننى فى أصبعيه حينما أقربه
سيجار تؤنسه.تدفئه. تلهبه
كأننى لعبته.. وأضلعى ملعبه
كأننى عصفورة. زقزقتى تطربه
يضمنى فى يده. ويحتوينى جيبه
أكاد من تيهى به. آكله. أشربه

ولكنه كان فى كل حب له، يؤمن بالروحية دون الحسية، على حد قول الشاعر القديم:

وكم ظفـرت بمن أهوى، فـيـمنعنى
منه الحـيـاء وخـوف الله والحـذر
وكم ظفـرت بمن أهوى، فـيـمنعنى
مـنـه الـفـكـاهـة والإيـنـاس والـنـظـر
أهوى الملاح، وأهوى أن أجـالـسـهـم
ولـيـس لـى فـى حـرام منـهـم وطـر
كـذلك الحب، لا إتيـان مـعـصـيـة
لا خـيـر فى لذة من بعـدها سـقـر

ومع تواضع مطالبه للمرأة، لم يلق منها فى كل مرة إلا الغبن، فعاش عاشقاً نقياً شجياً، وهذا هو سر الحرقة فى شعره.

وأذكـر أننى - عندمـا صـدر ديوانه "لا تكذبى" وهو ديوانه الأول والأخيـر - كتبت عنه مقالاً فى هلال يناير. مقالاً عنوانه "شاعر يحب الخائنات" أحصيت عليه فيه - من واقع قصائد الديوان - عدد ما أحب ممن لم يبادلنه الوفاء بالوفاء.

عنوان الديوان نفسه " لا تكذبى".. كان صرخة ضد خيانة المرأة.

وأول بيتين فيه. كانا حكاية أكبر حب فى حياته... وأكبر غدر وقع فيه قلبه:

لا تـكـذبـى.. إنى رأيـتـكـمـا مـعـا
ودعى البـكـاء فـقـد كـرهت الأدمـعـا

مـا أهون الدمع الجسور إذا جـرى

من عين كاذبة فأنكر وادعى

ثم يفصل صالح جودت الشعراء الخمسة الذين أثروا فى كيان كامل الشناوى وشعره، فيقول[1]:

"خمسة شعراء، لعبوا دورهم فى حياة كامل الشناوى، فأثروا فى كيانه، أو فى شعره، هم: الشريف الرضى، أبو العلاء المعرى، وأبو نواس، وإيليا أبو ماضى، وأمير الشعراء أحمد شوقى."

١- الشريف بكبريائه...

كان الشريف لا يخشى أن يشمخ أمام الخليفة، ويقول له:

عفوا أمير المؤمنين، فإننا

فى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت

أبداً، كلانا فى المفاخر معرق

إلا الخلافة ميزتك، فإننى

أنا عاطل منها. وأنت مطوق

وأحب كامل فى الشريف هذه الكبرياء، وأحب الكبرياء.

مرة.. روى لى أنه مفتون بمضيفة فى فندق هيلتون، هى التى نظم فيها قصيدته التى عنوانها "فى الكافتيريا"... يقول فيها:

مرت بنا كالطيف تسألنا

ماذا تريد؟ فلذت بالصمت

(١) المرجع السابق.

ودنت لتســـألنى على حـــدة

عـــمــا أريد، فـــقلتـــهــا : أنت !

غـــضـــبت وألقت نظرة نـزعت

قلبى وشـــدته إلى فـــمــــهـــا

ياليــــتــــه يقـــوى يقـــبلهـــا

ياليــــتــــه ينســـاب فى دمـــهـــا

* * *

وأردت أرضـــيـــهـــا، فـــقلت لهـــا :

هـل تعـــــرفين. ومن أكـــــون أنـا

أنـا يـا صـــبـــيـــة شـــاعـــر هرم

قـــد جـــاء يستـــوحى الشـــبـــاب هنا

* * *

أريـد إلـهـــــامـــــة جـــــديـدة

بـقـــدر مـــا أنـظـم الـقـــصـــيـــدة

فـــافـــتـــر ناظرها ومـــبـــســـمـــهـــا

وقـــصـــيـــدتى، مـــازلت أنـظمـــهـــا

وأظل طول العـــمـــر أنـظمـــهـــا

وذهبت معه إلى الكافتيريا لأرى فاتنته وملهمته.

كانت شـابة لطيـفـة خضـراء العينين، وليس فيهـا، بعـد هـاتين العـينين الخضراوين. ما يستهوى شاعراً، اللهم إلا شئ من الاعتداد بالنفس.

ومكثنا نحو ساعة، ثم قمنا، وأصررت أنا على أداء الحساب - وهو ضئيل - فتركنى كامل أؤديه على غير عادته فى أكثر الأحيان، هامساً لى:

سترى، وأديت الحساب، وتركت للشابة فى الصحن الإكرامية الواجبة لمثلها، والتى أتركها عادة لكل زميلاتها، فإذا بوجهها يحمر خجلاً، وإذا بها تدفع بالطبق نحوى قائلة فى أدب: متأسفة... وتولى مدبرة وقال لى كامل:

- أرأيت؟... إنها الوحيدة هنا، التى ترفض البقشيش... كبرياء! وأجمل ما يفتننى فيها هذه الكبرياء.

- ولحبه للكبرياء... يقول فى قصيدة عنوانها "لست عبداً":

علام يا قلب تشكو
نقض الحبيب عهوده
دع الهوان وحطم
أغلاله وقيوده
يافتنتى، لست عبداً !
ولا أطيق العبوده
كونى الجحيم سعيرا
فلن أكون وقوده

ويقول فى قصيدة اخرى:

لست أشكو منك...
فالشكوى عذاب الأبرياء
وهى قيد ترسف العزة

.... فــــــيــــــه والإبــاء

أنــــــا لا أشـــــكـــــو

فــــــفـى الـشـكـوى انـحـنـاء

وأنا نـبـض عـــروقى كــــبـــرياء

٢- وأبو العلاء بحيرته وتشاؤمه... وبكل فلسفته

فقد عانى كامل شظفا فى طفولته، ثم لانت له الحياة، ولكنها لم تلن لبعض إخوته، بل لعلها قست على اليتامى من أبناء بعض إخوته، فأسى كامل لهم، وأعالهم، وبرهم كل البر، وأحس مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة، آخذا بقول أبى العلاء:

هــذا جنـاه أبــى عـلــىّ   ومــا جنيتُ على أحـــد

أما حيرة أبى العلاء المأثورة، فمنها حيرة كامل فى مثل قوله:

زعـــمــــوا حـــبى يا قلب خطايا

لـم يـطـهــــــرها من الإثـم بـكـايا

والخطايا مــــالهــــا من غــــافـــر

فــــتـــرفق.... وتمهل فى الخطايا

وفى مثل قوله للدهر:

هات مــا قــدر القـــضــاء علينا

ولتــفـض كــأس عــيـشنا بالـشـقــاء

لست أخشى القضاء إن قـصد العدل

... ولكن أخـــاف ظلم القـــضــاء

وفى مثل قوله:

قـــــــد تـخـلـت عـنـايـة الـلـه عـنـى
وتـخـلـت عـنـايـة الـشـــــــيطـان
ضـاق بـى مـعـبـدى وضـاقـت حـانـى
لا صـــلاتى تجـــدى، ولا ألحـــانى

كما تأثر بأبى العلاء فى تشاؤمه، وإن كان كامل يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم فى مقدمة ديوانه، ويقول "إن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة"وما أعرف أحداً ضحك للحياة فى حياته قدر ما ضحك كامل وأضحك من حوله، ولكنه كان أشد الناس حزناً إذا خلا إلى نفسه ليكتب شعراً أو نثراً.

من تشاؤمه قوله يصف نفسه:

كـــــهـــــارب لـيـس يـدرى
مـــن أيـــن، أو أيـــن يمـــضـــى
شـك! ضـــبـــاب! حـطـام!
بـعـــضـى يمـزق بـعـــضـى

وقوله

دمـــعـــتى ذاب جـــفـنـهـــا
بـســمــتى مـــالهـــا شـــفـــاه
صـــحـــوة الموت مـــا أرى
أم أرى غـــفـــوة الحـــيـــاة؟

وقصيدته فى يوم مولده، هى ذروة التشاؤم فى حياته.

٣- وأبو نواس.... فى حياته

بعيداً عن الشعر.فقد عاش كامل نواسيا يحب الليل وكل ما يحتضن الليل.

كل ما بين الرجلين من خلاف، إن النواسى كان مغرقا فى الحسية، أما كامل، فقد غلبت روحانيته على حسيته إلى حد كبير، وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبى النواس، وقد حفظ شعره ودرس حياته دراسه نفسية مفصلة، وأزمع أن يكتب له سيرة بأسلوب جديد فى رواية السيرة، ونشر بعض فصول هذا الكتاب فى "الجمهورية" ثم انقطع. ومن أجمل التحايا لهذه الفصول، ما قاله المغفور له الأمير عبد الله السالم الصباح - أمير الكويت الراحل - حين دعانا - كامل وأنا - إذ نحن هناك فى مؤتمر الأدباء منذ سنوات.

قال الأمير لكامل يومئذ:

- إن من يقرأ فصولك عن أبى نواس، لا يشك قيد شعرة فى أنك كنت معاصرا له يا كامل.

٤- إيليا أبو ماضى

وإيليا أبو ماضى... داعية مذهب "اللاأدرية".... وصاحب قصيدة "لست أدرى" التى غنى بعضها عبد الوهاب، أثرت "لا أدريته"أيما تأثير فى تفكير كامل الشعرى، فهو يقول فى إحدى قصائده:

أنـــا فــى الــظــل اصــطــلــى

لفــحــة النار والهــجــيــر

وضــمــيــرى يشــدنــى

لهوى ماله مصير

وإلى أين؟ لا تسل

فأنا أجهل المصير

ويقول فى قصيدة أخرى، متسائلاً عما بعد الموت:

إلى أين نمضى أيها الدهر، بعد ما

نصير هباء، لا ضجيج ولا صمت؟

وينسل منا الحب والخير والهدى؟

وينسل منا الشر والغى والمقت؟

إلى أين يمضى شيبنا وشبابنا

إلى أين يمضى الومض والنبض والصوت؟

وفى أى قبو منك خبأت من مضوا

وأبعدت مثواهم فراحوا ولم يأتوا؟

وفى أى يوم نلتقى بهمو؟ أجب

فقد هدنا شوق، وعذبنا كبت

خمسة أسئلة... يتساءلها الناس منذ آدم حتى الإنسان الخير... ولا جواب عنها إلا: لست أدرى.

ويوغل كامل فى السؤال عن هذه الغيبيات، فيقول فى قصيدة يتساءل فيها من يكون "أنا":

يارب فيم خلقتنا نهب الضباب

... فــــــــــلا ظـلام ولا ســنـا؟

ونـدب فـــــوق الأرض لا نـدرى بـهـــــا

ونـدب فـــــــوق الأرض لا تـدرى بـنـا

أنـا مـن أنـا ؟ أنـا مـن أكـــــــــون؟

وســـــــيلـة؟ أم غــــــــايـة؟

أنـا لـسـت أعـــــــــرف مـن أنـا...

٥- وأخيراً... أمير الشعراء شوقى

وكان كامل الشناوى يقول، كما نقول نحن، أنه أستاذنا الأول والأخير، وأنه سيد الأولين والآخرين، بموسيقاه السحرية، ببيانه المشرق، بخياله الخصب... بتناجه الضخم... بمسرحياته الخالدة... بجده وعبثه... بإسلامياته وغرامياته... بمصريته وعروبته وإنسانيته بمحافظته وتجديده.

مرة.. هاجم أحد النقاد المحدثين ذكرى شوقى، وقال أنه لو عاش فى زماننا هذا لما كان له شأن!

وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الخسيسة بعد أن رأيت أقدار الرجال تهون وقال لى كامل الشناوى كلمة كفكفت دمعى... قال:

"لا عليك إذا رأيت الموتى ينتقدون الأحياء".

ملامح شاعريته فى ديوانه

ويتناول الشاعر الناقد د. كمال نشأت ديوان كامل الشناوى الأول والأخير لا تكذبى عند صدوره فى مطلع عام ١٩٦٥ بالنقد والتحليل، فيرى أنه ليس ديوانا بالمعنى المفهوم من كلمة ديوان، بل يعتبره حصاداً لرحلة كامل الشناوى على مدى عدة عقود منذ بدأ يكتب فى مطلع الثلاثينيات من

القرن العشرين فى مجلة "أبو للو" وغيرها حتى مطلع الستينيات من القرن العشرين أى عند صدور الديوان.

"لا تعتبر مجموعة (لا تكذبى) الشعرية ديوانا بالمعنى المفهوم من كلمة ديوان، ذلك أن الشاعر يجمع حصاده الشعرى بعد سنوات فى كتاب تنتظم فيه تجارب شعورية مختلفة، ومواقف متباينة، فيكون (الديوان) فى هذا الحال ترجمة وجدانية لحياة إنسان فنان."

(لا تكذبى) لا يحقق هذا المفهوم، لأن أغلب قصائده أغنيات غناها كبار المطربين، وكلها تدور حول موضوع واحد لم يستطع الشناوى أن يخرج عنه، فلا ترى فيه إلا غناء بعواطف تثيرها المرأة، كأنما الحياة قد تجمدت على هذه العلاقة بين الرجل والمرأة ولم تعد نفس الشاعر تهتز لما يموج به هذا الكون من موحيات تحرك نوازع النفوس وخطرات العقول، بل بما نحسه من تعاطف مع الطبيعة ومشاهدها وما نجده فى الحياة اليومية مما يثير النفس الشاعرة المنفعلة بهذه الحياة الدوارة الغنية الجديدة فى نظر الشاعر أبداً.

ولسنا بهذا الكلام نفرض على الشاعر - أى شاعر - نمطا من التجارب أو نحدد له درباً معينا يسير فيه، فإن النفوس الشاعرة تتباين فى معادنها، وتختلف فى زوايا التقاطها، وفى نوعية التجارب التى تجذب انتباهها، ولكننا نحب أن نحدد اتجاه هذه المجموعة الشعرية، مشيرين إلى أن لفظة (الديوان) حينما تطلق على مجموعة شعرية لأحد الشعراء تعنى ترجمة نفسية له، وانعكاسا لما أثارته الحياة على صفحة وجدانه، بكل ما تحويه كلمة (حياة) من معنى، أو بعبارة أخرى إن لفظة (الديوان) معناها ترجمة وجدانية لتجارب شخصية تتفاوت معدنا وطعما تفاوت الحياة نفسها، والمعروف أنه على قدر تنوع تجارب الشاعر وكثرتها يكون قربه من

النجـاح فى التـعـبـيـر عن نفـسـه وبيـئتـه وزمنه، فـإذا نظرنا إلى هـذا المجـال الضيق الذى حصر الشناوى نفسه فيه، وجدناه شاعراً غنائياً موهوباً، أميز خصائصـه الصـدق الشـعـورى، ذلك أنه ليس شـاعـراً منقطعا إلى الشـعـر - ومن هنا قلة شعره - وإنما هو رجل يكتب المقطوعة أو القصيدة إذا حركت ربات الشعر أوتاره الحساسة حينما يخلص من شواغل عمله الصحفى.

وليس أحلى ولا آنق من قوله فى بساطة آسرة وعفوية ملهمة وإحساس لاهب:

كنت فى صـمـتك مـرغم	كنت فى حـــبك مكره
فـــــتكـلم.... وتـألـم	وتـعـلـم كـــيـف تكـره
عرضك الغالى على الظالم هان	ومـشى العـار إليـه وإليك
أرضك الحرة غطاها الهوان	وطغى الظلم عليها وعليك
قدم الآجال قربانا لعرضك	اجعل العمر سياجا حول أرضك
غضبة للعرض... للأرض... لنا	غـضـبـة تبـعـث فـينا مجـدنا
وإذا مـا هتف الهـول بـنا	فليـقـل كل فـتى. إنى هـنا

وقد لعب هـذا النشيد دوره الوطنى فى معاركنا، وحاجتنا إلى الأناشيد معروفة، وضعف ما كتب منها حتى الآن لا جدال فيه، فإلى جانب العاطفة الصادقة فى هذا النشيد، نرى الأسلوب المعاصر وزوايا الالتقاط التى تعنى بالحض والاثارة فى وقت كنا في حاجة إليهما حتى نطلق الصرخة التى (تشد ظهور الركع) كما يقول الشناوى، ومن هنا خطورة هذا النشيد وعلوه على الهتافات العنترية الساذجة مثل (نحن السيوف المشرعات للعدا) و(نحن بناة الهرم...) وما تابع هذه الشعارات التقريرية التى لا تمس عاطفة ولا تحرك نخوة، وإنما تبعث على الضحك بسذاجتها ومشيها على الدروب المطروقة.

وتبدهك أيضاً هذه الحلاوة الغنائية والبساطة التعبيرية الآسرة فى مثل قول الشناوى:

زعـــمـــوا حـــبى يا قلب خطايا
لـم يطهـــــــرها من الإثـم بكايا
والخطايا مـــا لهـــا من غـــافـــر
فـــتـــــرفق وتمهل فى الخطايا
حـــســـبنا مـــا كـــان واهدأ هاهنا
فى ضلوعى واحـــتـــبس خلف الحنايا

وتطرد خصائص الغنائية على أتم درجاتها فى شعر كامل الشناوى من بساطة وعفوية، إلى أناقة تعبيرية، إلى ترنيم شجى أليف لا تحذلق فيه ولا ادعاء، وحسب الشناوى أن يكون هذا الروح البلبلى الصادق.

على أننا لا نعدم اليوم نقاداً يقولون إن الغنائية مرحلة تخطاها الشعر عامة، وأن فيها من البساطة الساذجة ما لا يرضى نفوسنا، فنحن أحوج إلى الشعر الدسم ذى الأبعاد الفكرية، لا الشعر الغنائى الذى يخاطب سطوح وجداناتنا، ويدللون على هذه الحاجة قائلين إن الإنسان قد تعدى حياة الفطرة، فتعقدت حياته وأخذت أنماط فنونه تتعقد هى الأخرى بتعقد هذه الحياة، وإذا بهذه الفنون جميعاً - ومنها الشعر بالطبع - تصبح ذات أعماق لانعكاس الحصيلة الثقافية التى وصلت إليها الإنسانية فى هذا العصر على هذه الفنون مضموناً وشكلاً، وهو كلام فيه نصيب من الصحة ولكنه على صحته لا ينفى حاجتنا إلى الشعر الغنائى، فمازلنا الى اليوم مع إعجابنا ببعض الأعمال الشعرية التى تتمثل فيها آراء هؤلاء النقاد نحس أننا فى حاجة إلى شعر الفطرة الصادقة، إلى الشعر النابع من إحساس لم يرتد

أزياء مفتعلة ولم يتخذ الحذلقة الفكرية وحشد ثقافات منوعة شعارا له.

ما زالت الإنسانية وستظل ظامئة إلى التجربة الشعورية تتناولها البساطة التعبيرية، بل وأقول البساطة الأميل إلى سذاجة الفطرة.... وارجع إلى سر خلود الأدب القديم فى الملاحم والأساطير... واسأل نفسك ماذا يعجبك فيه؟

ولعل مما يؤيد رأينا رجوع كثير من الشعراء، على اختلاف أوطانهم ولغاتهم إلى أدبهم الشعبى، ابن الفطرة الصادقة والبساطة الأليفة، يستوحونه ويتخذون منه موضوعاتهم، بل ويستعيرون طرق تعبيره البعيدة عن التعقيد واستعراض العضلات الثقافية، وقبل أن نتناول مضمون (لا تكذبى) العام واتجاهاته، نريد أن نسأل لماذا نشرت قصائده بهذا الشكل؟

إن قصائد المجموعة قصائد عمودية تتبع القالب الكلاسيكى، ولكنها فى الديوان تتقطع جملا غير مرتبطة وكأنها محاولة جديدة من محاولات التعبير، فما المراد بنشرها بهذا الشكل.....؟

هل الغرض الإيهام بأنها من الشعر الجديد؟ إن كان هذا هو الغرض، فالمسألة لا تخفى على أى قارئ له بالشعر العربى أبسط دراية، وليس هناك إلا احتمال واحد هو أن مجموعة القصائد المنشورة ضئيلة وقليلة العدد إلى الحد الذى دعا إلى بعثرتها جملا مفرقة لتغطى مساحات ورقية يمكن أن تخرج كتابا.

فالأبيات الآتية لا يمكن أن تكتب إلا هكذا:

لا.. وعينيك يا حبيبة روحى	لم أعد فيك هائما فاستريحى
سكنت ثورتى فصار سواء	أن تلينى أو تجنحى للجموح
واهتدت حيرتى فسيان عندى	أن تبوحى بالحب او لا تبوحى

ولكنك تراها فى الديوان منثورة فى الشكل الآتى:

لا .. وعـــينيك يا حـــبــيــبـــة روحى

لـم أعــــــد فـــــيك هائـمــــــا

فـــــــاســـــــتـــــــريحى

وهو ترتيب جديد للبيت العمودى بشكله التقليدى المعروف، ولكنه فى نفس الوقت ترتيب يثيـر البلبلة والاضطراب، وليست هناك حاجة فنية تدعو إلى ذلك، إلا إذا كان الغرض منه الوقوف فى كل سطر على معنى متكامل ولو حملت هذا المعنى لفظة واحدة، وفى هذه الحالة يكون أسلوب الشعر الجديد أليق وأنسب، لأنه سيمكن الشاعر من أداء ما يريده فى دقة مع انسجام الإيقاع.

فإذا انتهينا من جانب الشكل ودلفنا إلى المضمون العام لهذه المجموعة فستجد اتجاهات نحددها فيما يأتى:

شعر الحب - شعر الوطنية - شعر الشك والحيرة.

أما شعر الحب فهو اللون الغالب على المجموعة والذى يطبعها بطابعه، ولعل العنوان الذى اختير لها (وهو اسم أغنية شهيرة) يومىء إلى ذلك، بل هو فى حقيقة الأمر يومىء الى ظاهرة فريدة فى هذه المجموعة الشعرية تستوقف نظر الباحث، فإن المرأة التى يتعامل معها (كامل الشناوى) نمط خاص من النساء، فهى دائما امرأة خائنة، ومن هنا إشارتنا إلى معنى عنوان المجموعة (لا تكذبى) الذى يطالعك على الغلاف والذى يصافح عينيك فى نفس القصيدة التى استعيرت عنوانها اسما للمجموعة، وهى القصيدة الأولى التى وضعت - دون عمد - لتحدد لك اللون المطرد الذى ستراه فى أغلب شعر هذا الاتجاه:

لا تكذبى... إنى رأيتكما معا ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى من عين كاذبة فأنكر وادعى

وهو يقول لحبيبته ايضاً:

ما زال يحمل قلبه المجنونا فاسقيه من غصص الخداع فنونا
صبى له الكأس التى ما ذاقها إلا وجن من العذاب جنونا

والقصيدة قبل هذا تحمل عنوانا دالا هو (ياحيتى).

ولسنا فى حاجة الى ذكر الشواهد من شعر المجموعة لندلل على هذه الظاهرة، لأنها مطردة اطراداً يلفت النظر كما قلنا، وقد استتبع ذلك أن القارئ لا يرى من وجود العلاقة بين الرجل والمرأة الا وجه الخيانة، فلن نرى صورة للقاء أو حرقة له أو لحظة توافق وعادة، المرأة الخائنة فى شعر الشناوى قوية مسيطرة والشاعر موكل بحبها وهو فى هذه الحالة التى تأخذ وضع القانون السائد، قد يصفح أو يثور أو يقطع علاقته بها.

فإذا ذكر اللقاء أو القرب على قلة ذكرهما، أخذ هذا اللون كما نرى فى قوله.

كنت ألقاك على البعد وألقى فيك أحلامى وروحى
صرت فى قربى ولا ألقاك لا ألقاك إلا فى جروحى

أو قوله:

يا حبيبى حسبى من الوصل أنى بالأمانى ألقاك حينا فحينا

وهو حب لا يستوفى عمره الطبيعى:

يا وردة لم يزل فى جونا أثر من نفحها آه لو عادت لياليك
ذكرت بعدك أيامى التى سلفت فاشتقتها غير يوم خاننى فيك

يوم افترقنا على أنى أراك غدا فلم أجد فى غدى إلا تنائيك

لولا إبائى، ولولا أننى رجل لحدثتك الليالى كيف أبكيك

ويبدو - إن صدق الاستنتاج - أن أغلب هؤلاء الحبيبات من طبقة الفنانات اللواتى يتاح للشاعر بطبيعة عمله فى الصحافة أن يلقاهن، وهى طبقة تسر بجميع المعجبين ويسعدها أن يكثر العدد ويتردد الطلب، ولا عليها إن تراجعت أو (خانت)، لأن العلاقة هنا علاقة تؤكد الغرور الأنثوى وترضيه أكثر منها علاقة يتلقفها القلب فتشبع حاجته الطبيعية، ولعلنا نستنتج أيضاً - من خلال الأبيات التالية (إن إحداهن مطربة):

أفديك شادية فصوتك فتنة قهارة كجمالك القهار

تترنح الألفاظ فى شفتيك سكرى منهما وتفوح كالأزهار

ولها بسمعى مثل أصداء المنى ولها بقلبى مثل لذع النار

ويؤكد استنتاجنا ان حبيبات الشناوى من الوسط الفنى قوله:

لا منى فى غرامك اللائمونا ليت قلبى يصغى لما يرجفونا

وقوله:

زعموا حبى يا قلب خطايا....

فإذا كان شعر الحب فى هذه المجموعة يدور فى هذا الفلك، فالشاعر يعتب ويثور ويهدد، وما أحلى عتابه لقلبه لأنه أحب خائنة غادرة:

أنت قلبى فلا تخف وأجب: هل تحبها

وإلى الآن لم يزل نابضاً فيك حبها

لست قلبى أنا إذن إنما أنت قلبها

وتثور كبرياؤه فيقول:

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قـيـد ترسف العـزة فـيـه والإباء

أنـا لا أشكـو فـفـى الـشـكـوى انـحـنـاء

وأنـا نـبـض عـروقـى كـبـريـاء

أما شـعـر الوطنية فيتمثل فى مجموعة من الأناشيد غناها كبار مطربينا، وأقواها (نشيد الحرية) وقد سبق أن تحدثنا عنه، والشناوى أبرع شاعر فى هذا الميدان، فلديه إمكانيات الشاعر الغنائى الممتاز، ومن هنا إقبال كبار الملحنين والمطربين على شعره.

أما شعره التأملى الذى أسميناه شعر الشك والحيرة، فهو محاولة للخروج من نمطية اللون الواحد، ولكن الى أى حد ينجح هذا الشعر فى هذا المجال؟

إن القصيدة التالية نموذج لهذا الأتجاه:

يـارب فـيـم خـلـقـتـنـا

وتـركـتـنـا نـهـب الـضـبـاب

فـلا ظـلام ولا سـنـا

ونـدب فـوق الأرض

لا نـدرى بـهـا

ونـدب فـوق الأرض

لا تـدرى بـنـا

أنـا مـن أنـا

أنـا مـن أكـون

وسـيـلـة أم غـايـة

أنـا لـسـت أعـرف مـن أنـا

فماذا أتى الشاعر به من جديد فى موقفه التأملى هذا؟ إنها أسئلة قلبتها البشرية منذ ألوف السنين، ولكنها لم تقتصر على إلقاء الأسئلة، فكان أن وضعت هذه الفلسفات المتعددة المتباينة أجوبة لها... أما موقف الشناوى فهو موقف تقريرى مباشر كما نرى فى قصيدته وكما نرى فى قصائد أخرى تأخذ نفس الاتجاه، وهو موقف ساذج لا عمق فيه ولا جدة.

إن الشك فى الشعر العربى كتجربة إنسانية مطردة فى شعر شاعر لا نجدها إلا عند أبى العلاء، ولعلنا فى عصرنا الحديث لا نرى صورة صادقة له إلا كما نراها فى (الطلاسم) لأبى ماضى.... وهى تدير نفس الأسئلة الخالدة.... القديمة الجديدة أبداً.... من نحن؟ ما سر هذا الكون؟ وما المصير؟ ولكن أى براعة فنية شكلت وضع هذه الأسئلة فابتعدت بها عن التقرير والمباشرة.

إن الغنائية فى هذا المجال تفسده وتجنى عليه، إنه فى حاجة إلى أبعاد أعمق وأفكار أدق، بل إنه يحتاج - فى رأيى - إلى أسلوب يغلب عليه الرمز، لأن ايراد هذه الأسئلة التى قلبتها البشرية منذ دبت على الأرض بهذه الصورة التقريرية تسطيح لموقف ضخم فى تاريخ الإنسانية وموقفها من الكون المحيط بها.

على أن موقف الشك - وإن لم يستطع الشناوى الارتفاع به إلى المستويات التى وصل إليها شعره - موقف أصيل لم يفتعل - فهو فى مقدمة مجموعته يقول: "لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين، فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن؟ فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة ويسمون ذلك تفاؤلا..... "



كامل الشناوى.... شاعر الغزل الهروبى

يرى بعض النقاد[1] أن مفهوما جديداً للغزل قد بدأ يظهر فى الشعر المصرى فى مطلع العشرينيات من القرن العشرين سرت فيه متاهات اليأس والتشاؤم وأمواج الشك الذهنى، والتساؤل الفلسفى، وأخذ شاعر الغزل بالتالى يبتعد عن منطقة التصوير الحسى قليلاً، ليغوص فى أعماق عاطفة الحب الغامضة محللا باحثا، وشاكا متسائلا مغرما بالمعانى الدقيقة الكامنة فى تجربة الحب سابحا فى تيار الخطرات بحثا عن لآلئ الأفكار، فأصبح شاعر الغزل الهروبى هارباً إلى حد ما من المجتمع والحياة، منسحبا من منطقة الضوء إلى منطقة الظل، يتمنى أن يكون له غار فى قمة جبل بعيد... بعيد وراء السحاب، فقد انهارت جسور اللقاء الروحى بينه وبين البشر، ولم يعد يرى فيهم إلا وحوش أحقاد، وغدر ونفاق.

وسلك أصحاب الاتجاه الهروبى عدة مسالك، فمنهم أصحاب الحب الهروبى الروحى مثل ناجى، والهمشرى وحسن كامل الصيرفى ومحمود حسن اسماعيل وأحمد رامى، ومنهم أصحاب الحب الهروبى الحسى ويمثلهم على محمود طه وصالح جودت وزكى مبارك ويضع الناقد د. سعد دعبيس الشاعر كامل الشناوى ضمن أصحاب الحب الهروبى الحسى باعتباره شاعراً عاطفياً رومانسياً يتسم شعره بالقلق والحزن والشعور الحاد بالغربة والخيال المجنح ليعوضه عما فقده فى دنيا الواقع، فيجسد الأحلام كأنها حقيقة، فيرسم صورة مجسدة لمحبوبة وهمية يعشقها فى الخيال، وهو خيال أقرب إلى الجنون، ولذلك كان كامل الشناوى يلجأ كثيراً إلى الهروب من الواقع، فيطير على أجنحة الخيال الرومانسى

(١) د. سعد دعبيس، الغزل فى الشعر العربى، ص ٤٨٠.

الحالم إلى عوالم جميلة ساحرة فإذا صدمه الواقع الأليم، وإذا فجع فى وفاء الحبيبة التى تخيل أنها تبادله مشاعره انشطر قلبه، وسالت دموعه أنهاراً وتحطم وجدانه، فصار شظايا، ومن هنا كانت مأساة شاعر الشك والحرمان فى حكايات حبه العديدة المخفقة!

ويرى د. سعد دعبيس أن أهم العوامل المؤثرة فى غزل كامل الشناوى هى[1]:

(أ) نفسيته القلقة الساخرة:

ويبدو أن الحيرة قد اعتصرت ليالى هذا الشاعر، وعصفت بأمنه واستقراره فلم يعرف أضواء حياته إلا فى ضباب الليل الكثيف، ولم يبصر طريقه إلى الصباح إلا على أشلاء قدمين معذبتين، أضناهما السرى فى دروب الليل ومتاهاته.

نعم... لم يكن يستطيع النوم قبل السادسة صباحاً "ولهذا لم يكن يسمح لمرافقه وصديقه (جليل البندارى) بالعودة إلى بيته قبل أن يتمشى معه فى شارع الهرم، حتى تظهر خيوط الفجر"[2].

وقد امتزج فى نفسه المعذبة هذان العاملان النفسيان قلقة، وسخريته، فكانت سخريته الضاحكة الباكية، فعلى الرغم من أن أسلوبه فى الحياة كان أسلوب النكتة الحلوة أو المرة، ذلك الأسلوب الساخر الضاحك (فقد كان كامل الشناوى شاعر الدموع، كان يبدو فى خلواته وكأنه دمعه كبيرة قد تحولت إلى إنسان، فهذا الإنسان كان يعذبه نبوغه، يعذبه شعره يعذبه حبه)[3].

---

(١) د. سعد دعبيس، الغزل فى الشعر العربى: ص ٦١٩.

(٢) انظر مقالا لجليل البندارى بعنوان «ملهمات فى ساعة الخصام» بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٦٨/٨/٢٤.

(٣) جريدة الجمهورية، من مقال بعنوان (كامل الشناوى) ـ لحافظ محمود، بتاريخ ١٩٦٨/١٠/٧.

(ب) تجارب حبه العديدة:

ونتيجة لهذه الحياة القلقة الحائرة يعيش الشاعر فى لياليه العاصفة تجارب حب عديدة، يجاهر فى بعضها بالإثم، ويصرخ فى بعضها باكيا، ومن هنا لم يتح له الاستقرار فى بيت الزوجية. فظل عزبا طول حياته محروما من قلب حنون يقف إلى جواره، إذ كان نهاره وجزء من ليله وقفا على عمله الصحفى، وبقية ليله لمغامراته العاطفية.يقول جليل البندارى فى معرض الموازنة بين حياة (رامى) وحياة (كامل الشناوى).

"إن تمثال العذاب الذى أقامه أحمد رامى، وظل يتعبد فيه طول عمره لا يقاس بقوة التصور التى كان يعيش بها كامل الشناوى فى غرامياته.فلم يكن رامى شاعرا محروما، وإن بدا فى شعره عاشقا ولهاناً معذباً، فرامى تزوج وأنجب الأولاد والبنات، وأصبح ربا لأسرة سعيدة.أما كامل الشناوى فعاش طول حياته وحيدا محروما معذباً. "

وحياة الليل هى التى أوقعته فى غرام بعض الراقصات والمطربات وقد كان الليل والقلق صديقين مخلصين لقلبه وشاعريته وكانا أيضاً أرض المأساة التى غرست فى قلبه أشواك الغدر والخيانة....! والليل فى معجمه الغزلى جزء من تكوينه وشخصيته الهروبية القلقة.

فما أكثر ما يناجيه بمثل قوله:

يـاوردة لـم يـزل فـى جـــــــونـا أثـر

... مـن نـفــــــــحــــــــهـــــــا

...آه لـو عــــــادت لـيـــــالـيـك

لـولا إبــائــى، ولــولا أنــنــى رجــل

لحدثتك الليالي: كيف أبكيك

وقوله:

أنا أهوى الجمال

في ظلمة الليل

يثير الحنين والشجو فينا

أوقظ الفجر بالشكاة

وأرعى أنجم الليل

حيرة وظنونا

وقوله:

تمرد الليل

لاأغفو به أبدا

حتى أرى الفجر مسفوحاً على بابي !

وفي أضواء الليل الدامية عاش بداية شبابه لاهياً بالحب، متهتكا، مجاهراً بالإثم كأبي نواس[1] حيث كان شعاره:

داري غرامي - ما بدا لك - داري

أنا بالصبابة هاتك أستاري!

هيهات... لا أقوى

على كتمان

(١) «غرام الأدباء» ص ١٢٦ ـ عباس خضر.

مـــا باحت بـه عـــينـاك من أســـرار

عــــــينـاك حـــــــدثتـــــا

بمـــا ســـكـــرت بـــه روحـــى

وعـــربد خـــمـــــره بوقـــارى

وفى أضواء الليل الحمراء يلتقى - كما يقول عباس خضر - براقصة لبنانية تأخذ بمجامع قلبه ويرى فيها نموذجاً للجمال غير تلك النماذج التى ألفها فى جولاته الليلية، أما هى فلا ترى فيه غير شخصية مشهورة ترضى غرورها، لقد كانت جسرا يعبره طلاب اللذه المؤقتة، ومحطة لهو لكل ثرى مترف، ولكنه ظل معها عامين غارقاً فى بحار اللذة الصاخبة تلك هى "روز" أو "وردة"[1] التى يخاطبها متوسلا:

يـا وردة لـم يـزل فـى جــــــونـا أثـر

مـن نـفـــــــحـــــــهــــــا

آه لـو عــــــــادت لـيـــــــالـيـك

وذات يوم تستفيق كبرياؤه، ويدور صراع عنيف بينه وبين قلبه، بين مركزه الاجتماعى ونزواته الصاخبة، ويراها تجلس مع الأثرياء، وتوهم كلا منهم أنه فارسها المفضل، ويقرر قطع هذه العلاقة، ولكنه إذ يقرر ذلك إنما يمزق روحه، ويدمر كيانه، وحين يستأنف جولاته الليلية بعد فراقها يحس بجرحها ينزف دما شعريا هاربا من الحياة، هاربا من الحب،هاربا من وجوده ومن يوم ميلاده[2].

ويأتى بعد هذا الغرام العنيف غرام عنيف آخر بإحدى المطربات

(١) انظر غرام الأدباء من ص١٢٧ إلى ١٣١.

(٢) انظر: غرام الأدباء ص ١٣٣ ـ ١٣٨.

المشهورات ألا وهى "نجاة" التى لم يطق كامل الشناوى أن يرتبط اسمها باسم أى رجل آخر، فقد كان يحبها كما يحب الشعراء الأوهام والليل والنجوم البعيدة فى السماء، وكانت هى تنظر إليه كأعز صديق ظهر فى حياتها، وكانت غيرته عليها من منافسه فى حبها، وهو عز الدين ذو الفقار هى التى ألهمته قصيدة (حبيبها)[١] التى يقول فيها:

حـــبـــيـــبـــهـــا ، لست وحـــدك

حـــبـــيـــبـــهـــا... أنا قـــبلك !

وربما جـــــــئت بعـــــــدك

وربما كـــنـــت مـــــــــثـــلـــك

والآن... لنتأمل أثر الليل والحب فى شعر كامل الشناوى: لنتأمل نظرته للمرأة والحب.

مفهوم الحب عنده:

عاشق الليل والخطايا أو تكرار لمفهوم التعدد الساخر.

إن أول خيط من خيوط مأساة حبه، يتراءى فى ظاهرة الخيانة، فالخيانة أول ما يطالعنا فى ديوانه "لا تكذبى".

لا تـــــكـــــذبـــــى....

إنى رأيتكمـــــا مـــــعـــــاً

ودعـــــى الـــــبـــــكـــــاء

فـــقـــد كـــرهت الأدمـــعـــا

(١) أنظر مقالا لجليل البندارى بعنوان نجاة وكامل الشناوى بين الوهم والحقيقة جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٦٨/٨/١٧.

مــا أهون الدمع الجســور إذا جــرى

مــن عـــيــن كـــــاذبــة

فـــــأنــكـــر وادعـــى

ومن هذه القصيدة يمكن أن نفهم سر فشل حبه،فقد كان يعيش تجارب حب مادية صاخبة، متعددة، لا تكتفى بالهمسات العاطفية،والمناجاة الروحية فمثل الراقصة روز وغيرها ممن عشن معه تجارب حبه الحسى من صنف لا يهمه من الحب إلا العامل التجاري- كما سبق أن أوضحت - ولذلك فهو حين يرسم صورة لخيانة محبوباته له،يصور خيانة جنسية لا عاطفية:

إنــى رأيــتــكـــمــــا

إنـى ســـمـــعـــتـكـمـــا

عـــيـنـاك فـى عـــيـنـيـــه

فـى شـــفـــتـــيـــه

فـى كـــفـــيـــه

فـى قـــدمـــيـــه

ويـداك ضـــارعـــتـــان

تـرتعـــشـــان من لـهف عـليـــه

تتـــحـــديان الشـــوق بـالقـــبـــلات

تـلـذعـنـى بســـوط من لـهـــيـب

وتتكرر تجارب الخيانة بعد ذلك فى قصائد كثيرة،منها (حبيبها)

حـــبـــيـــبـــهــــا ،وروت لـى

مــــــاكـــــــان منـك ومنــهـم

فـــــهم كـــــثـــيـــــر.... ولكن

لا شيّ نــعـــــــــرف عــنــهـم

وكذلك تطل الخيانة فى قصيدة (ظمأ وجوع) وقصائد أخرى،ولهذا فهو يرى حبيبته أحيانا فى خداعها الناعم حية رقطاء،ومع ذلك فحنينه إلى سمها القاتل دينه وعبادته،ولذا فحياته صراع دائم عنيف بين العقل والعاطفة، وبين كبريائه المتمردة، وجسمه الذى تعثر فى الوحل.

كـــــــهـــــــارب لـيـس يـدرى

مـن أيـن،أو أيـن يــمـــــــــضـى؟

شـك! ضــــــبـــــــاب! حـطام

بعـــضـى يمـــزق بعـــضـى....!

ســـألت عـــقلى فـــأصـــغى

وقــــــــــــال.لا.لـن تـراهـا

وقــــــــــال قــلـبـى. أراهـا

ولــن أحـب ســــــــــواهـا

إنه يحس بتمزق نفسى حين يجلس مع حبيبته الراقصة فى "الكباريه" محاصرا بعشرات من عشاقها والمعجبين بها، فهو لا يحس فى القرب منها إلا جراحاً:

كنـت ألقـــاك على البـــعـــد

فـــألقى فـــيك أحـــلامى وروحى

صـــرت فی قـــربی ولا ألقـــاك

لا ألقـــاك إلا فـی جـــروحـی

ويتفجر ذلك الصراع حمما بركانية ثائرة، وصرخات عاطفية ملتاعة فی قصيدة (الخطايا) وفيها ثورة الرومانسيين الحزينة:

آه مـــن نـــومـــی

ومـن صـــحـــوی

ومن ســاعــة تعلن أو تـخــفی أســايا

آه مـــنـهـــا

أنـــا لــم أدرك مـــداهـــا

آه مـــنـــی

هـی لـم تـدرك مـــدايـــا

حـطمــتنی مــثلمــا حـطمــتــهـــا

فـــهی منی وأنا منهـــا..... شظايا

إنه يحس بأن حبه الآثم للراقصة «روز» - فی نظر الناس - خطايا، وربما تضخم فی قلبه إحساسه بأقاويل الناس، وتساؤلاتهم وشكوكهم حين يرون صحفياً كبيراً، وشاعرا مشهوراً ينزلق بقمة مجده إلی منحدرات هذه الراقصة:

أو تـدری بمـا جـــــری

أو تـدری؟ دمـی جـــــری

جـــــذبـتـنـی مـن الـذری

ورمـت بـی الـی الـثـــری

وكانت النتيجة لمثل هذا الحب القائم على الرغبات الحسية المحمومة والمحاصر بأقاويل الناس، أن يتحطم:

دمـــــــــــــرتـنـــى.... لأنـــى

كـنت يـومـــــا أحـــــبـــــهـــــا

ولكن شظايا الحب المتطايرة تمزق نفسه، وتنفذ إلى قلبه سهام حيرة وقلق، ويحاول بعد ذلك أن يتسلى بحب حسناء"الكافيتريا" وغيرها... وغيرها ولكن جرح «روز» كان غائراً فى أعماقه، فإذا تعلق بحسناء "الكافيتريا" فإنما يريد تزويد عاطفته بطاقة حرارية تعينه على نظم قصيدة جديدة:

أريد إلـهـــامـــة جـــديدة بقــدر مــا أنظم القــصــيــدة

إنه فى النهاية ثائر على الوجود،هائم بالعدم، رافض ليوم مولده

لـــــيــــت أنــــى مــــن الأزل

لـم أعـش هـذه الحـــــــيــــــاة

عــــشـت فـــيــــهـــا ولـم أزل

جـــــاهـلا أنهـــــا حـــــيـــــاة

لـــــيــــت أنــــى مــــن الأزل

كــــنـــت روحـــــــــــــــــــا

ولــــــــــــــــــــــــــم أزل

صياغته:

لعل الطابع العام الذى يميز صياغته هو الطابع العاطفى المشتعل الذى يسيطر على ألفاظه وصوره، وتتضح هذه العاطفة العنيفة فى:

الفصل الثالث

عاشق الليل والجمال

أيها الليل يا حبيبى.. ألم يعد لنا مكان نلتقى فيه إلا غرفة نومى؟

أين الشوارع، والملاهى، والفنادق؟

اخرجنى من بيتى كما كنا نفعل أيام الشباب....

واسهر معى حتى أرى أصدقاء عمرى:

السحر، والفجر، والصبح!

أيها الليل يا حبيبى... واترك عناء نومى للنهار!!!

كامل الشناوى



عاشق الليل

يسترجع الكاتب الصحفى عبد العزيز صادق بعض ذكرياته عن كامل الشناوى، فيقول:

. تختلف تجارب البشر.. باختلاف مهنهم.. للطبيب تجاربه فى الحياة مع الطب ومع المرضى وللمهندس تجاربه فى إطار عمله ومسئولياته وللمحامى تجاربه مع رجال القضاء ومع المواطنين الذين يتعاملون معه. وهكذا!!

ولكن للصحفى - على الدوام - أشهى وأشقى التجارب فى الحياة! إن كل خبر وراءه تجربة جديدة تحتسب فى رصيد الخبرات والذكريات... ومن هذا الرصيد تجد مادة للدموع والبسمات! فى تصويرى أن الصحفى وهو يلهث وراء الخبر، يظل يبحث عن ضحية أو ضحايا للخبر وماكينة الطباعة تعمل! وأحياناً - وهو يلهث وراء الخبر والإثارة - ينقلب من بطل إلى ضحية!... فى مكتبه بجريدة الجمهورية - وعلى قيد خمسة أو ستة أمتار من مكتبى دعانى أشرب فنجان قهوة وللدردشة! لعلنى من هذه الدردشة ومن أحاديث ذكرياته أجد مادة لكتابة موضوع الأسبوع فى مجلة "التحرير" التى كنت أتشرف بالعمل فيها رئيساً للتحرير!

كان ذلك فى مثل هذه الأيام والشتاء والبرد يطرقان الأبواب فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٧ أى منذ ٣٩ سنة!!

طافت ذاكرتى بتلك الليلة مساء السبت الماضى فى ذكرى ميلاد كامل بيه" هكذا كنا نسميه إجلالا وإكبارا واحتراما - أقصد بالطبع شاعرنا العظيم الراحل كامل الشناوى.

بعد أن شربنا القهوة.... قلت.أريد أن أسمع منك "التجربة والخطأ في حياتك" ما رأيك؟!

سكت قليلاً وسرح ببصره كأنه يفتش عن شئ في مخزن ذكرياته الضخم... واستعد للكلام!! وحين يتكلم كامل الشناوى عن الماضى لا تملك إلا الإصغاء إليه بكل حواسك!! لأنك بعد لحظات من الاستماع بتركيز... تجد نفسك تشاركه الحياة فى ذلك الماضى. من خلال دقائق وتفاصيل الموقف الذى يحكى عنه، ويصفه بمهارة واقتدار يجعلانك تحس بأنك أمام ذاكرة نادرة عجيبة!!

قال كامل الشناوى والعهدة عليه كان الزمان ليلة من ليالى عام ١٩٣٩ وكان المكان بيت رئيس الوزراء محمد محمود باشا الذى كان يبعد عشرين مترا عن وزارة الداخلية وكان الحاضرون - كما يقول كامل الشناوى - هم الأساتذة مصطفى أمين وتوفيق صليب الذى كان محررا بالأهرام.... وكامل الشناوى!!

فى تلك الأيام كان عدد من كبار الأطباء اليهود الألمان قد هاجروا إلى فلسطين مع بداية الحرب العالمية الثانية! وكانت حكومة مصر فى ذلك الوقت تفكر فى دعوة هؤلاء الأطباء المشهورين جدا للعمل فى مصر والإقامة فيها بصفة دائمة! ولكن الأطباء هاجوا وثاروا.. لأن هذه الفكرة.. فى رأيهم - اعتداء صارخ على القومية العربية! صحيح أن القومية العربية - فى تلك الأيام - لم تكن قد عرفت بعد... ولكن الفكرة تمثل أيضاً اعتداء صارخا ظالماً على الطبيب المصرى وعلى مهنة الطب فى مصر !!!

رئيس الوزراء محمد محمود باشا - الذى كان يلقب ب "صاحب اليد الحديدية" كان مريضاً بمعدته.... وكان من بين هؤلاء الأطباء اليهود الألمان.... طبيب عالمى مشهور سبق له زيارة مصر لعلاج الاقتصادى

العظيم طلعت باشا حرب مرة.... ولعلاج عدلى باشا يكن مرة أخرى.

كان الطبيب اليهودى المشهور يتقاضى فى كل زيارة ألف جنيه عدا ونقداً... بخلاف نفقات السفر والإقامة !! وكان هذا الطبيب قد هاجر فى تلك الأيام إلى فلسطين!

فى تلك الأيام أيضاً... كان وكيل وزارة الخارجية البريطانية يزور فلسطين لمأمورية خاصة تستغرق عدة أيام!

فى تلك الليلة من عام ١٩٣٩ استدار الباشا محمد محمود تجاهنا - مصطفى أمين... وتوفيق صليب... وأنا - وقال: سأروى لكم خبراً هاما...ولكنه ليس للنشر !! واعتدل ثلاثتنا نصغى بانتباه شديد... قال رئيس الوزراء أريد انتهاز فرصة وجود وكيل الخارجية البريطانية ووجود الدكتور الألمانى فى فلسطين... فأسافر لأحقق شيئين فى رحلة واحدة:سأفاوض وكيل الخارجية الإنجليزى حول مسألة تكاليف الثكنات العسكرية المنصوص عليها فى معاهدة ١٩٣٦ فهناك وعد سابق بالتفاوض حول هذا الأمر لتخفيف قيود المعاهدة!! وفى نفس الوقت أعرض نفسى على الدكتور الألمانى!!

وسكت رئيس الوزراء لحظة... ثم قال "يا جماعة أوعوا الخبر ده ينشر" فرد توفيق صليب بسرعة "يا باشا أنا فى أجازة" ورد مصطفى أمين لسه بدرى على "آخر ساعة "وقلت أنا "والله أنا ماليش دعوة بالأخبار".

ثم يواصل عبد العزيز صادق استعادة ذكرياته عن كامل الشناوى، فيقول:

■ فى مقال سابق... قلت: أن ٧ ديسمبر، ذكرى ميلاد شاعرنا العظيم الساخر الضاحك الباكى كامل الشناوى! وقد يتساءل البعض وما رقم هذه الذكرى؟ قلت:البعض يقول إنها السابعة والتسعون! وفريق آخر يقول إنها

الذكرى ٨٧ والبعض الثالث يقول لى: إنك تحدد أى التاريخين أصدق!

أجبت: إن وراء الاختلاف حكاية طريفة!!

الحكاية.... كانت يوم ٢٤ اغسطس ١٩٥٧ - أى منذ ٤٠ سنة وبضعة أسابيع - يوم كتب أديبنا الراحل يوسف السباعى مقالا بجريدة الجمهورية بعنوان: كامل الشناوى يريد اغتيالى !! وحكى أن الشناوى أراد - با عتباره شاعراً وأديباً وكاتباً وصحفياً - استنباط وسيلة قتل من تراثنا القديم، فوجد ضالته فى قول سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه: لو كان الفقر رجلا لقتلته! ولكن كامل بيه استبدل كلمة (الفقر) بكلمة (إشاعة) !! ثم يضيف السباعى فى مقاله:بمنتهى الجرأة والجسارة لم يشأ كامل الشناوى أن يكون الإنذار بقتلى خفية على طريقة خطابات التهديد أو المنشورات السرية... بل نشر إنذاره فى مقال نشرته جريدة الجمهورية التى كان رئيس تحريرها ووقع اسمه كاملا بجوار صورة له تفيض رقة وعذوبة مع ابتسامة حلوة!!

وهنا يتساءل بعض أو كل القراء: لماذا كل هذا؟ أيه الحكاية؟ وما سبب الإنذار القاتل؟ وما الذى فعله يوسف السباعى ليستحق الاغتيال بيد كامل الشناوى؟ القتل خنقاً بيدى كامل بيه يطبقهما حول عنق السباعى... ثم يضغط - ويداه غاية فى الضخامة والقوة... فيقع يوسف صريعاً بين هتاف وتصفيق القراء!!

جريمة يوسف السباعى... أنه أضاف إلى عمر كامل الشناوى عشر سنوات كاملة فى شائعة رددها يوسف بين الناس نقلاً عنى - أنا كاتب هذه السطور!! وفى مقالة يوم ٢٤ أغسطس ٥٧ فى "الجمهورية" قال: عندما كنت أقول للزملاء والأصدقاء والأحياء... إن كامل بيه من مواليد ١٩٠٠ لم يخطر ببالى للحظة واحدة أننى أردد شائعة!! شائعة باطلة

أستحق عليها الخنق!! لأننى أخذت ذلك عن حقيقة واقعة... فقد قدرت أيامها الرجوع إلى مصدر الشائعة... فسألت الزميل عبد العزيز صادق: من أين لك تحديد تاريخ مولد كامل الشناوى؟ فأكد لى بلهجة الواثق قائلاً: سمعت تحديد ذلك من "كامل بيه" شخصياً. وأكد لى عبد العزيز أنه أخذ المعلومات من مصدر موثوق به تماما!

ويقول يوسف السباعى- فى مقالة - لم أحاول بالطبع مراجعة تاريخ الميلاد مادام مصدره - كما أكد لى عبد العزيز - هو كامل الشناوى شخصياً!!

أكتفى بهذا القدر من كلام عمره أكثر من ٤٠ سنة... ولكن لا يفوتنى أن أشير إلى مدى السعادة التى كان يشعر بها أصدقاء وأحباء "كامل بيه" من الأدباء والشعراء والكتاب والصحفيين... وهم يرددون ما يسمعونه من يوسف السباعى عن ميلاد الشناوى!

أتذكر بصيغة خاصة سعادة كل من صالح جودت،وأستاذنا العقاد، وأستاذنا توفيق الحكيم، وإحسان عبد القدوس... ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى، وأمين يوسف غراب... وصلاح ذهنى !! ذات يوم فاجأنى كامل بيه بسؤال:كيف تقول بثقة شديدة أننى قلت لك أننى من مواليد سنة ١٩٠٠؟ أجبت:هذا ما قلته لى... وقد سجلت ذلك فى كتاب أهديتك نسخة منه فور صدوره ولم أتلق منك أى اعتراض على ما كتبته عنك ومعه صورتك الضاحكة! ولم تكذب ما كتب وسكوتك دليل على صحة ما كتب!!

ضحك كامل بيه وقال: معنى ذلك أن... ما طبع فى كتابك قد أصبح وثيقة لا نقض فيها ولا إبرام؟ أجبت:بالظبط يا كامل بيه!



أوراق من حياة كامل الشناوى

وتتناول مجلة "آخر ساعة" عدة أوراق من حياة كامل الشناوى، فتقول:

الورقة الأولى

طفولة حزينة... مقيدة ظلت ذكرى محفورة فى وجدانه إلى اليوم الأخير له فى الدنيا. جاء إلى الحياة فى ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨ - أى أنه من مواليد برج القوس - وشهدت قرية "نوسا البحر" بمحافظة الدقهلية هذا الميلاد الذى أحدث ضجة فى العائلة وبين المعارف وقتها... لماذا؟

لأن المولود ضخم الجسد. بدين لذلك أخفته أمه عن عيون الناس خوفا من الحسد. ولم تكن تدرى أن هذا الجسد الضخم. البدين سوف يكون محور المعاناة والسبب فى آلام نفسية لم تبرح هذا الجسد البدين الذى شاء قدره أن يحمل بين أحشائه قلباً يفيض بالرقة والشفافية والشاعرية.

وانزوى الصغير بعد مشاكل كثيرة شبت بينه وبين الأطفال فى الشارع بسبب اختلافه الشديد عنهم فأقنعه والده بالتزام البيت وقضاء وقته فى القراءة،ثم قرر أن يدرس فى المنزل ويحفظ القرآن الكريم كله... ثم دخل الأزهر بعد ذلك.

ويقول يوسف الشريف مؤلف كتاب "كامل الشناوى... آخر ظرفاء ذلك الزمان"

عاش كامل الشناوى طفولته وصباه أشبه بجزيرة ثقافية ودينية مغلقة على نفسها، بينما حوله ستة من الأشقاء منطلقين فى عوالم الرياضة والقوة والرشاقة بينهم مأمون الصحفى الشاعر ويمارس حمل الأثقال،

وعبد الفتاح ملاكم ولاعب كرة وحامل أثقال أيضاً، وعبد الرحيم أصبح فيما بعد حارس مرمى نادى الترسانة وأحمد ملاكم، أما هو فقد أعجزه تكوينه الجسمانى المترهل عن المشاركة فى أى من هذه الرياضات، اللهم إلا إجادة لعب الطاولة والورق، وعندما ألح عليه أخوته ذات يوم أن يتعلم ركوب الدراجة، وافقهم على مضض،ولكن العجلاتى لم يو' نق بعد أن تأمل بدانة الزبون!

كان أبوه قاضياً شرعياً تنقل كثيراً فى بلاد الدلتا والصعيد ولم يكن كامل يحب أن يتنقل معه إلى أن نقل أبوه إلى القاهرة كنائب رئيس المحكمة العليا الشرعية فاستقرت الأسرة كلها فى السيدة زينب.

وكان كامل يحب قريته "نوسا البحر" خاصة بعد أن توثقت علاقاته بعدد من الشباب المحب للمعرفة والأدب وكان من بينهم الدكتور إبراهيم ناجى - شاعر الاطلال - وعلى محمود طه - شاعر الجندول - وصالح جودت ومحمد التابعى والهمشرى.

الورقة الثانية

ضاق الفتى المقبل على الشباب كامل الشناوى بالدراسة فى الأزهر بعد ٣ سنوات قضاها به واعتكف فى بيته يتلقى بعض الدروس الفر نسية استعدادا للسفر إلى فرنسا. ولكن الظروف منعت تحقيق هذا الأمل...

وبدأ يعلم نفسه.. وجد فى كتب والده وفى دار الكتب ومما كان يشتريه منهلا كبيرا. وعشق الأدب فحفظ أكثر دواوين الشعراء القدامى والمحدثين.

ثم بدأ عهده بالصحافة عام ١٩٣٠ مصححاً ومحررا فى جريدة "كوكب الشرق" ثم انتقل منها إلى جريدة "الوادى" وكان يرأس تحريرها طه حسين، ومنها إلى روزاليوسف اليومية، ثم "الأهرام" ثم "دار الهلال" ثم

رئيس تحرير لآخر ساعة ثم استقال ليساهم فى إصدار الجريدة المسائية. ولما أغلقت عاد إلى الأهرام ومنها إلى "أخبار اليوم" ثم استقر به المقام رئيساً لتحرير الجمهورية حتى عام ١٩٦١.

ورقة... بين الأوراق

وهى ورقة من كتاب الحياة العريضة التى عاشها شاعر الحب المغرد. قصاصة عمرها الآن ٢٩ عاماً باليوم. فقد نشر هذا الحديث معه بمجلة أسبوعية فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦١

من أنت؟

- لقد خطر لى هذا السؤال من قبل.. وأودعته إحدى قصائدى وقلت:

أنا.. من أنا؟ أنا من أكون؟ وسيلة؟! أم غاية؟! أنا لست أعرف من أنا!!

هذه إجابة فلسفية.. ولكنى أسالك بكل بساطة.. أنت مين؟!

فابتسم وقال:

- أنا صحفى، هوايتى الأدب، أو أديب هوايته الصحافة.. وأحاول أن أؤدى واجبى ككاتب وشاعر.. وهدفى فى الحياة أن أعمق فى الإنسان شعوره نحو الناس.

وأن أجعل الحياة جميلة، وأن أعبر عن آمالى وآمال الإنسانية بصدق وحرارة.. وأن أعبر أيضاً عن الألم بكلمة أو أغنية، وحياتنا هى آمال وآلام، انتصارات وهزائم، ابتسامات ودموع.. وهذه هى حقيقة الحياة وسرها وجاذبيتها.

كرجل.. ما الذى يبكيك؟

- لا يبكينى إلا الألم

أى أنواع الألم؟

- الألم العاطفى.. أما الألم المادى كآلام المرض مثلا فأنا أقدر عليها.

وما الذى يفرحك؟

- النجاح.. أنا أفرح بنجاحى فى مقال أو قصيدة، وأفرح للناجحين.. وأذكر أننى انتشيت عندما سمعت نبأ انطلاق جاجارين إلى الفضاء،، وعودته إلى الأرض، فرحت لنجاحه كما لو كان صديقا شخصياً لى. وكلما رأيت إنساناً ناجحا أحسست بأن آمالى تنمو.

ما هى نقطة الضعف عندك؟

- الحنان والرغبة الملحة فى إسعاد الآخرين ولو كلفنى ذلك أن أشقى!

من الإنسان الذى تكرهه؟

- أنا أحب ولا أحب، لكنى لا أكره. أحب الإنسان الذكى ولاأحب الإنسان الغبى، وأعتقد أن الخير وكل فضيلة طيبة تستند إلى الذكاء. وإن الشر وكل رذيلة كالحقد والكراهية والحسد لا تنبع إلا من الغباء. لهذا أحب الأذكياء ولا أحب الأغبياء. أما الوسط، أى الذى ليس غبياً ولا ذكياً والذى ليس جاهلاً ولا مثقفاً، فهذا لا ينزل لى من زور، فأنا لا أبلع الأنصاف.. لأنهم بلا شخصية.

لماذا لم تتزوج؟

- إن عدم زواجى له سببان. السبب الأول فلسفتى الخاصة. وهى أننى مشكلة لم تحل حتى الآن. وكما قلت من قبل، ما هى الحياة، من أين وإلى أين نمضى؟ أننى مشكلة. وليس من المعقول أن أتزوج وأتسبب فى خلق إنسان منى فكأننى بدلا من أن أحل مشكلة نفسى أوجدت للدنيا

مـشكلة أو مـشـاكل جـديدة.. والسـبب الثـانى هو الصـحـافـة.. فـقـد كانت"الصحافة" على أيامنا مشقة وعدم استقرار والصحفى مهدد بالتعطل والجوع.. فكيف كنت أقوى على تشريد أطفال وزوجة معى؟!

هل يمكن أن تخبرنى من هى أول امرأة فى حياتك؟

- ليس ذلك من حقى

وآخر امرأة فى حياتك؟

- وهذا أيضاً ليس من حقى؟

ما الحب فى رأيك؟

- الحب عذاب جميل

ما أجمل ما فيه؟

- الوهم

وأقبح ما فيه؟

- الحقيقة؟

ورقة مكتوبة بالدموع

لاتـــكـــذبـــى...

إنى رأيتكما معـا

ودعى البكاء

فلقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى

من عين كاذبة

فـــــــــــــــأنـكــر وادعـــى!!

* * *

إنـــى رأيـــتـــكـــمـــــــــــــا

إنـى ســــمـــــعـــــتكمـــــا

عـــــينـاك فـى عـــــينيـــــه

فـى شـــــفـــــتـــــيـــــه

فـى كـــــــفـــــــيـــــــه

فـى قـــــدمـــــيـــــه

ويـداك ضـــــارعـــــتـــــان

تـرتـعـــشـــــان من لـهف عـليـــــه

إلى أن يقول كامل الشناوى بدموع قلبه:

كـــونى كـــمـــا تبـــغـــين

لـــكـــن لـــن تـــكـــونـــى!!

فـــأنا صنعـــتك من هـواى، ومن

جـــنـــونـــى..!!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون..!!

هذه القصيدة كتبها كامل الشناوى فى بيت الأستاذ مصطفى أمين ويقول الأستاذ مصطفى أن كامل الشناوى كان يكتبها وهو يبكى بحرارة وعندما انتهى من كتابتها توجه إلى التليفون ليقرأها على الفنانة الشهيرة التى كتبها من أجلها. وكان الأستاذ مصطفى أمين والموسيقار محمد عبد

الوهاب معه فى هذه الليلة يستمعان إلى الحديث من السماعة الأخرى فى غرفة النوم وبعد أن قرأ كامل الشناوى القصيدة للفنانة التى أحبها كما لم يحب امرأة فى حياته. وكانت الد موع تملأ وجهه فوجئ بها ترد عليه ببرود وجمود. وتقول له عظيمة جداً. ممكن أغنيها يا كامل..

وقصيدة "لاتكذبى" أثارت من الحكايات والتفسيرات ما لم تثره قصيدة أخرى فى حياة كامل الشناوى أو ربما فى حياة شاعر فهذه رؤية واحدة من كبار الكتاب وأقدرهم إلى كامل الشناوى لقصة الحب الشهيرة بين الشاعر الرقيق والفنانة المشهورة.

كتب جليل البندارى فى أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٦٨ يقول:

أصبحت نجاة الصغيرة فجأة وبلا مقدمات قطعة منى

أننى لم أرها منذ أكثر من ستة شهور وربما سنة. ولم يحاول أحدنا أن يسأل عن الآخر بالتليفون، ولكن نجاة التى كانت صديقتى اللدودة. أصبحت الحميمة!!

كنا لا نلتقى الا فى ساحات المحاكم وأمام القضاء. فأصبحنا نلتقى فى بيوتنا وبين أولادنا لنضحك ونسخر من الأيام التى لم يكن أحدنا يفهم فيها الآخر. ما الذى جعل العداء المستحكم يتحول إلى صداقة عظيمة؟

كان الشاعر الفنان كامل الشناوى لا يطيق كلمة منى أو من أى كاتب أو صحفى تغضب نجاة. وبالرغم من صداقتنا القوية - أنا وكامل الشناوى - فقد قرأ مقالا وجدنى أتعرض فيه لنجاة فرفع بنفسه دعوى ضدى.

كان يحبها حباً عظيماً.. وكنا نحن الصحفيين نعلم أن هذا الحب من طرف واحد فقط! ولكنه كان يخلق لنفسه عالماً من الوهم والخيال، وكان يحب الكثيرات.. كان يحب نادية لطفى وسعاد حسنى وثلاث مذيعات

جميلات فى التليفزيون. ولكن حبه الكبير. حبه الذى استغرق منه ديواناً من الشعر.. حبه الذى صوره فى تجربته العاطفية الشهيرة باسم "لاتكذبى" هو حبه لنجاة.

وانتقل كامل الشناوى إلى الحياة الأخرى.. وقبل أن يذهب بأسابيع وصفها لى وصفا دقيقاً.. ولا حظنا نحن الذين نعرف علاقة الصداقة القوية المتينة بين كامل الشناوى ونجاة.. إن نجاة لم تحزن من أجل فراقه ولم يبد عليها أنها حتى تأثرت كقارئة من قارئات الكاتب والشاعر العظيم!

إذا كانت علاقة كامل الشناوى بنجاة وهماً فقد كانت علاقة نجاة بكامل الشناوى حقيقة!

كان هو يحبها كما يحب الشعراء الأوهام والليل والنجوم بعيدة المنال! وكانت هى تنظر إليه كأعز صديق ظهر فى حياتها! وكانت تعلم أنه يغار عليها من هبات النسيم!

وبعد ستة شهور من رحيل كامل الشناوى رأيت نجاة تزورنى وتجلس أمامى وتنفجر بالبكاء!

وأحسست لحظتها بأن كامل الشناوى الذى لم يستطع أن يخلق منا صديقين وهو على قيد الحياة. قد استطاع أن يفعل ذلك بعد وفاته! وأخذت نجاة تسألنى..

أين كامل الشناوى.. أين كامل الشناوى؟! ثم أخذت تروى لى قصة كامل الشناوى المرهف من وجهة نظرها - ولكن.. أين ذلك الشاعر المرهف الذى يستطيع أن يروى على لسانها قصة من أخلد قصص الحب والغرام. لقد كان كامل الشناوى على استعداد لأن يدفع نصف عمره فى نظير أن يستمع إلى رأى نجاة فيه.. ويرى دموعها من أجله! حقا لقد كان كامل الشناوى شاعراً أنيقاً يعيش بقلب مشرد.

ورقة من أوراق العقل

وهى ورقة من أوراق الكاتب الصحفى الكبير صلاح حافظ كتبها عن كامل الشناوى، قال:

لا أكاد أعرف أديباً أو فناناً من جيلنا الحاضر غير مدين لكامل الشناوى!

لا أقصد بهذا الدين الثقافى وحده.. وإنما أقصد الدين بمعناه المادى أيضاً.. فقد كان كامل الشناوى حين يرعى موهبة جديدة يتحمل عنها جميع همومها: يشترى الكتب للأديب الناشئ يصحب الفنان إلى الترزى يفصل له ثياباً أفضل.. يخصص حجرة فى بيته لإقامة الشاعر الذى ليس له بيت، ينشر للكاتب الجديد فى الصحيفة التى يعمل بها ويدفع له من جيبه دون أن يخبره بذلك.

ولم يكن كامل الشناوى يكتفى بهذا. وإنما يعتبر رسالة حياته إرغام الدنيا كلها على الالتفاف للموهبة التى تحمس لها. فلا يترك سيرة أو حديثاً أو اجتماعاً، إلا ويحوله إلى فرصة دعائية لصاحب الموهبة.. ويكاد يقنع الجميع بأن الله لم يخلق مثله. ويبالغ إلى حد أن يسجل بصوته قصيدة شاب مجهول.. لكى يسمعها لزواره كل يوم. ويفرض عليهم أن يحفظوا اسمه. فإذا ما لمع هذا الاسم وبدأ صاحبه يشق الطريق مستقبلاً، تحول عنه. وتفرغ لموهبة جديدة!

وكان السبب موقفه الفريد من الأدب والفن.. كان يعشقهما لذاتيهما.. لا يحب شعره، وإنما يحب الشعر، لا يتذوق أدبه. وإنما يتذوق الأدب. لا يسعد بتفوق فنه فى الكتابة، وإنما يسعد بتفوق فن الكتابة. وليس فى التاريخ أديب أو فنان تجرد من الأنانية مثله، كأنه فى محراب الفن اختار دور العابد لا دور الكاهن، وكأنما اختار سماء الأدب، لا لكى يلمع هو فيها، ولكن لكى يجملها بأكبر عدد من النجوم التى تزيد من رونقها ولا

جدال فى أن كامل الشناوى قد دفع غالياً ثمن هذا الموقف الصوفى فى عالم الثقافة. فهو يوم مات لم يكن فى الأسواق غير ديوان شعر واحد "لاتكذبى".. بينما كانت تغمر الأسواق مئات الدواوين التى أخذت عنه. ونسجت على منوال أسلوبه وشق أصحابها الطريق بفضل رعايته.

ويوم مات كان عدد كبير من كتاب القصة والرواية والمقال. وكتاب الصحافة يملؤون أسماع العالم العربى وكان هو الذى فتح الطريق أمامهم بينما كانت قصصه ومقالاته مبعثرة فى أربعة أرجاء الصحف المصرية.. لا يكاد يذكرها أحد.

فكامل الشناوى لم يبذل فى شعره وأدبه غير جزء من طاقته الفنية. أما الجزء الأكبر فقد فضل أن يعيشه. وكانت حياته نفسها من أروع أبيات شعره. وكان إنتاج الذين رعاهم من أروع سطور أدبه.

فأدب كامل الشناوى ليس الأدب الذى كتبه فقط. وإنما الأدب الذى عاشه.

ورقة عرفان بالجميل

وهذه الورقة كتبها الكاتب الصحفى الأستاذ موسى صبرى قبل عام واحد من رحيل كامل الشناوى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٤ قال فيها: إن فى عنق أبناء هذا الجيل من الصحفيين والكتاب لكامل الشناوى ديوناً متراكمة مستحقة الأداء دائماً. فكيف يستطيع أحمد بهاء الدين وأنيس منصور وفتحى غانم وسعيد سنبل وصلاح حافظ وكمال الملاخ وعبد الرحمن الشرقاوى. ويوسف إدريس ومحمود السعدنى وكل من تصدر للرأى والكلمة والعمل الصحافى فى العشر سنوات الأخيرة. كيف نستطيع أن ننسى مكتب كامل الشناوى؟ كان دائماً الصدر المفتوح لأفكارنا وإنتاجنا يوم أن كنا ندخل مكتب كبار الصحفيين بأقدام مرتعشة مترددة.. وأن يد كامل الشناوى دفعتنا من أول الطريق لتوفر علينا كثيراً من المشقة والجهد؟

أنه يقدم لنا قمم الأحداث فى حياة جمال الدين الأفغانى وغيره من أعلام الشعر والفن والفلسفة والعلم فى تاريخنا.. وكأنه عاش معهم هذه الأحداث.. جالسهم وناقشهم.. انفعل بهم وارتدى بأفكارهم لقد ألغى مقاييس الزمن بخياله. وسجل حقائق الأحداث بقلمه مستعينا بقراءاته عنهم. مستلهما حكم التاريخ عليهم.

ولكن كامل الشناوى كما يعبر هو عن نفسه.. شئ حى نابض لا يكتمل أبداً.. سمعته كثيراً يقول عن نفسه: أنا لحن ناقص.. أنا مطلع قصيدة. أنا سطور من قصة.

وهذا القول فيه دفاع أكثر مما فيه من وصف صادق!

لقد بدأ منذ عشر سنوات بحثاً رائعاً عن الشاعر أبو نواس بهذا الأسلوب الجديد الذى استحدثه وهو يؤرخ حياة جمال الدين الأفغانى.. وقرأنا له من البحث ثلاثة أو أربعة أجزاء.. رأيناه وسمعناه فى ركاب "أبو نواس" يروى أيامه وكأنه يشاركه فيها ساعة بساعة.. ثم فجأة توقف القلم فى يده.. وطوى كامل الشناوى صفحات بحثه وكأنه ليس خالقها وصاحبها.. ودفعته شياطينه إلى الخلوة مع قصيدة جديدة.. ولكنه لم يطق صبراً على اعتقال وجدانه بين جدرانها.. فانطلق إلى القصة.. ثم ضاق بأبطالها فحمل حقائبه إلى الأسكندرية يلتقى بالناس والنسيم والبحر.. ثم نراه يعود إلينا فجأة ليفكر فى حديث صحفى من أحاديثه المشهورة.. وهكذا تمضى حياة أستاذنا! ولولا أصدقاؤه الذين جمعوا كتاباته المتناثرة المتباعدة عن الأفغانى ومحمود سامى البارودى وعبدالرحمن الكواكبى وقاسم أمين وسيد درويش وإسماعيل صبرى.. ولولا شغف مريديه الذين انتزعوا من قلبه أحاديثه مع أحمد شوقى وأحمد لطفى السيد ومصطفى عبد الرازق وعلى مصطفى مشرفة لما خرج لنا كتاب "لقاء معهم".

ورقة من أوراق الليل

يحدثنا عنها الكاتب الصحفى صاحب الفضل الكبير فى إخراج الكتاب الوحيد الذى صدر حتى الآن عن سيرة واحد من علامات الشعر والأدب فى مصر.. كامل الشناوى.

يقول يوسف الشريف: على مدى ربع قرن أو يزيد.. كان خلالها نجم ليل القاهرة بلا منافس، ليل الصحافة والأدب والفن، ليل الجلسة الموحية، ليل الشعر، وليل النكتة الساخرة والحوارات الذكية والقفشات اللاذعة والمقالب المحبوكة التى لا تنسى.

وكانت صالونات ومقاهى ومنتديات ما بعد منتصف الليل دائماً على أهبة انتظاره.. يبث فيها من روحه روحاً ومرحا ورقة وصخبا، فقد كان محدثا ومؤانسا من أبرز وأظرف ظرفاء زمانه!

وكانت كلماته كأنها الصحف السيارة.. ما أن يصوغها بوجدانه ويطلقها لسانه حتى تنتقل إلى حيث يريد لها أن تنطلق. وتنتشر وتؤثر فى المليان.

وشهدت الكثير من المقاهى والأندية الليلية والفنادق هذه الأمسيات الجميلة لكامل الشناوى ومريديه. ومنها فندق الهيلتون وشبرد وسميراميس ومقهى اللواء ومطعم الباريزيانا بشارع الألفى وغيرها.

وورقة من أوراقه من الليل

يا ليل.. حذار أن تتخلى عنى.. كن معى.. تشبث بوجودك لا تدع فجر الغد يتسلل إليك ويطويك.. قاومه.. مزق خيوط شمسه قبل أن تشرق.. فأنا لا أستطيع أن أواجه هذا الغد الذى سترحل فيه عنى من عجزت عن أن أحبها. وعجزت عن أن أنساها!

إنها كلما اقتربت منى.. ألهبتنى، وإذا ذهبت إلى مكان بعيد.. أحرقتنى لا أريد أن أحترق، اللهب يكفى.. فقف مكانك يا ليل.. لا تدر مع الأرض حتى لا يجئ يوم الوداع الذى ليس من حقى أن أقول لها فيه كلمة وداع! أيها الغد.. ليتك تضل طريقك إلينا ولا تجئ أبداً!

ومن أوراق العشق

بهرتنى وهى تمشى بيننا، القوام كالسيف ممشوق ورقيق.. الشعر الأشقر كخيوط الشمس لا ينسدل على جبهتها، ولكن يدنو منها ويلثمها.

العينان الزرقاوان، يلمع منهما ضوء خاطف كشعاع تخلصت منه نجمة وهى تهرب فى طيات السحاب!

الخدان نابضان برعشة حمراء ناضرة. يفصل بينهما أنف صغير. ولكنه مهيب. كأنما يحاول بمهابته أن يمنع أحد الخدين من التهام الخد الآخر!

الفم يباهى بشفتيه المكتنزتين بلباقة.. وقد بدا باستدارته. وحمرته. ورقته. أشبه بكأس مصنوعة من قبلة وابتسامة.

العنق الجميل يتحرك كالزهو. وسكن كالكبرياء. والذقن حلو أنيق. تزينه غمزة مبهمة.. ظننتها توقيع الله!

ومن أوراق.. للصحفى

"لاتحذروا منى، كان هذا عنوان يوميات كتبها كامل الشناوى فى جريدة الأخبار فى مايو ١٩٥٥. كتبها رداً على يوميات الأستاذ محمد التابعى التى كتبها عنه.

قال كامل الشناوى. فأجانى اليوم صديقى الأستاذ محمد التابعى بكلمة فى يوميات "الأخبار" تحت عنوان "احذروا كامل الشناوى" ولولا أن كاتب الكلمة هو محمد التابعى لخشيت أن يكتفى بعض القراء بقراءة

العنوان ويفهموا منه أنه مجرد تحذير من معاملتى. ولكن أين هو القارئ الذى يقف من مقال يكتبه التابعى عند عنوان المقال. أو نصف المقال. بل أين هو القارئ الذى يقنع بقراءة كل سطر يكتبه التابعى ولا يتجاوز ذلك إلى قراءة ما وراء السطور وما بين السطور؟

ولقد خرجت من كلمة التابعى بما أخجل تواضعى.. فقد رمانى بصفات لا أعرفها فى نفسى من بينها الدهاء وسعة الحيلة. والدحلبة، ونصب الشباك والفخاخ للساسة والأدباء ورجال الدين إلى آخره. لكى يدلوا بأحاديث وصفها بأنها أحدثت ضجة وضرب لذلك أمثلة أحاديثى مع حافظ عفيفى ونجيب الهلالى وطه حسين وأخيراً حديثى مع الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر! وتطرق من هذا إلى مهاجمة الأستاذ الأكبر لأنه نادى فى هذا الحديث بتعدد الزوجات!

وقد أشفقت على شيخ الأزهر من هجوم التابعى عليه. فالشيخ رقيق نحيل واهن العظم. واهن القوى وقلم التابعى مرهف حاد.. عات كالعاصفة. قاس كالحريق. وقد وصف حديث شيخ الأزهر بأنه فضيحة "أن العالم سيقول أن المسلمين أمة من الحيوانات، ولن يعزينا أننا حيوانات فحول!

وأراد التابعى أن يحملنى مسئولية استدراج الشيخ إلى هذا الرأى وكنت أود أن أتحمل المسئولية. ولكن الحقيقة غير ذلك. فأنى لم أستدرج الشيخ، ولم أفاجئه بسؤاله عن رأيه فى تعدد الزوجات، بل الذى حدث أنى ناقشته فى هذا الموضوع. وأنا من القائلين بتحريم التعدد طبقا لما فهمته من نصوص الآيات القرآنية الكريمة. وكنت أظن أن الشيخ سيوافقنى على التحريم. وإذا به يفيض فى تبرير تعدد الزوجات ولما نبهته إلى خطورة هذا الرأى قال: هذا رأى الإسلام وقد سجلته فى كتاب.. واسم هذا الكتاب "أحكام الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية".

ولعل هذا التفسير يقنع الأستاذ التابعى بأنى لم أنصب للشيخ الأكبر فخاً ولا شركاً.

أما الأحاديث الأخرى فلا يتسع المجال لشرح تاريخ كل حديث منها. وما أحاط بها من ملابسات وظروف وسيتأكد التابعى من أنى لا أستخرج ولا "أدحلب ولا آخذه على غرة.. سيتأكد من ذلك إذا علم أن بعض هذه الأحاديث استغرق إعداده شهرين مثل حديث حافظ عفيفى.

إن ما كتبه التابعى عن طريقتى فى انتزاع الأحاديث تحية سأعتز بها مدى الحياة..

وورقة للشقيق

أما شقيقه الشاعر والكاتب الصحفى مأمون الشناوى فقد كتب فى مقدمة ديوانه "لاتكذبى." فقال:

لو أردنا أن نسجل حياة كامل الشناوى العاطفية بصدق وأمانة لما وجدنا إلا وسيلة واحدة، وهى أن نرتب قصائده ترتيباً زمنياً لنخرج من شعره فى النهاية بأكثر من قصة حب.

قد نجد فى البيت الواحد قصة حب طويلة.. وقد نجد فى القصيدة الطويلة قصة حب قصيرة.. وكل ما سكبه كامل الشناوى من شعر يحس قارئه أو مستمعه أنه نبع من قلب الشاعر ليستقر فى قلوب الناس.. وتلك هى أشعة الإلهام التى يهبها الله لمن يشاء من عباده الموهوبين الملهمين..

إنما تحس فى شعر كامل الشناوى صدق العاطفة وطهارة الإنسان المترفع عن الدنيا.. الحريص على كرامته ألا تهان أو تمس ولو بأنامل حبيبته.

أما دموعه وأحزانه فقد كان يسكبها فى شعر.. إيقاعه نبض قلبه.. وكلماته فيض مشاعره وحبره دم فؤاده.

ومضت ٢٥ عاماً على رحيل الفارس.. فارس الرومانسية طائر الحب المغرد.. ولا تزال نبضات قلبه المخبوءة فى سطور دواوينه ومشاعره الصادقة النائمة بين أوراقه فى زمان وسلام.. تردد اسمه بكل الحب والعرفان والامتنان!

■ ■ ■

عاشق الليل

ولقد لعب كامل الشناوى دورا كبيرا فى تشجيع المواهب المغمورة ومساعدتها ومساندتها حتى تلمع، ثم يواصل البحث عن مواهب أخرى.

ويلقى لنا الأديب الناقد الكبير رجاء النقاش الأضواء على هذه الناحية فى حياة كامل الشناوى الذى ظل يبتسم حتى مات، فيقول[1]:

"كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات حوالى سنة ١٩٥٤ عندما التقيت بكامل الشناوى لأول مرة.... كان اللقاء فى مكتبه الكبير الواسع بالصحيفة التى كان يعمل بها... يومها صافحنى كامل وكأنه يعرفنى ويحبنى،ولم أكن فى ذلك الوقت إلا نباتا صغيراً ضعيفاً لا يكاد يقوى على الوقوف فى وجه الضوء.... وعرفت بعد ذلك أن كامل الشناوى يسلم على جميع الناس بهذه الطريقة.. إنه يمد إليك يده ومعها ابتسامة عريضة وبهجة فى العينين.. وبشئ لا تستطيع أن تحدده بالضبط حيث تشعر كأنه من قديم يعرفك... وكأنه من قديم يحبك... تلك عادته وذلك طبعه... يعرف الكل ويحب الكل".

"على أن أكثر ما لفت نظرى وأدهشنى - وأنا الريفى الوافد من قريتى... بطينى - أن كامل الشناوى كان يفتح باب مكتبة الكبير الضخم على مصراعيه... وأن المكتب نفسه كان أشبه بالمقهى البلدى... أنه مزدحم بالناس، يتحدث الجميع ويتناقشون ويلتفون حول كامل فى صخب عنيف، وكان كامل يبدو بين الجميع سعيداً مشرقاً إلى أبعد الحدود، حكايه الباب المفتوح هذه ظلت تلازم كامل الشناوى حتى النهاية، كذلك حكاية الصخب

(١) رجاء النقاش، كلمات فى الفن، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.

البشرى الذى يحيط به... ولا أذكر مرة أننى دخلت مكتبه إلا ووجدت بابه مفتوحا على مصراعيه، وما كان كامل الشناوى ليستطيع أن يعيش أبدا وراء الأبواب المغلقة، وما كان ليستطيع أن يعيش وحيداً، وكانت هذه فضيلته الكبرى وكانت نقطة ضعفه فى نفس الوقت.... كانت فضيلته الكبرى، لأن الأبواب المفتوحة دائما حافظت على علاقة كامل الشناوى بالحياة ساحنة ملتهبة حارة، لم ينفصل أبداً عن الناس فكان يعرفهم ويعرف كيف يحبهم، وكيف يكتشف ما فيهم من خير وجمال وأخطاء، ذلك لأنه كان يتغنى بالجمال، وكان يتفنن فى السخرية بالأخطاء، وقد حافظ كامل الشناوى ببابه المفتوح على طبيعته الريفية التى تحب الحياة فى النور، تحت أشعة الشمس، تحت سقف السماء مباشرة، هذه الطبيعة الريفية دائما تكره البيوت التى تشبه القلاع والحصون، ولست أدرى هل عاش كامل الشناوى فى قريته "نوسا" أم لا، لكننى أعتقد - حتى ولو لم يعش فى الريف - أنه كان مثالاً للإنسان القروى الأصيل، ليس فى سذاجته لأن كامل الشناوى لم يكن ساذجاً،ولكنه كان قرويا فى أشياء أخرى أعمق... أنه مثل الريفى الذى يعيش فى حياة مشتركة مع الجميع تقريباً... لا يعرف الانطواء على نفسه، أو على بيته وأسرته، ولكنه يعيش مع القرية كلها، يعرف ماذا عندها، وتعرف ماذا عنده، يعيش حياة امتزاج واندماج، لا حياة انفصال وعزلة... رغم المظهر "الأرستقراطى" الذى كان يبدو أحيانا على كامل الشناوى، إلا أنه كان فى الحقيقة فلاحا، يعيش فى المدينة ويلبس ملابسها، ويظهر بمظهرها، ثم يصارع بعد ذلك من أجل أن يفرض عاداته الريفية على الجميع، وكان ينتصر.... وكثيرا ما كنت أتخيل كامل الشناوى وهو يلبس جلبابا واسعا عريضا مما يلبسه الفلاح فى قريته، وكنت، أجد فى خيالى هذه الصورة طبيعية وجميلة إلى أقصى حد، فقد أحال هذا الفلاح الساخر كثيراً من فنادقنا الكبرى إلى مصاطب... فيها ما فى المصاطب من حلاوة

وجمال ودنيا مليئة بالبحبوحة والانطلاق! وهذا الباب المفتوح فى حياة كامل الشناوى كما كان فضيلته الكبرى.. وكان سره وسحره، كان أيضاً نقطة ضعف فيه، فهذا الباب المفتوح منع كامل من أن يعيش مع نفسه وحيداً وكم كان يخاف الوحدة ويرفضها أشد الرفض، وكأنه كان يرى فيها صورة من الموت.. كان واحداً من أخلد وأغزر المبدعين فى حياتنا الفنية على الإطلاق، فلقد كان فى داخله شاعر كبير، فيه ما فى شاعرنا القديم عمر بن أبى ربيعة من حب للجمال وتذوق عميق له، ولكنه كان فى معدنه أكثر عمقاً من ابن أبى ربيعة.. فابن أبى ربيعة كانت خلاعته تقضى على أصالته العاطفية، أما كامل الشناوى فلم يكن يعرف الخلاعة العاطفية، بل كان ذواقة للجمال، وكان أصيلا فى عواطفه، وأكاد أتصور إذا مرت عليه صاحبة وجه جميل.... أنها لا تثير حواسه بالدرجة الأولى، بل تثير طربه ونشوته، وكأنه يسمع موسيقى رائعة أو يرى لوحة بديعة، إن الجمال الحى يطربه حقاً لما فيه من تناسق يرضى ذوقه الحساس، فكان يسكر بالجمال وينتشى بهذا السكر! ولكن كامل الشناوى لم يعش مع نفسه كثيراً.. لم يعتزل.. ولذلك فقد كان شعره الجميل قليلاً جداً... لا يملأ ديوانا واحداً هو أجمل حديقة تركها بعد أن مات..... ولقد كان باستطاعته لو وجد القوة على أن يعيش وحيداً مع نفسه أن يكتب الكثير.

لكن كامل لم يقبل أبدا أن يجعل الفن فوق الحياة، كانت الحياة عنده فوق كل شئ، حتى الفن الذى كان يملك منه الكثير... كانت سهرة من سهراته فى مقهى الفيشاوى يقرأ فيها الشعر،ويلقى بسخرياته العذبة، ويتأمل ويتناقش، ويشترى الحكمة والجنون، ويبيعها للآخرين... ليلة مثل هذه الليلة يسهرها حتى مطلع الفجر كانت عنده أفضل وأعمق وأمتع من كتابة مليون قصيدة.... تأتى له بمزيد من الشهرة أو المال،رائحة الحياة

عنده مقدسة، مسكرة... ولقد كنا نحن الذين نحبه ونملأ بعض لحظات حياته (وحياته كانت عريضة جداً تستوعب الكثيرين، ولكن أحداً لا يستطيع أن يستوعبها كلها لحظة بلحظة).... كنا دائما نتمنى أن يكتب مزيداً من الشعر، وكنا نتمنى أن تكون حصيلة حياته عدة مجموعات شعرية لا مجموعة واحدة، وكان يعدنا ولا يستجيب للوعد، ويمنينا ولا يحقق الأمنية.... دائما كان مبدؤه أن أى ذرة من التراب تحت أقدام الحياة أثمن وأحلى من أى شيء فى العالم!

"ولقد رحل كامل الشناوى الآن.. فهل كان من الصواب أن يرحل ولا يترك لنا نحن محبيه سوى ثلاثين قصيدة؟.. إنى أعاتب هذا الراحل العزيز، أعاتب ذكراه وخياله الذى لا أنساه، ليس بسبب الحب فقط."ولكن لأنه خيال يحمل معه جمالا خاصا لا يقدر النسيان عليه، على أننى أسائل نفسى وأنا أعاتب هذا الراحل العزيز.... أكنا نحن على حق عندما طلبنا منه الشعر ومنحنا هوى الحياة؟.... أكاد أشعر أنه كان أصوب منا لأسباب كثيرة، لقد عاش وملأ الدنيا، وجعل لكل لحظة فى حياته طعماً، وكانت حياته فى جملتها قصيدة أجمل وأعذب و"أبسم" من أى قصيدة يمكن أن يكتبها شاعر متمكن.

"ولقد قيل أحياناً عن كامل الشناوى إنه لم يكن يقوى على العمل أو يحبه، وأنه كان لا يعطى كثيراً فى أى صحيفة يعمل بها، وفى اعتقادى أن كامل الشناوى كان عنصراً رئيسياً من عناصر محبة العمل فى أى مكان ذهب إليه، لقد كان ينشر البهجة أينما راح والبهجة تجعل الإنسان ينتج فى يوم واحد، ما ينتجه فى يومين بلا بهجة، لقد جعل من البهجة حافزاً من حوافز الإنتاج فى كل بيئة مسها بما فيه من كهرباء الحياة!

"وكامل الشناوى قام فى الوسط الفنى والصحفى والأدبى بدور آخر..

كان بستانيا يزرع الورد ويسقيه ويرعاه، كان عاشقا من أخلص عشاق النبوغ وإذا وجد فى إنسان لمسة من هذا النبوغ أحبها وتغنى بها ووضع يد صاحبها عليها حتى ينطلق ويتقدم، وما من موهوب فى بلادنا خلال السنوات العشرين الماضية إلا وقد "عمده" كامل الشناوى قبل أن يعرفه الناس، ولذلك قال لى عبد الرحمن الخميسى ونحن نسير فى جنازة كامل. أترى كل هؤلاء الذين يسيرون وراء النعش؟ لقد ترك كامل فى حياة كل واحد منهم لمسة من الحب والحنان ودفعه إلى الأمام! قلت للخميسى: نعم... أنت على حق. وأنا أعتقد نفس الشئ! "

"لقد كان يتحمس لكل موهبة إنسانية، سواء كانت هذه الموهبة جمالا فى الوجه أو جمالا فى الصوت، أو جمالا فى العقل والوجدان، كان يتحمس للمواهب حماسا جميلا... بلا حدود، والموهبة تتحول عنده إلى أغنية يرددها فى كل مكان أنه يتحدث عنها ويكرر الحديث،ولم يكن يسأم التكرار حتى نأخذ الموهبة حقها وتتألق وتلمع. "

"لقد كان كامل الشناوى يحب الليل حبا عجيباً، إن اللون المفضل عنده هو لون الليل ولقد كان الليل فى حسابه هو الحياة، وكثيراً ما كان ينام النهار كله ويسهر الليل كله حتى تظهر أشعة الصباح فينام... ولعل فلسفة ذلك عنده هى أنه يريد أن يبتعد عن العلاقات اليومية للناس، ليعيش فى علاقات إنسانية خالصة، فالناس فى الليل أكثر "إنسانية" منهم فى النهار، إنهم فى النهار ينقسمون حسب مصالحهم، ولكنهم فى الليل يتساوون تماما.. كما أن الليل عنده كان فترة للتأمل والانطلاق بلا قيود، الليل يلقى بأعباء الإنسان بعيداً ويحرره... من هنا كان كامل يعشق الليل.. ولو كان فى حياة كامل معشوقة أسهمت فى القضاء عليه فهذه المعشوقة هى: الليل.. ذلك الحبيب.. الملعون!

لقد امتص "الليل" كامل الشناوى قطرة فقطرة.... ولم يتركة إلا جثة هامدة يشيعها بقية الأحباب والأصدقاء!

"وكان كامل الشناوى يرفض الشكل، كان يبحث عن الأشياء الجوهرية فى الحياة، وهذا هو سر كثير من التناقضات التى كانت تبدو فى حياته، كان على سبيل المثال يحب الشعر القديم ويتذوقه، ولم أشعر فى حياتى بكل ما فى الشعر العربى القديم من جمال وروعة بقدر ما شعرت بهذا كله من خلال رواية كامل الشناوى له، كان يفهمه، ويحسه، ويعرف مواطن الجمال والسحر فيه، وكان يعرضه عرضا لا مثيل له، وكان يلقيه إلقاء هو نوع من النغم الصافى الرفيع،ومرة قلت له أنت تستطيع أن تكتب ثروة هائلة من تسجيل الشعر على أسطوانات بهذا الصوت... صوتك العميق المؤثر الذى يحس ويتذوق، وقال لى أنه يفكر فى هذا الأمر... على أنه لنفسه ولم تتح له الحياة أن يحقق هذه الأمنية!

هذا العاشق المتذوق للشعر القديم لم يتجمد. ولم يرفض الشعر الجديد. بل كان يشارك فيه ويطرب له أشد الطرب عندما يستمع إليه من شاعر أصيل.

فالجمال هو جوهره هو الذى يعنيه، أما الشكل فليتغير وليتعدد... ماذا يهم!

لقد كان كامل الشناوى ابتسامة عريضة ورائعة،ملأت حياتنا - نحن الذين سعدنا بمعرفته - بألوان من البهجة والفهم. وقد ظلت هذه البسمة بسحرها وعمقها مضيئة... حتى أطفأها المرض ثم اغتالها الموت!

ومن فكاهاته وحبه للتندر والسمر شعراً يروى الصحفى إسماعيل النقيب هذه الحكاية:

"كل شيء كان ينام إلا عيون وعقل كامل الشناوى، ففى ليلة من ليالى الخريف، كنا فى الإسكندرية لحضور مهرجان الشعر، ورجعت مرهقا إلى الفندق الذى يقيم فيه كل الأدباء والشعراء الذين اشتركوا فى المهرجان ومن بينهم شاعر الليل كامل الشناوى، وما إن دخلت غرفتى حتى دخل ورائى ومعه ورقة ليملى على كلمات وقال: سأقول لك قصيدة على نمط القصيدة الجاهلية التى ألقاها الشاعر"فلان" وهو شاعر معروف ولا يزال حياً... كان قد ألقاها فى تلك الليلة وردت فيها كلمات غير مفهومة للسامعين مثل كلمة "الهزبر" ومعناها الأسد، وكلمة "أبو المنذر" ومعناه الديك - وسأنتهز جلوسى مع الأدباء والشعراء ليلا.. ثم أعلن أن إسماعيل النقيب استطاع أن يحصل على نصر صحفى.

فهو قد ضبط الشاعر "فلان" وهو يكتب قصيدة غزلية فى حب الشاعرة "فلانة" وكانت من المشتركات فى المهرجان - وبالطبع سوف يصدق الحاضرون... لأن لهذا الشاعر مواقف سابقة فى ذلك، فقد كتب ديوانا كاملاً فى حب شاعرة رومانسية خلال حضوره مهرجان الشعر فى دمشق. واتفق كامل الشناوى معى على أن أجلس فى صالة العشاء وهو يروى هذه الأخبار الجديدة عن علاقة الشاعر بالشاعرة، ثم يمد يده فجأة ليخرج القصيدة من جيبى... و... اتفقنا!!

وأملى كامل الشناوى على قصيدة جاهلية طويلة كان مطلعها:

فإن كنت أنت الظبى فى حالق الذرى

فإنى هزبر القاع والبيد والهضب

وتالله أن الحب عفة عاشق

وتحنان مشبوب الغرام بلا ذنب

فلاهم عفوا ... ثم صفحا وجنة

يفئ إليها قرقر غير منتب

ولو مر ظبى بالعقيق مدلل

نفرت إليها طائر القلب واللب

إلا واحملونى بارك الله فيكم

إلى جنبها أو فاحملوها الى جنبى

قفا نبك من ذكرى حبيب بجلق

وكانت لنا فيها فنون من القلب

بلاد إذا ما مس جلدى ترابها

فبورك من جلد وبورك من ترب

وفى حلب الشهباء لاحت مليحة

مكورة الأرداف تلعب فى قلبى

ألا واذكرونى بارك الله فيكم

على الأرض ذات الزرع والضرع والعشب

وكأس الهوى من كل شهد مليئة

وقد أقفرت كأسى فقلت لها: صبى(١)

وفى صالة العشاء حكى الحكاية بطريقته الفريدة،وأصبح الكل فى لهفة إلى سماع القصيدة، خصوصا وقد قال بيتا واحدا منها، وأن هذا

(١) كان المقصود بالمداعبة الشاعر المصرى على الجندى الذى سجل إعجابه بالشاعرة السورية د. طلعت الرفاعى وأفرد لها صفحات عديدة فى كتابه «خمسة أيام فى دمشق الفيحاء».

البيت هو فقط الذى استطاع أن يلتقطه من القصيدة، وفجأة تمتد يده إلى جيبى، ليقرأ القصيدة وسط صيحات الصائحين،والكل يطلب إعادة قراءتها وصدق الناس الكلمات التى اتفقنا عليها فى ليلة من ليالى كامل الشناوى،نام فيها كل شئ إلا عيونه وعقله.



الفصل الرابع

المرأة فى حياة كامل الشناوى

أو تدرى بما جرى؟
أو تدرى؟ دمى جرى
جذبتنى من الذرى
ورمت بى إلى الثرى
أخذت يقظتى، ولم
تعطنى هدأة الكرى!

كامل الشناوى

عاشق المينيون!

كان كامل الشناوى يعشق المرأة الجميلة الذكية... ويفضل المرأة الحلوة قليلة الجسد التى تسمى بالفرنسية "مينيون" والتى كتب الشاعر الكبير صالح جودت قصيدة على لسانها تناجى فيها محبوبها قائلة:

يحبنى... أحبه.. ويزدهينى حبه

وفرته تعجبنى... وقلتى تعجبه

كأننى فى إصبعيه حينما أقربه

سيجارة تؤنسه... تدفئه... تلهبه

كأننى لعبته... وأضلعى ملعبه

كأننى عصفورة، زقزقتى تطربه

يضمنى فى يده.. ويحتوينى جيبه

أكاد من تيهى به... آكله أشربه

وكامل الشناوى هو الذى قال بعد أن أضنته السنين وأجبر على طى اللواء:

"أصبح النوم كالحب... أريده ولا أقوى عليه، ولكنه ظل عاشقا للجمال: "إلى أين يقودنى ولعى بالجمال؟ إنه إحدى حقيقتين عثرت عليهما فى حياتى...أما الحقيقة الأخرى... فهى الموت".

"وبقدر ما أكره الموت.... أحب الجمال".

وقد ظل قلب كامل الشناوى قلبا عاشقا نابضا بالحياة لا يعترف بالشيخوخة أو الهرم، وظل السنوات طويلة يعشق ملهمته "المينيون" رغم اكتشافه غدرها بعد أن تلقى خنجر الخيانة المسموم فى قلبه فأدماه وأبكاه. وحاول أن ينساها لكن بلا جدوى... فصرخ يخاطب طيفها:

"لا تطاردينى هكذا...إننى لا أراك،ولا ألتقى بك... فلماذا ترغمينني على أن أعيش معك دائما بالخيال والذكرى؟ "

"ما أقسى هذا الجمال الذى يتعقبنى... كلا ليس ما يتعقبنى جمالها،ولكن الذى يتعقبنى حنينى الطائش،ووفائى الأحمق".

وحاول كامل الشناوى أن يجتر احزانه ويبتلع مرارة الهجر والغدر، لكن قلبه ظل دائما ينبض بحبها:

مـــــــــــــا أنــت يــا قــلــب ؟ قــل لــى
أأنــــت لــــعــــنــــة حــــــــــــــــــبــى
أأنــت نــقــــــــــــمــــــــــــة ربــى؟
إلــى مــــــــــــــتــى أنــت قــلــبــى؟ !

حتى صورتها طاردته فى صحوة ومنامه، حتى أصبح مشدوداً إلى طيفها الذى يلازمه: «اتركى لى يومى... ولا تدعى طيفك يقتحم أحلامى ويوقظنى ويخدعنى بأنك بين ذراعى،فإذا صحوت، لم أجد إلا ذراعى!

«اتركى لى يقظتى. لا تملئيها بشبحك الذى ينبض باللعنة والجاذبية.»

"ماذا تبغين منى؟ "

"هل تريدين أن نعود إلى حبنا القديم؟"

"ولكن كيف أعود إلى ماض قد اندثر؟!"

"هل تريدين أن نبدأ حبا جديداً؟! "

"ولكن كيف لى أن أبدأ بعدما انتهيت.."

"ولم يعد لى قلب يقوى على أن يحب،ولا على أن يكره؟!"

"اريحينى من ذاكرتى...أريحينى من ذاكرتك"

هكذا كان كامل الشناوى يخاطب طيفها فى صحوه ومنامه... وظل هكذا حتى آخر لحظة فى حياته رغم سهم الغدر، لم يطاوعه قلبه لا على الكره.. ولا على النسيان.. وكانت آخر همسة له قبل رحيله التغنى باسمها.. وعن بعض تجاربه ومواقفه فى الحب يروى لنا يوسف الشريف(١) لمحات من حياة شاعر الحب والشك والحرمان،فيقول:

"عن موقفه من الحب قال كامل الشناوى: "الحب شوق وحرمان، لهفة دائمة، عذاب ولكنه يطاق، الانتصار فيه ليس كالانتصار فى كل الأشياء، فإذا وجدنا ما نسعى إليه كان فى هذا نجاحنا.. أما هو فعلى عكس ذلك.. فإذا وجدناه وحصلنا عليه. فمعنى ذلك أنه خاب والحب ضرورة للإنسان، والأديب أو الفنان إنسان كبير، إذن فالحب بالنسبة إليه ضرورة كبيرة، ومن هنا كان لزاما على كل أديب وفنان أن يحب وأحببت مرات ومرات"!

وعن حبه الأول يقول: "لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول، كل ما أذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب، كان حبا ساذجا لم ينته إلى غير الشوق والنسيان، كانت تربطنى بها أواصر قربى، كنا نلتقى فى منزلنا أو منزلها كل يوم أحسست نحوها شعوراً غامضاً. وجدته يدفعنى إليها وفى نفس الوقت يبعدنى عنها، كنت أتمناها

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان، ص ١٠٦.

زوجة... ولكنى كنت أتهيب أن أهمس لها بكلمة حب واحدة،كان الحديث يدور بيننا قصيراً جاداً، وحركت هذه الحادثة شيئاً حلوا جميلاً فى قلبى كنت نسيته لأن العيون حولنا كثيرة.

كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب. وافترقنا. ولما كبرنا التقينا مصادفة، جمعتنا المفأجاة المدهشة فى منزل الأسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء، كانت حبيبتى قد تزوجت وأنجبت وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وأنا صبى،قصصت عليها شعورى زمان، وضحكت هى الأخرى من هواجس نفسى، وقالت أنها كانت تبادلنى نفس المشاعر والأحاسيس فى ذلك الحين، ولكن الوقت قد فات وهكذا دارت بى الأيام دورتها، وكما أحببت فى صباى أحببت فى شبابى. وإلى الآن ما زلت أتشبث بالحب، ولم أكن فى شبابى سعيداً بالحب، ومن هنا يمكن الإجابة على السؤال: هل أنا فى كهولتى مع الحب.. شقى أم سعيد؟!

ذلك كان اعتراف كامل الشناوى عام ١٩٦٠، حب الصبا المكتوم الذى ضاع، وشقاء شبابه بالحب... فماذا بقى له من مؤهلات الحب فى كهولته؟

أن يضيع الحب فى مرحلة الطفولة والصبا... فذلك أمر مفهوم فى سيرة كامل الشناوى... فربما كان السبب يرجع إلى بيئته الدينية ونشأته المحافظة فى الريف،وربما كان للبدانة والانطواء دخل فيما حدث،فمن منا لم يحب ولم يضع منه الحب فى ذلك العمر الغض؟!

ولكن كيف يشقى الإنسان بالحب فى مرحلة الشباب والفحولة، وإذا فشل مرة فى الحب، فما مصير تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرها من المحبوبات؟!



ملهمات الشاعر

■ الشائع عن كامل الشناوى فيما روى عن نفسه، وفى روايات الذين خالطوه فى مرحلة الشباب، أن أول حب قاهرى فى حياته كان زمانه عام ١٩٣٠، ومكانه "المعادى" وكان اسم المحبوبة "س" وكان كامل الشناوى لا يزال فى مقتبل العشرينيات .

كانت "س" آية فى الجمال والرقة، رقة العود والصوت والسلوك لكنتها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيها موسيقى وسحراً!

ذهب إلى خالها يتلقى على يديه دروس اللغة الفرنسية استعداداً لدراسة الحقوق فى السربون، والتقى بها عدة مرات على انفراد، وبحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم فى الأزهر... ولم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لا شرقية ولا غربية،ولكنها مزيج حضارى فريد ونبيل... كانت قطعة من الفن والجمال. من الحقيقة والخيال،كلماتها تغريد وسكناتها نسائم،ونظراتها ضياء الفجر...

لقد غيرت"س" من نفس كامل العاشق أشياء كثيرة، ووضعت مكانها الأشياء أخرى، طالب الأزهر ابن أحد كبار العلماء، وابن أخ شيخ الأزهر، أصبح شابا "أسبور" خلع من قلبه العمامة قبل أن يخلعها عن رأسه،سمع منها لأول مرة عن نظرية "دارون" وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وعلمته أصول "الأتيكيت" وفتحت أمامه آفاقاً على دنيا جديدة!

ولم تخل مواقفه معها من طرائف، كان أول الأمر يسير معها فيسبقها ويسرع ليجعلها وراءه كعادة الرجال مع النساء فى عائلته، وإذا قابلهما أحد

معارفها ابتعد عنها،فتناديه فيأتى خجلا كأنه فى موقف شائن!

ورأى الرجال فى عائلة "س" يقبلون أيدى النساء وفكر فى أن يقلدهم، وعندما التقى بها نسى نفسه وهو يقبل يدها، فهم برفع يدها إلى جبهته كما يفعل عادة مع والدته ووالده وعمه، ولكنه أدرك حرج الموقف بسرعة وتوقف.

يحكى الأديب عباس خضر، وكان زميلا لكامل الشناوى فى الأزهر... كيف لعب هوى المعادى دوره الحاسم فى حياة ابن الشيخ الشناوى: "أكثر الناس تأثيراً فى تربية كامل الشناوى وتكوين شخصيته، والده ثم حبيبة المعادى..." كانت أسرة والدته على غنى ونفوذ كان شقيق الوالدة محمد سعيد بك مدير الشرقية والغربية وهو من أوائل المديرين الذين حلوا محل المديرين الإنجليز وكان الصغير "كامل" يشعر باعتزاز وفخر بهذه الأسرة ذات النفوذ والغنى، ولكن الوالد كان حريصا على أن يجعله يدرك القيم الفاضلة التى تقوم عليها أسرة العلم والدين.

كان يقول له: "إذا جاز للإنسان أن يتباهى بشئ فأولى به أن يتباهى برجال يفيضون على الناس بالهداية والمعرفة لا برجال يظلمون الناس ويأخذون أموالهم، وكان لذلك أثره فى نفس كامل من حيث تقديره للناس ونظرته إليهم، فكان أول ما يعجبه فى الإنسان ذكاؤه وكبريائه ولا يهم بعد ذلك أن يكون غنياً أو فقيراً!

أما دور الآنسه"س" محبوبة المعادى فكان لها أقوى تأثير فى مجرى حياة كامل الشناوى الشاب،لقد شغف بها وشغل حتى عن دروس خالها فى اللغة الفرنسية وعن مواصلة الدراسة فى فرنسا. وغرق فى الشعر وغرق فى الحب... وهجر الأزهر بعد أن خلع العمامة واختط له طريقا مختلفا فى الحياة والعمل.... وقد صارح كامل حبيبته بأنه لا يفكر فى الزواج لأنه كان يعتقد أن وجوده فى الحياة مشكلة لم يصل ولا يطمح أن يصل إلى

حل لها... فلا يريد أن ينجب مشاكل أخرى!

كان يقول: كثيراً ما سألت نفسى عندما أصبح شيخاً محطماً... هل أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على عصا؟ أم أتوكأ على زوجة؟ ولم أتردد أن تكون لى عصا!

وكامل الشناوى تغزل فى محبوبة الصبا بشعر مريف لا يعبر عن نفسه...كان تقليداً وترديدا لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى شعر الشعراء القدامى،شكا من الهجر وهى تلازمه،وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد غيره، بعث إليها بالسلام على جناح النسيم وهى بجواره.

ويقول كامل الشناوى إن أول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشاعره الحقيقية كانت فى حبيبة المعادى المدموازيل "س":

المعـــادى أو نفـــحـــة من هواها

تودع النفس فى شـذاها الشـجـونا

المعـــادى فـــقـــد تركت فـــؤادى

فى رباها مـــشـــردا مـــجنونا

* * *

فكرة الزواج إذن كانت عند كامل الشناوى مشكلة لأنه ا لا مشكلة... فكيف يخاطر بإنجاب المزيد من المشاكل ويقذف بهم إلى أقدار الحياة، هكذا كانت إجابته دائما كلما سئل عن سبب إصراره على العزوبية... فهل كان صادقاً؟!

الواقع يقول عكس ذلك... لأن كامل الشناوى أقدم فعلا على الزواج ذات يوم...

كان ذلك عام ١٩٤٥ وكانت الفتاة التى تقدم كامل الشناوى لخطبتها هى حفيدة شقيقة الأستاذ محمد التابعى الصحفى الكبير، كانت يومئذ فى السادسة عشرة من عمرها، وكانت بارعة الجمال،رقيقة وخجول، شديدة الأنفة، منطوية على نفسها، ووافق أهلها فكامل تربطهم به صلة قرابة، وهو قد وصل إلى منصب رئيس تحرير آخر ساعة وما زال فى الخامسة والثلاثين، ولكن ما رأى كبير العائلة؟

وأبرقوا إلى محمد التابعى وكان يصطاف كعادته فى أستانبول وأبرق إليهم بعدم الموافقة وعلم كامل الشناوى برأى التابعى ولم يفاتحه بعد عودته فى أسباب رفضه..

وكان التابعى يصطاف فى رأس البر بعد هذه الواقعة بسنوات، ودعا إلى "عشته" الفنان سليمان نجيب ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى.

وفى إحدى الأمسيات كان جالساً على انفراد فى شرفة"العشة" وأحس أن كامل الشناوى متردد فى سؤاله عن أمر ما.. وأدرك بذكائه هذا الأمر.

وبادره التابعى: تريد أن تسألنى لماذا عارضت فى زواجك من (.....)؟

قال: نعم.

قال التابعى: أنت يا كامل مولع بالسهر طول الليل، تقوم الليل كله.

وتنام النهار كله، فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل......؟

وأنت طبعا لن تصحبها معك فى سهراتك هنا وهناك، لأنى أعرف أنك غيور جدا ومحافظ جدا.. إذن فسوف تتركها فى المنزل، هل تظن أن هذه الحياة يمكن أن تقبلها فتاة تعرف عن نفسها أنها جميلة،ثم هى شديدة الأنفة والحساسية؟ ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج.

وصمت كامل طويلا ثم قال: أصبت... الحق معك... ولكنى كنت أوثر أن تكتب لى برأيك هذا. فإذا أقتنعت به عدلت عن طلب الزواج وانسحبت.

قال التابعى: لقد سألونى برقياً،وكان مطلوبا منى أن أرد ببرقية. ثم أننى كنت أجهل يومها أين أنت؟ هل فى القاهرة أم الأسكندرية هل أنت حاقد على يا كامل؟!

ورفع كامل الشناوى رأسه وقال فى لهفة: أنا لم أحقد على أحد فى حياتى.. فكيف أحقد عليك؟

وظل كامل يختزن أحزان ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه،وبعد عشرين عاما تذكرها،وتذكر كيف اضطر أهلها إلى الاسراع بزواجها وكتب قصيدة يقول فيها:

كل ما أذكره إنا انتهينا

وتولانى الضياع

حين أبصرت الوداع

لا تثر حولى ضجة

فلقد أصبحت زوجة

هل كان رفضه فى أول إقدام له على الزواج.... سبب فى تنحيته الفكرة بعد ذلك... واختياره أن يعيش أعزب حتى آخر أيامه!

ربما.. وربما اقتنع برأى أستاذه التابعى الذى وافق رأيه السابق فى نفسه، أنه مشكلة... وأن زواجه يعنى المزيد من المشاكل...

على أن كامل الشناوى وقد أصبح صحفيا ملء السمع والبصر... وشاعرا ذائع الصيت... فارقته عقدة الانطواء والعزلة... ظل يبحث عن

الحب... الحب بأى ثمن. كان كما المقامر الذى يلعب ويلعب لعله يعوض بعض خسارته، وكأنه بالحب وفى الحب يهرب من شئ... أو يبحث عن شئ.

وفى الأوساط التى كان يتردد عليها كامل الشناوى... بدأ قلبه يتصيد الحب.. ينتقى المحبوبة ويحاصرها... يدغدغ عواطفها... بحلو الكلام.. ورقة الشعر،وروعة الصوت.. وقد يغدق عليها المال والهدايا.

وقد يأخذ بيدها إلى أجواء الشهرة... وقد... وقد تستجيب وتقع فى هواه... ولكن سرعان ما يدب الشقاق.

هكذا عاش كامل الشناوى العديد من قصص الحب والعشق والإلهام، بعضها توافرت له مقومات الكمال والندية فى مقتبل شبابه. ومعظمها تجارب طائشة ومتشابهة لا تتجاوز عواطف الصبا الجياشة.

حيث تتهيأ محبوبته فى كل قصة إلى الالتقاء بالحب الكامل وإرواء أنوثتها فى أحضان رجل أو رجال آخرين.....

ولعل البيت الذى يقول فيه"أشترى الحب بالعذاب.. أشتريه فمن يبيع... من يبيع؟" يكشف بوضوح أن طلبه للحب والقرب والوصال. كان أكثر مما هو معروض، ومتاح فى مرحلة الكهولة، وكان يصف نفسه بقوله "العجوز الطائش، كالسهم الطائش، كلاهما لا يصيب الهدف... يا ويلى من طيشى".

نعم كان حبه دائما يندرج تحت باب "المستحيل" لأنه كان يفتقد إلى التكامل والندية، والمتأمل لعبارات المناجاة والهمسات العاطفية فى نثره، يتبين وبوضح حظه العاثر مع الجنس اللطيف، مع ذلك الطراز..... "البرعمى" الذى كان يتحرق شوقاً إلى غرامه، وقلة حيلته فى الوفاء بالتزامات الحب الكامل الذى يروى عطش المرأة التى تعيش ربيع العمر والجمال:

«أننى أعانى تناقضا رهيبا فى حياتى... جسدى أرهقته الشيخوخة، ومشاعرى لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة، وتفكيرى فى عنفوان الشباب".

وكان يخاطب نفسه قائلا: "احتشم يا قلبى... فالحب طيش وشباب... وأنت طيش فقط!".

كان الحب لكامل وقودا للقلب، ومحركا لنبضاته، وإلهاما لخياله وإبداعه، وسببا للتعلق بالحياة، وما الذى يبقى له أن يعيش من أجله سوى التعلق بالحب: "أحيانا تنتابنى حيرة لا أستطيع معها أن أحزن او أفرح.... لأن الأيام التى تنقضى من عمرى تزيد من سنى وتجربتى وثقافتى، وانفعالى بالجمال، فكيف أحزن على النقص... ولا أفرح بالزيادة؟... أننى دائما دائما ناقص وزائد".

كامل الشناوى كان يستعذب الألم فى الحب، ويرتشفه، ويعيشه، ويصطنع لنفسه من عذاباته عالما خاصا من فلسفته للحب، تمثلتها حياته وشعره وحواراته اللماحة.

سألنى: ألا تزال تحب؟ قلت:ربما.

ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب الا بالعذاب؟

قلت: وماهو الحب؟

التقاء عاطفة بعاطفة.

قلت: إن هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذى يشعل نار الحب فإذا اشتعلت النار التهمت الالتقاء والتهمت أيضا عود الثقاب.

قل لى أنت ما هو الحب؟

قلت: الحب إن تتعذب وحدك وألا تفرض العذاب على سواك.

قلت: أنا فى العذاب أنانى...أستأثر به لنفسى.

-ما أسعدها.

قلت:ما أشقاها وما أشقانى... فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى،وتتركنى وحدى بلا عذاب.

يوما زاره الممثل سعيد أبو بكر ومعه أحد أقربائه، رجل تجاوز الخمسين ثرى من أثرياء السويس، جاء الرجل يسعى إلى شاعر الحب يعرض عليه حاله مع حبيبته التى هجرته... وخانته... يسأله ماذا يفعل معها؟ وماذا يفعل مع نفسه؟

كانت تصغره بأكثر من عشرين عاما،رقيقة وجذابة ومثقفة، وكان قد بذل فى سبيل حبها وقربها وزواجها الآلاف.. وطلب النصيحة والمشورة من كامل الشناوى.

وفوجئنا بإجابته: "هى لم تفعل إلا الصواب،فالغدر شيمة حواء، وإذا لم تكن قد فعلت ما فعلت فهى ليست بالمرأة الكاملة الأنوثة، المشبوبة العاطفة، لقد فازت بالحرية وتركت لك الألم... يابختك!"

وذلك كان موقفه من الإنسانة التى تهجره أو تكرهه أو تخونه، كان لا يكف عن مواصلة حبه لها مادامت قد وقعت فى بؤرة الضعف من قلبه وذابت فى أعصابه ووجدانه، بل ربما كان ذلك أدعى لإضرام النار فى القلب العجوز، فيتوهج، ويضئ.. فى حواره مع حبيبته يقول:

سألتنى: هل تحب الجمال؟

قلت لها :أننى فيه.

قالت: أى أنواع الجمال أحب اليك؟

قلت: الجمال الذى يكرهنى.

قالت: وهل أنا جميلة؟

قلت: وأحبك.

وكامل الشناوى عرف "الحب الكامل" وشرب منه وغرق فيه.

ولعل أعمق قصة حب لكامل فى حياته وأبعدها أثرا كانت فى السابعة والعشرين من عمره، وهى التى اطلقت ملكاته الشعرية من عقالها العاطفى، وفجرت مشاعره المكبوتة فلم يهتم لا بالتقاليد الموروثة ولا بالشهرة أو المكانة الإجتماعية. كان ذلك عام ١٩٤٧ وكان لا يزال يملأ الدنيا أملا وشعرا وغناء عذبا حالما، كانت غانية، وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى، ذهب إلى هناك يستروح مع أصدقائه عناء العمل الصحفى، فوجدها تتهاوى إلى مائدته،وكان الصحفيون آنذاك لهم من الأهمية فى هذه الأماكن مالتجار الحرب والقطن والعمد وجنود الحلفاء من بريق جاذب، ونظر إلى وجهها الملئ بالأصباغ،وإلى يدها التى حرقت أصابعها السجائر،وترامت إلى أنفه رائحة الخمر تفوح من فمها ورغم ذلك وقع فى هواها.

ظل يتنقل معها بحبه من كباريه إلى آخر، ثم يصحبها فى آخر الليل بعيداً عن الأضواء، وظل على هذه الحال عامين، وأدرك أخيرا أنه غارق فى الحب الكامل، وأن غانيته مرحة أكثر مما يجب وطروب مع من يدفع أكثر وثار لكرامته وأدرك شقاءه وتعاسته وقرر أن يهرب،وعلى نفس مائدة اللقاء... شربا معا نخب الفراق.

وكانت له كعادة الشعراء الأوائل وقفات وزيارات للأطلال العاطفية، وكثيراً ما كان يحلو له أن يقلب فى ألبوم ذكرياته العاطفية... ويحن إلى ماضى الفحولة والعطاء المتبادل.

صحبنى ذات مساء إلى أحداهن، لبنانية الأصل، أوربية الاسم "روز" وترجمته بالعربية "زهور" كان اللقاء فى بار أنيق فى أحد الممرات الجانبية من شارع شريف، تحمل مسحة من الجمال الغارب، وبصمات السهر سهر الليل، شعرها الذهبى أصبح كالح الصفرة ووجهها مصبوغا بالمساحيق، وقوامها رغم اكتنازه ما زال يتقن فن التثنى، ولكن عينيها ظلتا برغم الزمن شابة فى الثلاثينيات تلمع فى الضوء الخافت بريقا وسحرا وذكاء..... و......

"أزيك يا كامل بيك" و"أزيك يا زهور".... وذكريات وضحكات كان صداها يصلنى فى المكان الذى جلست فيه بعيدا.... ولم أسأله عنها ولا عن ذكرياته معها، ولكن سهرة جمعتنا بالفنانة تحية كاريوكا فى شقته التى أستأجرها بالأسكندرية صيف ١٩٦٣ فى الأزاريطة كشفت عن هوية "زهور" وعلاقتها العاطفية بكامل الشناوى.

كان قد فرغ من الشراب،ومن لعب "البوكر" مع جلال معوض وليلى فوزى وصلاح ذو الفقار وحرمه والسيد بدير وشريفة فاضل... كان سعيدا بالصحبة الحلوة ونسمات البحر تندى مجلسه،عندما طلبت تحية كاريوكا منه أن يروى قصيدة العيون.

كانت تحية كاريوكا تعرف الكثير من غرامياته مع الغانيات والفنانات، وكان يحترمها ويخشى لسانها، وذاكرتها، ولكنه تململ وحاول أن يشدنا إلى حديث آخر.... وإذا بتحية تسأله: ما شفتش "زهور" يا كامل بك... مش فتحت بار.... و.... كأنه لم يسمع سؤالها وتربع على الكنبة،وفى نبرات متهدجة بالألم والذكرى بدأ يروى قصيدة العيون:

لا وعينيك يا حبيبة روحى

لم أعد فيك هائما فاستريحى

سكنت ثورتي، فصارت سواء

أن تليني، أو تجنحي للجموح

واهتدت حيرتي، فسيان عندي

أن تبوحي بالحب أو لا تبوحي

وخيالي الذي سما بك يوما

ياله اليوم من خيال كسيح!

والحنان الذي غمرتك فيه

ضاع مني... وخانني في جروحي

والفؤاد الذي سكنت الحنايا

منه... أودعته مهب الريح

لا وعينيك!

ما سلوتك عمري

فاستريحي

وحاذري أن تريحي

وفهمت كما فهم الجميع... فقد كانت القصيدة تعنى «زهور» واحدة من قصص الهوى الشهيرة التى عاشها الشاعر مع الغانيات،أبان ميعة الشباب الواعد بالأمل والحب الكامل؟

لكن هذه القصيدة لم تكن الوحيدة التى تغنى فيها كامل الشناوى بحبيبته «زهور» فقد جمعتنى الصدفة بصديق شبابه المصور منير فريد،ووجدته يحتفظ بمسودة قصيدة أخرى كان قد نظمها وحبه لها فى الرمق الأخير:

آن يا عــــين أن تغـــيض الدمــــوع

آن يـا قـلـب آن تـقـــــــــر الـضـلـوع

آن ياليـل أن يطيب الهــــجـــوع

* * *

كم ســـقـــينا به وكم قـــر عـــينا

ووصلـنـا فـــــراعـنـا بـصـــــدوده

وبـكـيـنـا فـكـان يـضــــــحـك مـنـا

ســـاخـــرا من عـــهـــودنا وعـــهـــوده

من نـذير إلـيــــه يـخـــــبـــــر أنا

قــد نـسـيـنا حـتى احـتـمـال وجـوده

* * *

خــــبت الـنـار يا حـــبـــيـــبى بقلبى

فـتـفـنن كـيـف شـئـت هجــرا ودلالا

لست بالموت حـتى لتـبـعث شـعـرى

شـــعلة من دم كـــمـــا كـــان قـــبـــلا

تـه دلالا كــــمـــــا تـشــــاء الآنـا

واغـــــمـــــر الكون رقــــة وحـنـانا

لـن ترانـى المعــــذب الـولـهـــــانـا

لن تـرانى يقـــبل الدمع خــــدى

لن يثيـر الفـراق شجـوى كـعـهـدى

وإذا كانت «زهور» أعمق «حب» لكامل الشناوى، فإن أشهر قصة حب على هذا الصعيد كان مع الفنانة كاميليا... مارلين مونرو الشاشة المصرية،ذات الجمال الصارخ وعشيقة فاروق ملك مصر، والتى أحبها كامل الشناوى وفتن بها وظل يعشقها قبل أن ينتهى عمرها القصير بفترة قصيرة.

كانت قصته مع كاميليا على كل لسان،فجمالها وشهرتها كانت دائما تفضح لقاءهما فى أى مكان ذهبا إليه... فكان شعر كامل الشناوى فى أوصاف جمالها الفريد، كأنه فزورة سهلة الحل.

وقد يعتقد الكثيرون أن أغنيه «أنت عمرى» كانت أول لقاء فنى بين عبد الوهاب وأم كلثوم، وهذا غير صحيح فقد سبق هذا اللقاء،لقاء فنى آخر... موضوعه «كاميليا».

كان ذلك عام ١٩٥٤، وكانت المناسبة عيد ميلاد صديقه الأستاذ حسن الأعور... وكان بين المدعوين أم كلثوم وعبد الوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبد الوهاب مورو... وكامل الشناوى وصديقته كاميليا.

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوى... فاتهمته بأنه يتحيز صحفياً لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية وحاول أن يقطع عليها طريق التريقة... فاعترف أمام الجميع بأنه متحيز فعلا لكاميليا... ولكن أم كلثوم أحرجته وقالت: إذا كان هذا صحيحا فقل فيها شعرا.

وبادر عبد الوهاب وقال: وأنا مستعد أن ألحن هذا الشعر فورا.

وقالت أم كلثوم: وأنا سأغنى اللحن فى الحال.

ووافق الجميع.. ولم يجد كامل الشناوى بدا من أن ينتحى جانبا ونظم أبياتا من وحى اللحظة غزلا فى كاميليا:

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك... فارفقى بخيالى

أن بعض الجمال يذهل قلبى

عن ضلوعى... فكيف كل الجمال

وقرأ عبد الوهاب القصيدة ولحنها على العود، وغنتها أم كلثوم، واستعادها الحاضرون مرات ومرات حتى مطلع الفجر، ولم تكن كاميليا تفهم اللغة العربية الفصحى فكان توفيق الحكيم يترجم لها الأبيات إلى الفرنسية.

والمتتبع لقصة كامل الشناوى العاطفية مع كاميليا، يلاحظ أمرين لهما ما وراءهما.

الأول: أنه والملك فاروق، كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا فى فترات متقاربة فهل كان ذلك ما تحمل، آخر قصائده فى كاميليا حين افترقا... الشعور بالكبرياء والإحساس بالخطر؟

يا كبريائى لقد كلفتنى خطرا

فيه المنايا مطلات بأنياب

تمرد الليل لا أغفو به أبداً

حتى أرى الفجر مسفوحاً على بابى

وعندما جاءته نوبة الإغماء بعد «حلة العدس» الشهيرة وأصبح بين الحياة والموت، وأمام غرفته بمستشفى قصر العينى، تجمع أهله وأصدقاؤه وكان بينهم إحسان عبد القدوس وهيكل وفتحى غانم والخميسى والملاخ وموسى صبرى وبليغ وعبد الحليم، خرج الدكتور أنور المفتى وبشرنا بالأمل... «الأمل فى حياته ٥٪ والباقى على الله» ولمعت فى رأس إحسان

فكرة أن يتصل بمطربته الصغيرة... وتأتى إلى القصر العينى، وتدخل عليه غرفته، وتجلس على أطراف سريره، ويلمحها بعيونه الغافلة، وهو بين الحياة والموت، وينبض قلبه بالحب ويتشبث بالحياة[1].

ذات يوم مشمس، والوقت صباحا، وبوكيهات الورود تصطف فى ممرات مستشفى الكاتب وكأنها أحياء تتمنى له الشفاء، كان يرحمه الله يقرب من سريره «بوكيهات» الورود بقدر محبته لأصحابها، أما الذين أرسلوها دون أن يكلفوا أنفسهم زيارته، فكان يصرفها إلى خارج غرفته.

وجاءت محبوبته الفنانة «المنيون» ودخلت غرفته على استحياء وخجل ولم يكن قد رآها منذ زارته فى قصر العينى، ونهض من رقاده شابا متلهفا، وغادرناه ،ثم خرجت بعدنا، ولكنها ظلت بجواره على «الكومودينو» بوردها الأبيض والأحمر القانى.

كانت قبل ذلك خجلى أن تواجهه على سرير المرض، وهى التى ألقت به إليه أو أسلمه له حبا لها، أرسلت تسترضيه بورودها، فأمر بوضعها فى الممرات، أرسلت صوتها على أسلاك التليفون، وبثها الشاعر الرقيق من روحه مرحا وثناء وحبا وغرها الثناء وجاءت إليه.

وزاره بعد قليل الموسيقار محمد عبد الوهاب، ووجده نشطا متيقظا فرحا، لم يستفسر منه عن المرض والعلاج، ولكنه سأل: عامل أيه مع الحب يا كامل؟

أنا مش عامل مع الحب، هوه اللى عامل فيه يا محمد.

وعامل فيك الحب أيه يا كامل؟

اهتم الأطباء ببيوت الداء، وأهملوا القلب، فيه الداء نفسه!

(١) كان ذلك عام ١٩٦٤ قبل عام من وفاته.

ـ سلامة قلبك يا كامل.

ـ دواء القلب كان هنا من شوية.

ـ طيب مبروك يا كامل... مبروك علينا قلبك.

وكان كامل الشناوى قد كتب قبل لقائه الأخير بمحبوبته يقول:

«ان الحب مثل القانون، يحمى البرئ ويتعقب المجرم، وقد كان يحميها فأصبح يتعقبها....

«تعالى... لا تخافى أن تذكرينى بالماضى... أننى عندما أراك لا أغوص فى أيام ذهبت، ولكنى أتسلق ما بقى لى من أيام!

«ليس فى حياتى ماض وحاضر ومستقبل، حياتنا فترة واحدة هى الماضى».

«الأمس مضى، واليوم يمضى، والغد سيمضى، تعالى ولا تترددى! فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى!!».

وغادر كامل الشناوى المستشفى عام ١٩٦٤... وظل يراودها عن قلبها وحبها ووصالها نثرا وشعرا ورسائل ومكالمات.. وكان يلتقى بها وكان يفترق عنها... وكان فى ذلك كله يعيش الحياة العاطفية ويتنفس الحب وينفعل.

وفى تلك المرحلة الأخيرة من حبه لها ومن حياته.. كتب ثلاث قصائد الأولى يبكى فيها أطلال حبه وكانت بعنوان «ظمأ وجوع»:

أحببتها وظننت أن لقلبها

نبضا كقلبى

لا تقيده الضلوع !!

....أحببتها

... وإذا بهـــــا قلب بلا نبض

... ســـــراب خـــــادع

... ظمـــــأ وجـــــوع!!

فـــتـــركـــتـــهـــا....

لكن قلبى لم يزل طفـــــلا

يعـــاوده الحنين إلى الرجـــوع

وإذا مـــــــتـــــررت...

وكم مـــررت ببـــيـــتـــهـــا

تـــبـــكـــى الخـــطـــى مـــنـــى!!

وتـرتـعـــــد الـدمـــــوع!!

والقصيدة الثانية كانت تجسد مأساته العاطفية معها... بعد أن تقطعت بينهما أسباب اللقاء...ولم يبق له منها سوى رؤى وأحلام اليقظة.

أنا لا أعـــرف حـــدا لهـــواها!

أنا لا أعـــرف حـــدا لهـــوايا!!

... كم يرينى النوم منها عـجـبـا!

فـــــتـــــنة يـقـظـى

وروحـــــاً، وســـجـــايا!!

ضـــمـــهـــا صـــدرى

ومـــســت شـــعـــرها راحـــتـى

وارتشفتها شفتايا !!

وعليها من ذراعى وثاق

شدّه قلبى

وأرخته يدايا !!

فإذا ما نفضت عينى الكرى

لم أجد بين ذراعىّ سوايا

ثم كانت قصيدته الثالثة «رفات» وفيها يرثى حبه الذى دفنه فى بئر الحرمان والذكريات:

قد خلت منك حياتى

وخلت منى حياتك

ما نراه منك أو منى

رفاتى، ورفاتك !!!

فى الفترة المتقطعة التى كانت تمر بعلاقة كامل بالمطربة الرقيقة خصاما، وهجرا، وصدا، كان يستوحش الحب... ويطيش حبه... ويبحث عن بديل يشغل قلبه ويحرك شاعريته... وكان يقول «أن قلبى لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل، ولذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب،حتى لا يتعرض للبطالة».

سأله مرة الفنان عبد الغنى أبو العنين مداعبا: المزاج الأيام دى عامل أيه يا كامل بك؟

وضحك قائلا: أسباجتى!

وكانت المرة الأولى التى سمعته فيها يشبه المرأة بالطعام،وكان يعنى حبه الطائش لمضيفة شابة فى كافتيريا الهيلتون.

كانت مصرية الجنسية إيطالية الأصل، تتأرجح لهجتها بين جنسيتها وأصلها فى حيوية ظل بنات الأبيض المتوسط.

كان يعجبه فيها كبرياؤها، وودها، ورقة صوتها واخضرار عينيها، وقد بدأ ما يمنحه إياها من «البقشيش» خمسين قرشا ثم خمسة جنيهات وكانت ترد البقشيش دائما فى أدب وحياء.

كانت تعتز با ختياره لمائدة تقع فى منطقة خدمتها كل ليلة، حتى أنها طلبت من إدارة الفندق العمل دائما فى «وردية» الليل، حتى تحظى بثنائه ومداعباته وشعره.

كتب فى محبوبته المضيفة قصيدة بعنوان «الكافتيريا»... مطلعها:

مرت بنا كالطيف تسألنا ... ماذا نريد؟ فلذت بالصمت

ودنت لتسألنى على حدة ... عما أريد،فقلتها:أنت!!

غضبت وألقت نظرة نزعت ... قلبى وشدته إلى فمها

ياليته يقوى يقبلها ... ياليته ينساب فى دمها

وأردت أرضيها، فقلت لها: ... هل تعرفين،ومن أكون أنا

أنا يا صبية شاعر هرم ... قد جاء يستوحى الشباب هنا

أريد إلهامة جديدة ... بقدر ما أنظم القصيدة

وقصيدتى مازلت أنظمها ... وأظل طول العمر أنظمها

ولم تكن مضيفة الكافتيريا على صورة الجمال الذى يستهوى كامل الشناوى، كانت ممتلئة بعض الشئ ولكن حبه لها كان يكمن فى سلوكها

الرفيع، ويبدو أنها ذكرته بلمحات من فاتنة المعادى وسلوكها الأوروبى، وكبريائها...

وكان دائما يفاخر بكبرياء محبوبة الكافتيريا، وكان يراهن أصدقاءه على أنها ترفض «البقشيش» على مائدته... وكانوا يجربون دفع الحساب والبقشيش، فتأخذ الحساب وتترك البقشيش.

ولم يستمر الحب كما كان طعام الكافتيريا... تتناوله سريعاً وتترك مكانك لغيرك، وكسب أحد أصدقائه الرهان ذات ليلة، عندما قبلت حساب الطلبات والبقشيش معا، وتخلت عن كبريائها، ثم انتقلت فجاة الى عالم السينمائيين بعد «غدوة» تناولها على مائدتها ضابط سابق فى سلاح الفرسان أصبح ممثلا سينمائيا شهيرا....

وعندما دخل علينا يصطحبها ـ كنا نسهر فى منزل عبد الحليم حافظ بالعجوزة ـ تطلعت العيون إلى كامل الشناوى وضحك قائلا:

«أنها لم تكن «غدوة» وإنما «غزوة» للفارس القديم».

وفى صيف عام ١٩٦٣، وشقة كامل الشناوى المطلة على البحر، كعبة لأصدقائه وأهل الفن والصحافة والشعراء والظرفاء، كان الخميسى يزوره يوميا فى قمصان الشباب الملونة، منطلقاً، معربدا، يلتهم بهجة الحياة وملذاتها، وكأنه توقف عند سن العشرين ولم يتزحزح.

وزارت كامل الشناوى شاعرة بدينة معروفة لم تزل عذراء برغم أعوامها التى تخطت الأربعين... جاءت ومعها الجمال الذى يستهويه.

شاعرة مبتدئة تعمل معيدة بكلية الآداب بالأسكندرية.

كانت شابة آية فى روعة الجمال ورقته وذكائه، هيفاء ناحلة، ملونة عيونها بزرقة البحر وشعرها بلون الرمال.

كانت تطمع بزيارتها أن تخطو بتجربتها الشعرية إلى مزيد من تجارب الشاعر الكبير.

ويوما بعد يوم... لم يرض أن تقتصر التجربة على الشعر، طاش سعيدا بها ولعاً بعذوبتها، ولكنها بلباقتها ووقارها المبكر لمحت باعتذارها عن الحب.

وكتب بعد أيام يحكى لقاءه معها:

«فى مشاعرى همس جديد، لذيذ، غامض... أحاول أن أتبينه فتحجبه عنى ثرثرة التجارب وفضول الذكريات!!»

هل هو حب؟ هل هو نزوة؟

أننى مشدود من قلبى وعقلى إليها، إلى جمالها العبقرى، وأنوثتها الذكية، وملامحها الموهوبة المثقلة!

قالت لى: أنها تثق بى فى كل شئ إلا عندما أتحدث عنها وسألتها: لماذا؟

قالت: لأنك تجاملنى على حساب الواقع...

قلت: أخشى أن تتهمينى بالمبالغة إذا قلت أنى أجامل الواقع على حسابك!

قالت: هذا خيال...

قلت: بل هذه حقيقة، وما تظنيه خيالا أو مبالغة ليس إلا حرارة، لأنى أعبر عن الحقيقة بأسلوب دافئ!

ويوما دخل الخميسى على مجلسه معها... بصخبه واقتحامه الشجاع للمجهول... بشبابه الذى يقاوم الزمن، ويلمح على مائدة صغيرة فى الصالون عددا من زجاجات الأدوية الكثيرة الخاصة بكامل الشناوى، وفتح كل زجاجة وأخذ منها بعض الحبوب وابتلعها فى جوفه.

ثم بدأ يروى أمام الشاعرة الشابة بعضا من تجاربه الشعرية وحكايات مثيرة معظمها لم يحدث قط، ولكنها فنية الحبكة مشوقة التفاصيل، وانبهرت الشاعرة بالخميسى و... لم تكرر زيارتها لكامل الشناوى بعد ذلك...

أكثر من عقدين من الزمان على وفاة كامل الشناوى تجددت حكاية حبه الضائع وقصيدته التى حطمت قلبه مع المطربة الصغيرة ولكن هذه المرة أمام المحاكم.

وتحت عنوان «كامل الشناوى وقضيته المعلقة» كتب الأديب كمال النجمى يستعرض تلك القضية واستطرد منها إلى حديثه عن كامل الشناوى الشاعر العاشق المفتون فقال[1]:

الأوساط الأدبية والفنية فى القاهرة تتحدث الآن عن قضية تنظر فيها إحدى المحاكم المصرية، محورها الشاعر كامل الشناوى الذى ملأ الدنيا طول حياته بأشعاره وأخباره وأسماره... ولحن له الموسيقار محمد عبد الوهاب فى أواخر الأربعينيات قصيدة «زعموا حبى يا قلب خطايا» ثم لحن له فى الستينيات قصيدة «لا تكذبى».. فكانت لها ضجة وكثرت حولها التساؤلات، فقد تضمنت قصة أو حادثة واضحة المعالم، كان ضحيتها كامل الشناوى نفسه، ولكنه تحمل وطأة هذه الحادثة العاطفية بشجاعة، وتفكر فيها بشئ من الفلسفة الرواقية، مستسلما للأقدار، كعادته فى كل معاركه العاطفية التى خسرها جميعا على امتداد حياته..

فى قصيدته «زعموا حبى يا قلب خطايا» كانت ملهمته معروفة بالاسم والرسم، وكذلك كانت ملهمته الأخرى فى «لا تكذبى» وبينهما عشرين عاما، وعشرين حادثة عاطفية!.

إلا أن «لا تكذبى» كانت القفص الذى حواه حيا وميتا ففى حياته صار

(١) مجلة الدوحة/ يونيه ١٩٨٦.

لقبه «شاعر لا تكذبى» وحمل ديوانه الأول والأخير عنوان «لا تكذبى» وبعد موته بعشرين عاما دخل قفص «محكمة الجنح» بنفس هذا الاسم أو اللقب، مع أن «لا تكذبى» كانت مفتاح حريته من قصص الحب المتولية «العاثرة»، وبهذه القصيدة استطاع فى أخريات حياته أن يسلو ويفطم قلبه الطفل عن ارتشاف قطرات الحب المر الذى أدمن عليه ولم ينظم بعدها شعرا فى الحب إلا ما كان من الحديث البرىء العاجز فى سهراته ونظراته وخطراته، ينظمها شعرا، ليلة بعد ليلة، من قلب خلى كان الحب وهمه الأكبر وانتهى بعد اليأس إلى السلوان وبرودة الذكريات!

كان كامل الشناوى نسيجًا وحده فى تعامله مع الدنيا، كما كان نسيجًا وحده فى شعره لم يشبهه أحد من زملائه وأصدقائه فى حياته الساهرة الضاحكة الباكية، ولا نسج على منواله أحد من معاصريه فى شعره الغارق فى التعبيرات المجنحة المبتكرة، والمصبوغ بصفرة المسكنة والاسترحام فى طلب الحب، مع ادعاء الترفع والاستغناء، كأنه «صاحب القلب المسكين» الذى أبدع فى وصفه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى فى بعض مقالاته القصصية الرائعة.

إن صاحب القلب المسكين الذى كان دائم الحب، دائم اليأس من الحب، لا يسلو ولا يبلغ أملا ـ كما وصفه الرافعى ـ هو بعينه كامل الشناوى، لولا أن الرافعى كان يتحدث عن نفسه، ويصف بلواه الشخصية!..

وفى مصر تتفطر قلوب كثير من الشعراء، غما وكمدا، لما يلقونه من جحود الناس كبارا وصغارا، فإذا مات أحد هؤلاء الشعراء انبعث اسمه عاليا مدويا كالرعد، وأدهشت عبقريته ـ فجأة ـ كل الناس يرون بعيونهم برقا يلمع فى سماء صافية، وعرف من لم يكن يعرف فضل هذا الراحل العظيم، فنعاه وبكاه واستمطر على جثته السحاب!...

ولكن كامل الشناوى كان أحد القلائل الذين انتزعوا لأنفسهم شيئا من الإنصاف فى حياتهم، ففرض نفسه على المجتمع فرضا فكان اسمه من فرط شهرته فى حياته كأنه ضوء معلق فى الفضاء، يتخذه الناس رمزا لأشياء كثيرة جميلة فى الحياة: الحب والشعر والسعادة والفن والمرح والصداقة والموسيقى والغناء!...

رأيته أول مرة سنة ١٩٤٣ فى مكتب أنطوان الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام... وكانت مطربة لبنانية جديدة انفجرت شهرتها حينذاك كالقنبلة ورشحها بعضهم خليفة لأم كلثوم!..*

فلما نهضت الفتاة تغنى، راعنى صوتها بسعة مساحته واكتماله جوابا وقرارا، ولم يشغلنى من أمرها إلا هذه المقاييس الفنية،فلم يكن فى الأمر ما يدعو إلى أكثر من ذلك... ورأيت الباشا ـ وكان نبيلاً رقيقاً ـ يصغى إليها بحنو أبوى، أما كامل الشناوى فكان يرتجف سعادة، ويبكى طرباً فلما فرغت الفتاة من غنائها، وقف فألقى بين يديها خطبة مرتجلة بليغة، يثنى فيها على غنائها وعلى شخصها أحر الثناء، وتهدج صوته تأثراً، وبرقت أساريره، ولمعت عيناه!.

هذا الشاعر المتأجج العاطفة، القريب الدمع، كان قادراً عند الضرورة أن ينسى وينتقل بقلبه إلى إلهام جديد!... وهو بين هذا وذاك منهمك فى «المقامرة» بحياته، وبما فى يده، بلا احتراس، ولا مبالاة ولا شفقة على نفسه!

كذلك كانت صورته فى حياته، فكان محور الأحاديث الدائمة فى الأندية والأسمار الطريفة فى الصحف... حتى انطفأت ذات يوم من أواخر سنة ١٩٦٥ أضواء الساحة الكبيرة التى كان يلعب فيها كامل الشناوى أمام عيون الحشود الحاشدة!...

* هى المطربة نور الهدى.

والآن.. بعد عشرين عاماً من رحيله، فإن هذا الشاعر الذى بلغ فى عصره منزلة الضوء المعلق والرمز المجرد من الكيان المادى، لا تجد له أثراً إلا فى ديوان صغير الحجم سماه ناشره «لا تكذبى» تمسحاً بالأغ ية المشهورة، ثم نشرته إحدى دور النشر باسم ديوان كامل الشناوى دون أن تضيف إليه شيئاً ذا بال، مع أن له شعراً غير قليل متناثراً فى صحف قديمة، ولم ينشر فى ديوانيه هذين....

لقد عاش كامل الشناوى حياة ثرية لامعة وإن أثقلته المشكلات والأوجاع البدنية والنفسية، ولم يكد يفارق الدنيا حتى خمد صليل السيوف من حوله، كأنما كانت حياته حرباً طاحنة ثم وضعت أوزارها، وأمسى أصدقاؤه يتساءلون عن آثاره... أين هى؟!.... فكأنهم يتساءلون عن آثار شاعر مغمور أو منكور لم يعرفه ملايين الناس يوماً، ولا ترنم بشعره أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ونور الهدى ونجاة وفريد الأطرش وغيرهم...

كان كامل الشناوى فى حياته يملأ الإذاعة المصرية بصوته المتميز العميق ويتألق بقبحه الجميل على «الشاشة الصغيرة»... ولو شاء لتألق أيضاً على الشاشة الكبيرة... ناهيك بالألق الخاطف للأبصار فى الصحف وفى الأندية وفى قمة مجالس الترف وذروة الهرم الاجتماعى!....

والآن يقال: هذا شاعر تخطاه الزمن شعراً وفكراً... كان فى الشعر آخر الرومانسيين على الطريقة العربية العباسية، آخذاً بلمحات من رومانسية القرن التاسع عشر الأوروبية ورومانسية مصر فى الثلاثينيات من القرن العشرين!... وقد أراد أن يجدد على طريقة شعراء التفعيلة حين ارتفعت رايتهم قبل عشرين عاماً، فتنازل عن البحور والقوافى تنازلاً صورياً ليدخل فى زمرة هؤلاء المجددين، بغير تجديد على غرارهم!!...

ولكن أحداً لم ينكر خلال حياة هذا الشاعر أنه استطاع بحيويته الجذابة أن يجعل أشعاره وخواطره وسوانحه وأشتات أفكاره تملأ «عموم» الآفاق المصرية والعربية، وبخاصة القاهرة... وصار تذوق الشعر مطلباً من مطالب عامة الناس فى أيامه، وكان من قبل مطلباً للخاصة من المثقفين... ولو لم يكن لكامل الشناوى فى شعره إلا هذه المأثرة لرجح بها ميزانه، فكيف وله معها مأثرة الصدق فى التعبير عن عصره ومجتمعه ومرحلته الاجتماعية والسياسية والفكرية التى كان يتحرك على اتساع أجوائها وملابساتها المعقدة المتباينة... ولهذا استمع إلى شعره ملايين الناس وتعلقوا بقائله الذى أنشدهم فأطربهم، وبكى بين أيديهم، ورقص تحت أنظارهم، وأقام لهم من هذا الشعر مبنى تغمره الأضواء، يختلط فيه فن المسرح بفن الرقص... بفن السيرك!!...

ومع هذا يمكن أن يقال ـ مع الأسف ـ إن كامل الشناوى الذى كان شديد التألق فى حياته،أمسى وقد طويت صفحته، وجفت أقلامه، على غيرما جرت به عادة مواطنينا الكرام من السخاء فى التنوية بأمثاله بعد موتهم، والمباهاة بأسمائهم وأعمالهم...

لم يتبق منه إلا الذكريات....

فى بيته بجاردن سيتى بالقاهرة ـ وكان حياً جميلاً هادئاً فى الماضى ـ جلست إليه قبل رحيله عن الدنيا بأشهر قلائل.....

كان قد غادر المستشفى متماثلا للشفاء بعد إحدى نكساته الصحية الخطيرة الكثيرة... ولم يبق من جسده الضخم إلا آثار البدانة التى أذابها الداء، فبدا كأنه أخ شقيق للمهاتما غاندى، أشهر المهازيل فى العالم قديماً وحديثاً..

وكان فى تلك الأيام الأخيرة من حياته قد استقرت نفسه،كأنها طابت ورضيت ووجدت برد الرضى وراحته بعد طول حل وترحال مع العذاب...

وانفضت من حول الشاعر المريض أساطير الرواة الذين صوروه كأنه كازانوفا ودون جوان وعمر بن أبى ربيعه وأبو نواس والخيام وبقية العشاق والفتاك من أرباب السيف وأرباب القلم الذين امتلأت كتب الشرق والغرب بأقاصيصهم...

ولم يبق من ماضيه فى الحب إلا العقابيل التى لا يستطيع محوها، والذكريات، يستدفىء على نارها الهادئة.. والاستمتاع الوجدانى المحض الذى تعنيه مشاهد ملامح جميلة على شاشة التليفزيون القائم قرب «الكنبة» التى تربع فوقها هانئاً بفنجانه القهوة «السادة» مع السيجارة، مع أن أوامر الأطباء حرمت عليه السيجارة والقهوة؟

وتمزقت الصلات بينه وبين مرح الحياة، إلا بالفكر والتأمل والخيال والكون... والنهاية الحتمية، وقبض الريح....

فإذا أبعد عن ناظريه بعض الوقت هذا المشهد الذى يزيده المرض رهبة فى نفسه، جلس مع أحد الناس كأنه يحتمى به، ويستشفى من داء بداء، على حد تعبير المتنبى!...

وقد تمر بخاطره هذه أو تلك ممن حكم عليه الزمن بالسلو عنهن وتحطيم صورتهن القديمة، فيتذكر قوله فى قصيدته «الخطايا»:

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى وأنا منها شظايا

وهو قول ينطبق على دنياه كلها لا على حبائبه اللاتى نفض منهن عواطفه وقنع من رحلته معهن بالإياب بعد العذاب!....

ولعله الآن، وقد تحرر من هذه المشاهد كلها إلى الأبد، يطل على قصته: «الجديدة» التى تدور وراء قفص إحدى محاكم القاهرة، ساخرا مما يدور، غير عابئ بأن يعود فيتذكروه، لكنه لم يكن يخشى طوال حياته

أن ينساه الناس ويستغنوا عنه بعد موته، فالنسيان غاية كل حى، وسيشبع الأحياء والموتى نسياناً، بعضهم لبعض!...

وحتى القلائل من الشعراء الذين يضج الناس بذكرهم بعد موتهم، لا يلبث نسيان الحياة لهم أن يهيل عليهم ترابه!...

غير أن كامل الشناوى عاد فجأة بطريقة تشبه السحر، وتردد اسمه فى الصحف من جديد... وصار «قضية» معروضة على المحاكم، وكان قد فارق الدنيا وقضاياه فى الشعر والحب معلقة بدون حكم، مع كثرة أوراقها وتضخم ملفاتها!..

ولكن حسبه أنه نفض يديه من كل شئ.. وبقى بعده شعره الذى يقول:

أين يأسى؟... لقد مضى
ومضت مثله المنى
كل ما كان... لم يكن
وأنا لم أعد أنا

وقصيدة «النسيان» التى مطلعها:

آه من دورة الزمان دهتنى
ورمتنى فى غمرة النسيان

والشاعر يقهر النسيان بورقة واحدة من شعره، ما بقيت أمته تتكلم اللغة التى نظم بها شعره، ولكن ماذا يصنع الشاعر إذا نسيت أمته...؟! هذه قضية كل شاعر عربى!..

ويلقى الكاتب الصحفى موسى صبرى الأضواء على جوانب من سيرة

كامل الشناوى وبعض قصص غرامياته مع بنات الفن، فيقول[1]:

حلت ذكرى كامل الشناوى. ونحن أصدقاؤه ومريدوه وتلاميذه، نذكره بغير ذكرى. كان له فى كل يوم مشهد، فيه الحبكة القصصية، والعبارة الجميلة، والمفاجأة المثيرة. وكنا ننتظر مقدمه إلى مكتبه، لكى نلتف حوله، ونستمتع، ونبقى معه حتى مطلع الفجر. ويا ويل من يعتذر عن عدم البقاء.سيكون ضحية سهلة، لنكات وقفشات كامل الشناوى .

وجيل القمة فى الصحافة الآن.. يدينون لكامل الشناوى بفضل التشجيع، وفتح الأبواب المغلقة..

ومرتان دعانى كامل الشناوى للعمل معه.. ولم نصل إلى اتفاق.

المرة الأولى، بالتليفون. لم أكن قد عرفته أو قابلته. وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ أو ٤٩ إذا لم تخنى الذاكرة. وكنت سكرتيراً لتحرير صحيفة «الزمان» اليومية المسائية. وكان جلال الحمامصى رئيس تحريرها.

كان كامل الشناوى يستعد لإصدار صحيفة يومية مسائية. ورشحنى زميل قديم هو المرحوم عبد الرحمن دنيا، لكامل الشناوى، أن أعمل معه. وفوجئت بتليفون منه. وبلا مقدمات، قال لى:

ـ كل طلباتك مجابة. مادياً ومعنوياً .

وأسعدنى العرض، ولكننى اعتذرت عن عدم قبوله وصارحت به جلال الحمامصى، الذى قال لى:

ـ هل تعرف كامل الشناوى؟

قلت: لا .. سمعت صوته فقط.

قال: كامل الشناوى كاتب لامع، ومحدث مقنع..

(١) آخر ساعة ـ نوفمبر ١٩٦٦.

وهو يبدأ أى مشروع بحماسة ملتهبة، وعند أول عقبة، تفتر هذه الحماسة، ويشعر بالملل. وهذه طبيعة الشاعر.

قلت: ولكننى سمعت عن استعدادات ضخمة لإصدار هذه الصحيفة..

قال: مهما كانت الاستعدادات.. فلن يعيش المشروع..

وصدق توقع جلال الحمامصى.. كان كامل الشناوى رحمه الله، موهبة لا تكمل المشوار.. يشرع فى كتابة قصة ولا يكملها.. يبحر بقلبه إلى حب جديد، ولكنه يعود سريعاً إلى الشاطئ يلعن حظه. يبدأ دراسة أدبية، وينشر منها مقالين أو ثلاثا، ثم يتوقف. دائماً كان قصيدة لا تكتمل.

* * *

والمرة الثانية كانت فى مكتبه بصحيفة «الأهرام».. فى اليوم الأخير من ديسمبر عام ١٩٤٩، وكان رئيس تحرير الشئون الداخلية، كنا قد قدمنا استقالة جماعية من «الزمان» بعد أن أعلن صاحبها المرحوم إدجار جلاد (باشا) أنه سيؤيد الوفد، بعد نجاحه فى الانتخابات، وبعد مولد سياسة الوفاق بين الوفد والقصر التى كان مهندسها فؤاد سراج الدين. وذهبنا إلى كامل الشناوى فى «الأهرام» لكى ننشر هذه الاستقالة.. وبهرنا مجلسه.. أدباء وشعراء ووزراء وفنانون، كأنهم فى ندوة. والكل يتحاور، ويضحك، ويؤيد ويعارض. صورة جديدة على شبابنا، وفرصة ذهبية أن نكون مجرد حضور صامتين فى هذا المجلس المزدهر.

ووعدنا كامل الشناوى بالنشر، وعند انصرافنا، أشار لى أن أبقى.

وبقيت وقال لى: لقد استبقيتك، لأننا أعددنا لك مكتباً فى الأهرام!..

وأعاد قوله القديم: كل طلباتك مادياً وأدبياً مجابة..

قلت: أننى أنشر تعليقاً برلمانياً كل أسبوع..

قال: لك هذا طبعاً..

ولكن الاتفاق لم ينفذ. اتصل بى جلال الحمامصى فى الصباح التالى، وأبلغنى أن مصطفى أمين ينتظرنى فى مكتبه بأخبار اليوم فى الساعة الثانية عشرة ظهراً لكى أعمل فى أخبار اليوم.. وقال الحمامصى، بلهجة مودته الآمرة: ستعمل فى أخبار اليوم. لأننى سأعمل بها! وأخذ على عاتقه مسئولية، إبرائى من وعدى لكامل الشناوى.. الذى مررت عليه فى اليوم التالى وتركت له رسالة اعتذار، فقد كان من أحلامى أن أخطو إلى سلم أخبار اليوم!

* * *

وأذكر - فى أغسطس عام ١٩٥٢ - أنى كتبت سلسلة تحقيقات سياسية، صدرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان «قصة ملك و٤ وزارات».. وكنت أروى الأحداث السياسية التى سبقت قيام الثورة بستة أشهر، يوماً بيوم، وكان لى دور الشاهد فى معظمها..

وقرأها كامل الشناوى - وكان يرأس تحرير آخر ساعة - وقال لى: - سننشرها فى صفحتى الوسط فى آخر ساعة.. وكان ذلك دفعة كبيرة لى إلى الأمام.. ولكن المفاجأة السعيدة، كانت عندما قرأت آخر ساعة، ووجدت أن كامل الشناوى قد وضع اسمى على التحقيق الأول، مسبوقاً بكلمة «بقلم»..

كانت هذه هى شهادة الدكتوراه للصحفى الشاب، عندما تنشر سطوره، وعليها «بقلم» بدلاً من التوقيع بالبنط الصغير فى نهاية المقال!

كان مجرد وضع اسم الصحفى فى صحف أخبار اليوم فى ذلك الوقت، مكافأة كبرى، واعترافاً بأنه أصبح صحفياً.. وليس الأمر كهذا هذه الأيام..

وما أكثر الأسماء التى توضع على موضوعات أو أخبار لا تستحق

النشر.. وكان كامل الشناوى ظاهرة، يندر أن تتكرر.

وكانت مأساته فى قلبه.

كان قلباً طموحاً.. يسعى إلى أشهر الشهيرات، وأجمل الجميلات. وكانت عقدته فى بدانته، وافتقاده إلى الوسامة.. ولذلك، كان يعنى عناية فائقة، بملبسه.. وكان صاحب ذوق رفيع..

أحب يوماً فنانة اشتهرت بأنها قمة إغراء الجنس على شاشة السينما. ولكنه لم يجرؤ يوماً، أن يصارحها بما به ينبض به القلب الملتاع.. وكانت على علاقة عاطفية، مع مليونير معروف من كبار رجال الصناعة. وسافر المليونير إلى أوروبا فى رحلة عمل قصيرة، ولم يجد من يثق فى حراسته للغانية الجميلة، إلا صديقه كامل الشناوى.. ولم يكن يعرف بطبيعة الحال، أنه شهيد الغرام الصامت!

وكانت صاحبتنا ـ رحمها الله ـ من هواة المقامرة.. وكانت المائدة الخضراء، تجمع كل ليلة فى فندق وندسور، عدداً من الأثرياء وكامل الشناوى. وكان الشناوى، يقترض من جميع بنوك مصر لكى يقامر هؤلاء الأثرياء. وكانوا يكسبون، وكان دائما يخسر!.. ولكنه فى وجود هذه الفاتنة، كان يتعمد أن يخسر كل ليلة.. كان يخفى «الورق» الذى يكسب.. لكى يعطيها هى الفرصة أن تكسب!.. وفى كل مرة، كانت تنظر إليه، ممتنة، بمعنى أنها تفهم..

وفى الليلة الأخيرة، وكان مقرراً أن يعود صاحبها المليونير فى الصباح التالى.. طلبت الغانية، كامل الشناوى، لكى يوافيها إلى حجرتها بالفندق!

وذهب إليها، مضطرباً، مهتز الأوصال، لا يدرى لماذا دعته فى هذه الساعة المتأخرة.. وفاجأته:

ـ أنت تحبنى.. وأنت خسرت المئات، من أجل أن أكسب.. وأنت مدين وغدا سيصل صديقنا.. ولكن هذه الليلة لك.. لك أنت وحدك!

وماتت الجميلة، ولم يكن لكامل الشناوى معها ليلة ثانية!

* * *

الذكريات متلاحقة عن كامل الشناوى..

ذات ليلة، وكان كامل الشناوى يرأس تحرير الجمهورية، وكنت معه أيضا رئيساً للتحرير، وكان يفصل بين حجرتينا باب مفتوح..

دخلت عليه وكان فى قمة الانشراح!

كان قد أقفل التليفون، بعد حديث مع عباس العقاد.. وسألنى كامل: هل تعرف ما قال لى العقاد؟..

قلت: وكيف أعرف؟

قال: لقد منحنى إمارة الشعر.. وأن تأتى الإمارة من العقاد.. فهذا شئ أعتز به..

وفاض علينا كامل الشناوى، بكرمه فى تلك الليلة...

* * *

وكنت وحدى فى مستشفى الكاتب.. وكامل الشناوى، يعطى الحياة أنفاسه الأخيرة.. صديق له قد انصرف. وبقى مأمون الشناوى، وفتاة معجبة وفية للكاتب الكبير. وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كل ما حولنا صمت وظلام.. ثم حشرجات الصدر العليل. ثم بلا حشرجات.. ومات كامل الشناوى.

وعدت إلى بيتى، أكتب سطور رثائه بدمع سخين..



ساعات الرحيل

وعن اللحظات الأخيرة للشاعر كامل الشناوى كتب موسى صبرى قصة وداع هذا الشاعر الذى كان ملء الحياة، وكان بسمة ساحرة على وجه القاهرة ولياليها «منتصف الليل غادرت مستشفى الدكتور الكاتب إلى بيتى، هناك أمل، أمل كبير عند الأصدقاء، وأمل معدوم عند الأطباء ربما استطاع أن ينتصر ربما استطاع كامل الشناوى أن يحرك جفنيه، وأن يتكلم، لقد انتصر من قبل كنا نجلس فى غرفة صغيرة كالسجن اثنان من أشقائه والحلاق وأنا همسات التوسل لله، للمجهول للقدر. هى الرباط الوحيد بيننا على بعد مترين اثنين فقط، كامل الشناوى فى حجرته إغماءته لم تتقطع منذ ثلاثة أيام. المرض لا يتركه. جهاز الأكسجين صلته الوحيد بالحياة معه شاب لم يجاوز العشرين هو ابن شقيقته. أقرب الناس إلى قلب كامل الشناوى قلبه الذى تحاول كل معجزات الطب أن يعلو نبضه. ثم شابة لم تتجاوز الخامسة عشرة طالبة نحيلة متطوعة لخدمة الأب الحنون بلا ولد. الأنوار خافتة حولنا. بل هى ظلام. صوت واحد يهزها يزلزلها. أنين متصل من حجرة الشاعر. أنين متوجع مع كل شهقة وزفرة. كل الأمل أن تستمر الشهقات والزفرات.. وليستمر الأنين هذا أمل الأصدقاء ما دام يتوجع. فلا تزال فى الجسد بقية. أية بقية. بقايا الأمل فى قلوبنا وبقايا الجسد فى قلبه يلتقيان هل يحس هو بالألم؟ نتمنى أن يحس بالألم. هذا هو الدليل الوحيد الطب يقول أن الرئتين تذوبان كل شعيرة تصلبت الأكسجين ينتزع الشهقة.

(١) مجلة آخر ساعة/ أول ديسمبر ١٩٦٥.

انتزاعها يعنى كأن مسماراً ملتهبا ينغرز مع كل شهقة فى كل شعيرة.. آلاف الأسياخ الكاوية فى صدره. حول قلبه الأنين يعلو. يذوب فى أرجاء المستشفى الصامت وممرضة نراها جالسة ساكنة تقرأ مجلة مصورة هذا هو عالمها. الأصحاء هم الغرباء. يارب دعه يتألم. إنه يعيش ومتى عاش كامل الشناوى بلا ألم الألم حياته ولن يكون موته مزيداً ن الألم يا رب حتى يقاوم حتى ينتصر.. لقد انتصر من قبل منذ عامين انجفنان ذبلا ثم ارتجفا لحظة.. وصرخ أنور المفتى.. سيعيش.. وعاش كامل الشناوى وكنا نبكيه شهيداً. ومات أنور المفتى وبكيناه شهيداً. وبكى. لو بقى هكذا حتى الصباح. نعم ست ساعات فقط سيعود إلينا. ليتغنى بالألم لحنه الذى لم يمت ولن يموت. ولكن.. هل يحس حقاً بأنينه. كلمات الأطباء تهمس أنه فى غيبوبة. اغماءة كاملة الدم يجرى. الأنسجة تخترق الشرايين تتصلب. القلب متمرد على الحياة من قال:

لســـت قـــلـــبـــى... وإنمـــا

خــنــجـــــــــر أنــت فــى ضــلــوع

ويرتفع الأنين. ويهمس لى الأشقاء. ادخل لتراه وأصرخ. مستحيل لن أرى كامل الشناوى يرثينى نفسه بالوجيعة أريد أن يصحو أن يرثينى أن يمتع العالم بأنات قلبه. يدخل علينا الشاب الصغير مرتجفاً. ماذا... يد عمى اليمنى تهتز. أين الممرضة؟ وأقفلت المجلة فى هدوء وغبت عنا إلى حجرته وعادت.. لا شئ.. أنه الأكسجين يحدث بعض التقلصات حمداً لله. وأسأل الشاب. هل يفتح عينيه. لا. هل يميزك ولو لحظات لا نعم لحظة عند الظهر، حدث هذا. الحمد لله. سبحان الله.. حديثنا الآن عن شاعر تنبأ بغده!

دمـــعـــتــى ذاب جـــفـنـهـــا

بســـمـــتى مـــالهـــا شـــفـــاه

صـــــحـــــوة الموت مـــــا أرى

أم أرى غـــــفـــــوة الحـــــيـــــاة

يارب.. اجعلها غفوة الحياة.. أية حياة.. ليبق لنا، يرى ويسمع لا ضرورة أن يتكلم. لقد غنى لنا ما أغنانا ويغنى أجيالاً مقبلة. لا تبخل عليه بحياة مستمع. أنت يارب تعرف رأيه فى حياته..

فـــحـــيـــاتى كـــمـــا ترى

لا ظـــــلام ولا ســـــنـــــا

كـل مـــــا كـــــان لـم يـكـن

وأنـــا لـــم أعـــــــــــد أنـــا

«ولكنه كان يحبها، كان يحب عذابها، وكانت كبرياؤه تحاول أن تخفى دائما هذا الحب ولم تكن أداتها إلا الكلمة».. ولكن أيامى اليوم قليلة وانتزاع عام منها يشعرنى بالفقر والفراغ والعدم فقط تجاوزت الأربعين تجاوزتها وحدى لا صحة ولامال ولا زوجة ولا ولد ولا صديق.. ولكن علام نبكى الحياة.. وماذا لو رحلت عنا أو رحلنا عنها.. مادام الرحيل هو الغاية والهدف وهل نحن والحياة والموت إلا كما يقول أدسون.. نئن ونبكى وهذه هى الحياة ثم التثاؤب ونذهب وهذا هو الموت امض أيها العام، امض فغدا مثلك سنمضى»، لا تصدقه يارب هذه كذبة بيضاء مثل قلبه، دعه يستمر يئن ويبكى لا تدعه يتثاءب صوت أنينه يعلو أكثر وأكثر الحمد لله.. الأمل يتزايد.

وأسلم على الأشقاء.. أنا ذاهب إلى بيتى إننى منتظر مكالمة منكم بشرة الخير بإذن الله.

كل من فى البيت نيام، قبلت طفلى وكأننى غبت عنه دهرا جلست

وحدى فى صالة البيت الساعة تدق إنها تئن إنها تعيش الساعة الآن الواحدة بعد منتصف ليلة الاثنين الساعة الآن الواحدة من صباح الثلاثاء الساعة الآن أية ساعة، وبعد ساعات ومن قبل أيام كانت أى ساعة ما هو الزمن؟ إنه ما يطوى الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها وعندما ينتهى القلم من هذه السطور يكون الزمن قد طوى فكرا عاش السطور، ودما أحرقته، وكيانا عانته وعاناها، وماذا تكتب السطور؟ هل تستطيع أن تعبر عن وجدان يعيش منذ ثلاثة أيام ذكريات عشرين عاما مع كامل الشناوى. ما هو الوجدان؟ لا أعرف آلاف الأشياء لا أعرفها فى الحياة وبعد الحياة ولكن الوجدان قادر أن يلغى الأزمنة والمسافات أنه يجمعنى مع عشرين عاما فى هذه اللحظات أنا أفكر إذن فأنا موجود وأنا موجود إذن فأنا أفكر أنا موجود الآن لابد أننى كنت موجودا قبل الآن بدأ وجودى أنا الفرد عندما خرجت من الأحشاء أصرخ بدأ وجودى أنا الإنسان منذ ملايين السنين أب واحد أم واحدة. ثم قتل الأخ أخاه وعرفت الشرور والأطماع، واختار كل رجل أنثاه أو أختارت كل أنثى رجلها، وعرفت الحب والأمل، وتوقف النبض فلم أعرف شرا أو حبا لست أدرى، ربما عرفت ربما عرفت أنا الروح بعد أن انسلخ من القلب شئ ولكن روح حبيبى لم تبح بشئ اختفت وكيف اختفت وهى لم تظهر أبدا أننى أرى جسدى وجسد الانسان ألمسه، أتحسسه، ناعم الملمس، خشن غليظ يعرق يبرد، يتألم، ويتوجع، يشتهى أنه يذبح الطير يجوع ويشبع إلى التراب يعود ولكن أين روحى؟ تحلق فى كل الآفاق.

هل صحيح؟ أنها باقية وأنا لم أعد باقيا هل صحيح؟ من يجيب؟.. أنا لا أسمع أحدا أسمع ولا أسمع أنا موجود هذه اللحظة لحظة كتابة هذه العبارة والعبارة التى تليها أنا موجود لأننى مازلت أكتبها قد يتوقف القلم قد

تقف حـيـاتـى عند هـذا السـطر، ولكننى أكـملت السطر أريد سـطرا آخـر سطورا أخرى... ما أكثر ما أريد لا أعرف ما أكثر وما أجمل أو ما أبشع.. لا أعرف وكيف؟ أعرف؟ ما أشقانى بل ما أغبانى لأننى أريد أن أعرف دائما لماذا أريد؟... لأننى موجود؟.. لا.. لأننى أنسى أننى قد لا أكون موجودا.

التليفون يدق رنينه فظيع كأنه أجراس سجن كأنه إنذار حرب ماذا تقول... مستحيل... ماذا تقول... كامل... البقية فى حياتك، ولماذا بقية لحياتى... لعينة هذه الحياة... غادرة خائنة.

سأردد لها يا كامل ما صارحتها أنت به...

دمــــــرتــنــى لأنــنــى

كـنت يـومـــا أحـــبـــهـــا

وإلــــى الآن لـــم يـــزل

نـابـضــا فــيـك حــبــهـــا

لـــســت قـــلــبـــى أنـــا إذن

... إنما أنـت قـلـبــــهــــا..

نعم للحياة قلب نعم كان لحياتنا قلب كان لحياتنا كامل الشناوى، أنا أكتب الآن خبرا للجريدة يا لتفاهتى، غدا هناك دائما من سيكتب أخبارنا، موت كامل الشناوى أصبح خبرا للصفحة الأولى. لا تنسوا الصورة وما قيمة الصورة صاحبها تركنا إلى الأبد، عرف ما لم نعرف بعد عرف الموت، فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة..

وذهبت كالمجنون إلى المستشفى لألقى الموت.. الدنيا ظلام.. دموع كل

شئ بشع. مخيف أننى خائف..

وأرى صديقه الذى كان يستعد للاحتفال بعيد مولده بعد أيام.. كما اعتاد أن يفعل منذ سنوات أراه ولا أراه شئ ينهنه فى الظلام إنه يبكى والأخوة يبكون والجدر والأبواب تبكى ما أمامنا بقايا من بقاياه حقيبة فيها ملابسه. كتاب مغلق. ساعة وقلم. وجسد مسجى الهمس ينزف كالجراح. الصوت يعصف كالرياح والسهم يزحف بالصباح إلى المساء وبالمساء إلى الصباح ثم ماذا يا دهر؟... هل من جديد؟... هذا ما قدر القضاء علينا.

واجتمعنا حول المقبرة حول التراب وكأنه معنا شجرة صفراء بلا ورق، فروعها جافة لعلها بكته قبلنا بكل ماء دموعها، واجتمعنا حول المقبرة حول التراب وكنا شجرة واحدة صفراء وكنا فروعها الجافة.

وافترقنا على الأرض. وسنفترق يوما عن هذه الأرض. إلى لقاء يا كامل أجبنى إذا كنت تسمعنى أجبنى إذا كنت لا تسمعنى.

كان قلب كامل الشناوى قلبا كبيرا عاش بالحب وللحب يغرد له أجمل أغاريده وأعذبها.

أليس هو القائل:

أنا أهوى الجمال فى حيثما كان

حيا، أو ثائراً أو رزينا

أنا أهوى الجمال فى ظلمة الليل

يثير الحنين، والشجو فينا

فى حديث كالوحى، أولغه الحب

وكان هذا القلب العاشق يتسع للإنسانية كلها... أحب وأعطى، ولم يأخذ إلا الأسى والأنين..

كان بسمة جميلة يثير الابتسام والفكاهة فى كل مكان يحل فيه رغم أحزانه الدفينة، وأساه العميق...

وأثناء حياته عرف الكثير وقدم يد المساعدة للعديد من المواهب الجديدة فى كل مجالات الأدب والفن..

وعندما رحل كامل الشناوى عن الحياة بكاه الأصدقاء والتلاميذ والملهمات... وأخذوا يسترجعون لمحات من إنسانيته الكبيرة، وقلبه الذى اتسع للجميع، وروحه المعطاءة وأحسوا حينئذ بمدى الخسارة الفادحة التى ألمت بهم برحيل هذا القلب المعطاء الكبير الذى ظل كشجرة وارفة الظلال تخفف عمن حوله هجير الحياة، وقسوة الواقع وأشواك الطريق وشرع بعض أصدقائه فى استرجاع بعض ذكرياتهم عنه ولياليه التى لاتنسى.



الفصل الخامس

كامل الشناوى الإنسان

أيها اللائمون قلبى

على الحب رويدا

فما عسى تبتغونا

أسلو عن الجمال

وقلبى عاش للحسن

عاشقا مفتونا

كامل الشناوى

شظايا شاعر

ولما كان كامل الشناوى واسع الاتصالات، كثير الأصدقاء، يتسع قلبه للجميع، وقد عرف الكاتب الصحفى أنيس منصور الشاعر كامل الشناوى عن قرب وعرف الكثير من حياته وغرامياته وليالى عذابه فسماه «شاعر الشظايا» وقال عنه(*):

«لم أر البهاء زهير وحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وإمام العبد وعبد الحميد الديب، ولكنى رأيت وسمعت وأحببت كامل الشناوى، لم أعرفه شاعرا ولا محدثا ظريفا ولكن الصدفة جعلتنى أعرفه صحفيا... أهون ما فيه...»

فقد كان كامل الشناوى محدثا ممتعا.. تعرفه لحظة واحدة، فكأنك عرفته طول حياتك.. هو الذى يختصر المسافة ويدخل فى حياتك..فى عقلك وقلبك.. فإذا به جزء منك وأنت جزء منه.. هو ضرورى لك، وأنت ضرورى له، هو يعطيك هذا الاحساس .

ومع كامل الشناوى لا تملك إلا أن تحبه جدا أو تحبه بحساب.. أو تحبه على حذر... ولكن أنت تحبه... أما حبه لك فهو «جاهز» موجود دائما، سواء عرفته يوما أو ألف يوم.

«عرفت كامل الشناوى سنة ١٩٥٠، وعملت معه محررا فى «الجريدة المسائية» التى عاشت ٤٤ يوما، وبعدها انتقلنا معا إلى «الأهرام» وإلى مجلة «النداء» وعندما ترك الأهرام ذهبنا معه إلى «أخبار اليوم» ونسينا

(*) أنيس منصور، عاشوا فى حياتى، القاهرة.

أن نقدم استقالتنا أو شكرنا للأهرام، فعلنا ذلك فيما بعد فقد كان يكفى أن يتقدمنا كامل الشناوى لنكون معه أو وراءه... إنه كامل الشناوى، صديقك وأخوك الأكبر المتحدث بلسانك...

هو الذى يحدد لك المرتب، وهو الذى يطلب لنا الإجازة والعلاوة.. وأنا وغيرى وكثيرون يدينون له بكثير من الفضل ـ تشجيعه الأدبى فى كل وقت..

وأنا لم أر كامل الشناوى طالبا أزهريا.. لم أره بالعمامة.. بعض الزملاء عرفوه وزاملوه، ورأوا شخصية قلقة فى الجبة والقفطان، أما نحن فقد رأيناه أكثر قلقا فى الجلباب وكان بدينا يأكل كثيرا ويشرب كثيرا وينام طويلا ويصحو أطول.. كل شئ عنده بإسراف..

يشرب القهوة طوال النهار، ويبلع كميات من الحبوب المنومة ليقضى على مفعول القهوة.. فإذا صحا من نومه راح يصب القهوة ليزيل أثر المنومات. .فهو ـ هكذا ـ يصحو بالقوة وينام بالقوة.. وهو مشدود دائما إلى اليقظة التى يحبها والنوم الذى يعشقه.

وكل لحظة عنده هى لحظة يقظة ولحظة نوم أيضا.. فقد نام بعمق وأنت تتحدث إليه، ويصحو تماما بعد لحظات، أنه يتقلب على حافة سيف يفصل بين عالم النور وعالم اليقظة وهو وحده القادر على أن يحقق هذه المعجزة اليومية..

وكان أنيقا فى ملابسه... فهو يرتدى أحدث القمصان والكرافتات، وفى جيبه أفخم الولاعات... وكل ما يملكه كامل الشناوى من الممكن أن يهديه لأى أحد فى أى وقت.. وهو حريص على العملات الورقية الجديدة... والأقلام الباركر الذهبية التى لم يكن أحد يعرفها، وكان يكتب على ورق صغير وكان خطه رديئا، وكان يستطيع أن يكتب وسط الضجيج وكان يتعب فى الكتابة، نثرا أو شعرا بل كان شاعرى التعبير دائما، أنيق

العبارة النثرية فخم التراكيب الشعرية.

وهو مثل كل الشعراء الذين ينظمون قليلا، لا نعرف له مقدمات، فلا نعرف أين بدأ ولا كيف؟ فهو من أسرة من علماء الأزهر.. وكان المقدر له أن يكون واحدا منهم.. ولكن روحه القلقة وموهبته الإبداعيه، وخفة دمه، وزحمة الناس حوله وحرصه على أن يكون حديث الناس، وأن يكون الناس حديثه، جعله يتجه إلى العمل الأدبى والصحفى.. ثم الصحفى والفنى والإذاعى والغنائى.

وأنا لا أصدق الكثير مما يقوله الشعراء.. لأنهم يتغنون بالعذاب والهوان، ويجدون لذة فى ذلك، ولو حاولت أن تمد يدك لواحد منهم فإنه لن يطاوك... وسوف يسخر منك... لأن الشاعر لا يريد علاجا لعذابه، بل عذابه هو العلاج.. وشقاؤه هو الشفاء، ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوى ألف مرة عندما يقول:

أنا عـــمـــر بلا شـــبـــاب !!
وحـــيـــاة بـلا ربـيـع !!
أشـــتـــرى الحب بالعـــذاب
أشـــتـــريه فـــمن يبـــيع ؟!

ويتردد هذا المعنى فى كل قصائدة القليلة القصيرة، وهو الخليط الذهبى فى تأملاته النثرية، وإذا عرفته عن قرب، أيقنت أنه لم يقل إلا الحق وكل الحق ولا شئ إلا الحق، وكان يرهقنا بالسهر الطويل، وكان يغضب إذا نحن تركناه وحده أى تركناه مع عشرين آخرين، فهو حريص علينا جميعا ينتقل بنا من مطعم إلى فندق إلى كباريه إلى بيت أحد الفنانين: من عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو غيرهم

من الفنانين والممثلين الكثيرين ولكنه يفضل أن يكون على راحته فى أى مكان آخر...

فيكون هو المتحدث الوحيد... أو يكون هو الساخر الأوحد... ويكون ضحاياه واحدا منا، أو نحن جميعا... وكان يعيش الليالى الطويلة بالمقالب التى هى حديث المدينة.

فى إحدى الليالى كان موعدنا أن نتناول العشاء فى بيت محمد عبدالوهاب، وتوقفت السيارات عند أحد المحلات ونزل كامل الشناوى واشترى لنا جميعا علب سجائر صغيرة، وبعد العشاء تحدث كامل الشناوى عن انعدام الشخصية عند الشباب وضرب مثلا لذلك: إننا ندخن نوعا واحدا من السجائر... مع أن هناك ألف صنف!، ويظل يضحك ونضحك.. وفى اليوم التالى... تتجدد المقالب..

* * *

وكامل الشناوى هو الذى أحيا ليالى هيلتون ـ كافتيريا هيلتون ـ فقد كانت هذه الكافتيريا هى الغرفة الوحيدة المضاءة ٢٤ ساعة واتجهت جميع أقلام مصر إلى هذه الغرفة تتحدث عن المجتمع وعن الفتيات الجامعيات اللاتى يعملن جرسونات.. ويتقاضين بقشيشا كبيرا... ثم اختفين فقد تزوجن... وكل الصحف تتحدث عن الجرسونة الجميلة التى تعثرت وسقطت منها الأكواب... أو تعثرت فوقعت هى على صدر أحد أصحاب الملايين الذى تزوجها بعد ذلك..

والناس فى الكافتيريا أشكال وألوان ولغات وأحجام ومن كل الدنيا وكامل الشناوى هو صياد الليالى وغطاس هذا المحيط.

أعجبته فتاة لها عينان جميلتان فكان يقول لها: عينك توجعنى! ولم

تفهم الفتاة هذا المعنى فكانت تقول له، مفسدة المعنى الجميل: إنها عينى أنا ولابد أن توجعنى أنا..

فيقول لها: ولكنها توجعنى أكثر!

فلا تفهم فيرد عليها: إن الله سبحانه وتعالى وضع كل عظمته فى عينيك ولم يترك فى رأسك عقلا يفهم هذه الحكمة!

ولكنها لم تفهم يقول كامل الشناوى مرة أخرى:

مــــرت بـنـا كـــالطيـف تـســـألـنـا..

مــــاذا نـريـد، فلـذت بـالـصـــــمـت

ودنـت لـتـــــســـــألـنـى عـلى حــــدة

عـــمـــا أريـد.. فــقـلـتــهـــا: أنـت !!

* * *

غـــضـــبـت وألـقـت نـظـرة نـزعـت

قـلـبـى وشــــدتـه إلـى فـــمــــهـــا

يـالـيـــتـــه يـقـــوى يـقـــبـلـهـــا

يـالـيـتـــه يـنـســـاب فى دمـــهـــا!!

وأردت أرضـــيـــهـــا، فــقـلـت: لـهـــا:

هـل تـعـــرفـــيـن.. ومـن أكـــون أنـا؟

أنـا يـا صـــبـــيـــة شـــاعـــر هـرم

قـد جـاء يـســتـوحى الـشـبـاب هـنـا..!!

* * *

أريد الهـــامـــة جـــديدة

بقـــدر مـــا أنظم القـــصـــيـــدة

* * *

فـــافـــتـــر ناظرها ومـــبـــســـمـــهـــا

وقـــصـــيـــدتى مـــا زلت أنظمـــهـــا

وأظل طول العـــمـــر أنظمـــهـــا !!

حتى الأستاذ العقاد الجاد الصارم كتب عن كافتيريا هيلتون التى غيرت وجه الحياة الليلية فى مصر، وكان كامل الشناوى يتندر قائلا: إن أول مكالمة تليفونية بين الرئيس السوفييتى والرئيس المصرى قد تمت بشأن هذه الفتاة الجميلة.. فقد وجد رواد الفضاء السوفييت صعوبة فى الهبوط إلى الأرض فطلب إلى الرئيس عبد الناصر أن يستأذن هذه الحسناء فتنظر إلى السماء وعلى ضوء عينيها هبط رواد الفضاء إلى الأرض سالمين.

وكان يقول عنها: من شدة أدبها إذا فتحت درج مكتبها، فأنها تدق عليه أولا!

وكان يشغلنا وينشغل كثيرا بكل وجه جديد وكامل الشناوى كان شاعرا طول الوقت، صحفيا بعض الوقت، سياسيا نادرا فهو رومانسى متمرد...

ونحن نعرف كل اللاتى أحببهن كامل الشناوى، ولكننا لم نناقش فى ذلك الوقت هل واحدة منهن فى وزن وجمال وروعة الذى قال؟ هل نجاة الصغيرة وفايزة أحمد ونور الهدى؟

أن أحدا لا يسأل الشاعر من هى التى أحبها، ولا ما اسمها ورسمها؟ أو هل مديحة يسرى فى جمال الشعر الذى قاله العقاد.. أو «مى زيادة»

فى روعة ما أبدع مصطفى صادق الرافعى نثرا وشعرا.

لكن التى أحبها العقاد وطه حسين ولطفى السيد وسلامه موسى وجبران خليل جبران ومصطفى عبد الرازق ومحمد عبد القادر حمزة ـ لا أظن مى زيادة هذه السمراء الفلسطينية السورية اللبنانية الأوروبية جميلة إلى هذا الحد الذى يسحر أكبر عقول زمانها، ولكنها وحدها تعذبت بهم ودخلت مستشفى العصفورية للأمراض العقلية فى لبنان.

ولا كانت ليلى العامرية ولا دوقة وندسور ولا إيفا بيرون عشيقة وزوجة رئيس الأرجنتين.. ولم ير واحد منا شيئا واحدا مما وصفه الشعراء:

ولا رأينا الأقمار التى يصنعونها.. ولا الجبال ولا الأنهار.. ولا الأسود ابتداء من الشاعر عنترة العبسى حتى الشاعر شوقى أمير الشعراء.

ولا يصح أن نطلب إلى الشعراء أن يقدموا لنا صور معشوقاتهم فنحن نطلب منهم المستحيل فالمعشوقة من صنعه ومن خياله وهو يصنعها ويتعذب بها ويعبدها وإذا رآها فى الطريق، فلن يعرفها لقد عايشها فى خياله ولكنه لم يجلس إليها، لا أكل ولا شرب ولا نام وإنما هو نحتها صنما ثم خر ساجدا لها.. وهو فى الحقيقة عاشق لفنه ساجد لنفسه.

يقول كامل الشناوى:

كونى كما تبغين

لكن لن تكونى..!!

فأنا صنعتك من هواى، ومن جنونى..!!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون..!!

أما أنه صنعها.. فهذا صحيح.. وأما أنه قد شفى بعد ذلك فليس

صحيحا..لأن الشاعر لا يريد أن يبرأ من الشعر أى يكون بريئا من تهمة الشعر، وأن يشفى عذابه أيضا!

ويقول كامل الشناوى أيضا:

فـرأيت أنك كنت لى قـيـدا
حـرصت العـمـر ألا أكـسـره
فـكـسـرتـه!

إن كان الحب ذنبا، فإنه لا يطلب من الله أن يغفر له هذا الذنب ولكن المحبوبة غفرت ذنبه.. وهذا ذنب وجريمة، لن يغفرها!.

وأنا لا أصدق كامل الشناوى حينما يقول ويعيد ويزيد هذا المعنى:

دمـرتـنـى لأنـنـى
كنت يـومـا أحـبـهـا
وإلـى الآن لـم يـزل
نـابـضـا فـيـك حـبـهـا!؟
لـسـت قـلـبـى أنـا إذن!!
إنمـا أنـت قـلـبـهـا!!

لأنه ما يزال وسوف يبقى يحبها، ويحب العذاب من أجلها ولا أصدقه أيضا حين يقول:

لـسـت أشـكـو مـنـك
فـالـشـكـوى عـذاب الأبـرياء!!
وهى قـيـد ترسـف العـزة فـيـه والإباء!!

أنـــــا لا أشــــــكـــــو

فـــــــفـي الـشـكـوى انـحـنـاء!!

وأنا نـبض عـــروقى كـــبـــرياء!!

جـــرأتى راحت ولا أعـــرف أين؟

بـسـمـتى ضـاعت ودمـعى بين بين!

الهـوى خـجـلان دامى الوجنتـين!

وحنينى لك مكتــوف اليـــدين!

أنـــــا لا أشــــــكـــــو

فـــــــفـي الـشـكـوى انـحـنـاء

وأنا نـبض عـــروقى كـــبـــرياء

ولكن أصدقه وهو يقول:

لا وعـــينيك مـــا سلوتك عـمــرى

فـاســتــريحى وحـــاذرى أن تـريحى

وهو يقول أيضا:

آه مـنـى أنـا لـم أدرك مــــــداهـا!

آه مــــــــــــــــــــــــنـى

هـى لـم تـدرك مـــــــدايـا!!

حطمـتنى مـثلمـا حطمـتـهـا

فـهى منى... وأنا منهــا.. شظايا!!

أما أنه كان شظايا فصحيح، أما أنها أو أنهن، كانت شظايا، فليس صحيحا!

ولكنه هو الذى توهم ذلك!

ويعود إلى هذا المعنى مرة أخرى فيقول:

قـــد خلت منك حــيــاتى

وخلت منى حــــيــــاتك

مـــــــا نـراه منـك..

أو مــــنــــــى

رفـــــاتى... ورفــــاتك!! *

* * *

و لا حتى هذا المعنى.. فهو شظايا ورفات كامل الشناوى، ولا شك فى ذلك بينما كل واحدة من التى أحبهن كامل الشناوى عاشت فى صحة وعافية، وكانت تروى من نوادر كامل الشناوى على أنها جزء من الزحام فى موكبها.

فأضاعت الرجل، الذى كان وحده موكبا... وكان هو المشاة والمحتفى به، فهو الذى صنع الموكب، شكله وموضوعه ثم صدقه وإن لم يكن له أى هدف، يكفى أن يحتشد ويتزاحم ويدور حول كامل الشناوى شاعرا معذبا باليقظة والنوم، معذبا للناس ومعذبا بهم..

وكان كامل الشناوى حاد اللسان جارح النكتة، وهو ضحية الناس فهم يريدونه أن يضحك ويثير ويهز ويوجع ولذلك أوجعنا بقدر ما أضحكنا...

وأذكر أننى كتبت عنه مقالا قلت فيه: إن كامل الشناوى يدغدغ

أصدقاءه بسكين.

ووجدت الأستاذ محمد حسنين هيكل يقرأ المقال للرئيس جمال عبد الناصر، ويضحك..

ولما عرف كامل الشناوى كانت أول قطيعة بينه وبينى..

وقد أحزننى ذلك مع أننى لم أفعل أكثر من أننى استعرت أسلوبه فى مداعبة الناس ولكنه لم يطق أن يفعل به أحد ذلك.. وفى إحدى الليالى شرب كامل الشناوى كثيرا وراح يبكى على الوفاء والاخلاص وكنت المقصود بذلك مع أننى لم أنزع من قلبى مثقال ذرة من حبه والامتنان له، ولكن أكثر الساخرين الجارحين، لا يحتملون أن يفعل بهم أحد ذلك... فمثل هذه الأسلحة يجب أن تكون حكرا عليهم!

وقد تعبت كثيرا من الاعتذار له مع أن الذى قلته ليس شيئا خارجا ولا تجاوزت حدود الأدب ولا حتى الحقيقة ولكن أن يضحك جمال عبدالناصر لذلك، وأن يكون هو نكته رئيس الوزراء - هذا كثير وأن أكون أنا السبب هذا كثير جدا..

مع أن نصيبى من مداعبات كامل الشناوى كان كثيرا جدا، فهو قال عنى:

أننى إذا ذهبت لدورة المياه دقيقة فلكى أقرأ ثلاثة كتب وكان يسألنى عن سيارتى فأقول له: أنها عند الميكانيكى!

فيعود يسألنى: كم تكلفك من التاكسيات!.

وكان يقول إننى أبحث عن سيارتى كل صباح، فأجدها تلعق البنزين من السيارات الأخرى!

وكان لكامل الشناوى شعر سياسى مثل مقالاته السياسية، يجب ألا ننظر إليها بجدية، وإنما هى رائعة فى النظم وفخامة فى الصياغة ولكن

كامل الشناوى كان سياسيا مضطرا، وكان كثيرون كذلك.

وكما أننا لا نسأل الشاعر عن معشوقته ولا أن يعرض علينا صورتها، فكذلك قصائده السياسية مثل مطلع «نشيد الحرية»، يقول:

كنت فى صمتك مرغم　　　كنت فى حبك مكره
فتكلم، وتألم　　　وتعلم كيف تكره

فقد كنت أروى لكامل الشناوى حكاية كنت مرغما على سماعها وروايتها وأن أكون طرفا فيها ولم تكن مما يسعد كامل الشناوى فقد كان يعمل فى جريدة الأهرام فى سنة ١٩٥٠، ولم يكن على وفاق مع بعض الزملاء الكبار، وكانوا يحاولون إبعادنا عنه، والتفافنا حوله، وفى إحدى المرات كان لابد أن أذهب وآخرون معهم إلى غداء خارج القاهرة وفوجئ كامل الشناوى بأننا سوف نتركه وحده.

ودار حوار طويل ولم يكن كامل الشناوى يقبل المرونة، ولا أن يمسك أحد العصا من وسطها فأنا إما معه وإما عليه إما هم وإما هو فقلت مداعبا: أتكلم.. أتألم... أتالم! أتكلم... أتكلم... أتكلم وأتألم من جديد...

وبسرعة البرق غاب كامل الشناوى عن الوعى ليمسك ورقة وقلما ويكتب مطلع نشيد حرية مصر كلها، لا حرية واحد من موقف حرج!

وكذلك كل قصائد الشعراء فى الغزل والصداقة والكفر بالحياة والحياة والسياسة إنها تجئ مثل أكبر الحرائق من عود كبريت صغير! وكان الشاعر الألمانى ريلكه يقول: إن المعانى تسقط عليه كما تسقط الأمطار من السحب هذه السحب تكونت قطرة من بلاد بعيدة ومرت على الجبال وعلى الوديان وعلى المدن وتزاحمت فيها القطرات ثم سقطت على شاعر ما فى مكان ما كيف حدث ذلك؟ إن هذا ما يحدث!

وكامل الشناوى مثل كل الشعراء الرومانسيين، ولا يريد إلا أن يقول بل ليس بحاجة الى أن يجد سببا، أنه كالبلبل يغنى يالغريزة ويبكى بالغريز..

فهل لو ظهرت حبوب «منع الحمل» فى القرن السابع عشر فى أوروبا وفى الجاهلية عند العرب لكان قد اختفى الرومانسيون وشعراء الغزل والأدب العذرى!

لا أظن ذلك فليس جنسيا ما يريده الشعراء فما أيسر الجنس ولكنه الجمال - الجمال يرونه ويلمسونه بعيونهم ثم الجمال الذى يصنعونه لأنفسهم أى الإبداع والخلق فالشاعر ليس صحيحا أنه عابد لغيره، وإنما هو عابد لنفسه فالشاعر لا يرى جميلة أروع من جميلاته ولا يرى مخلوقا أعظم من مخلوقاته فإن لم يكن ذلك عبادة لذاته فهى شئ من ذلك..

بل أن الشاعر يحتضن حبيبته ويذوب ويذيب ولكنه يتغنى بالتى بين يديه كأنها ليست هناك أو يستشعر غيابها، ليشتاق إليها ويبكى على بعدها مع أنها لحم ودم وأنفاس وعطور بين ذراعيه.

ولو استبعد شاعر واحد كلمة «أنا» من قصائده لم يكن شاعرا فالشعر «ترجمة ذاتية» كتبها عاشق لنفسه، يريدنا أن نصدقه ولكننا لا نصدقه، ولكن عندما نصدقه أو لا نفعل ذلك فإننا نصفق له فما أجمله كاذبا وما أروعه صادقا، وليس من الأدب ولا من الفن ولا من الشعر أن نقول له: قف من أنت.

وكلنا أصدقاء كامل الشناوى يعرف من التى يحبها بل كان هو يدلنا عليها ولم نكن نطابق بين ما نراه فى الحقيقة وما نراه فى الخيال ولكنه يراها هكذا ويعبر عنها هكذا وهذا هو الفن!.





الفصل السادس

القصيدة القاتلة!

ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقى إليك؟

ماذا أقول لأضلع مزقتها خوفا عليك؟

أأقول هانت؟! أأقول خانت؟

أأقولهـــا؟

لو قلتها أشفى غليلى

ياويلتى.. لا، لن أقول أنا،

فقولـــى..!

كامل الشناوى

كان كامل الشناوى شاعرا عاشقا حساسا يعيش بأعصاب متوترة تنفعل بكل ما يدور حوله، خاصة الجانب العاطفى...

فقد كان يعشق الجمال، ويحب المرأة وحينما يحب كانت كل ذرة فى كيانه تنفعل بتلك العاطفة، بكل ما فيها من مد وجزر، وحينما كان يفجع بظروف هجر أو غدر كان يشعر بالدنيا تميد تحت أقدامه، ويفقد توازنه، ويصبح معلقا بين الأرض والسماء.

وكانت أكبر تجربة فى حياته هى حبه للمطربة «المينيون» التى أحبها بكل كيانه وبذل لها كل مشاعره وعواطفه وشعره ورتل فى محرابها أجمل أناشيده الغنائية.

وعندما اكتشف غدرها شعر كأن هناك نصلا حادا يخترق صدره وكانت مأساة النهاية!

وقد تناثرت حكايات كثيرة عن هذا الحب المستحيل فى حياة كامل الشناوى وكيف صنع كامل لحبيبته المطربة تمثالا من الوهم الجميل تعبد فى محرابه وقدم دموعه ونبضات قلبه قربانا لهذا الحب لكن دون جدوى حتى اكتشف الوهم الكبير الذى حطم قلبه وكان أحد شهود العيان لنهاية تلك القصة.. صديقه الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين الذى روى لنا ما حدث فكانت هذه هى روايته لتلك المأساة العاطفية فى حياة كامل الشناوى:

كان الشاعر[1] كامل الشناوى فى شبابه يرتدى العمامة والجبة

(١) مصطفى أمين/ شخصيات لا تنسى/ دار المعارف/ ١٩٨٨.

والقفطان وكان طالبا فى الأزهر، يهرب من حى سيدنا الحسين، حيث المساجد والمآذن والدروس الدينية ويذهب إلى شارع عماد الدين حيث المسارح ودور السينما وصالة بديعة .

وكان منظر كامل عجيبا بعمامته الكبيرة وجسمه الضخم وهو يجلس فى قهوة الفن بشارع عماد الدين بين كبار الممثلين وكبار الممثلات وكبار النقاد والصحفيين.

ولم يلبث كامل حتى خلع الجبة والقفطان وارتدى الجاكت والبنطلون، وترك الأزهر الشريف والتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية، ثم هجر دروس القانون كما هجر دروس الدين وقرر أن يعيش شاعرا فنانا يعيش فى بيوت الشعر وفى دواوين الشعراء.

وكان أبرز صفاته خفة دمه، يقول النكته فتصبح على كل لسان، كأنها أغنية من أغانى أم كلثوم أو عبد الوهاب!.

وفى وقت قليل أصبح من ظرفاء مصر مثل حافظ إبراهيم ومحمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وفكرى أباظه وسليمان نجيب.

وقد عرفته أول ما عرفته عندما كنت نائبا لرئيس تحرير مجلة روزاليوسف، وكان كامل يتردد على منزل السيدة روز بشارع الحواياتى بالقاهرة ويعطى ابنتها الطفلة آمال طليمات دروسا فى اللغة العربية .

وما يكاد ينتهى من الدرس عن المبتدأ والخبر وصيغة منتهى الجموع حتى يدخل غرفة الصالون فيجد عددا من محررى روزاليوسف وأصدقائها وينقلب درس اللغة العربية إلى ضحك ومرح ودعابة ومقالب ساخرة، كان يجيد تقليد أصوات الزعماء والوزراء والكتاب، وكم من مرة تكلم باسم شخصية معروفة فى التليفون، وهاجم شخصية أخرى فأغضبه

وأثاره، وقد صدق أن الشخصية المعروفة هى التى تتكلم وهى التى خرجت عن حدالأدب، وتقوم خصومة بين الشخصيتين قد تصل إلى حد الهجوم على صفحات الصحف، إلى أن يكتشف الاثنان أنهما كانا ضحية لمقلب من مقالب كامل الشناوى.

وكان لا يكره فى الدنيا إلا ثقل الدم، فإذا دخل مكتبه رجل ثقيل ضاقت به الدنيا وشعر بالاختناق واستنجد بعدد من الظرفاء من أصدقائه لينقذوه من الغرق فى الدم البارد والثقيل .

وفوجئنا ذات يوم فى أثناء الحرب العالمية الأولى بأستاذ فى الجامعة يقتحم سهراتنا فى جريدة الأهرام، وكان الأستاذ حجة فى عمله، جم الأدب، ولكنه كان لسوء حظه ثقيل الدم لدرجة أنه إذا دخل إلى فرح حوله إلى مأتم، وإذا سمع نكتة حولها إلى نظرية علمية فتموت الضحكات فوق الشفاه وحاول كامل أن يتخلص منه بكل الأساليب والوسائل، والرجل الثقيل يزداد إصرارا على أن يقاسمنا سهراتنا وينكد علينا الحياة وأخيرا رأى كامل الشناوى أن يرغم صاحبنا الثقيل أن يكون خفيف الدم، وأقنعه أن دكتوراه العلوم التى يحملها لا تساوى شيئا فى ذلك العصر، وخير له وأربح أن يكون دكتورا فى السحر والشعوذة ! ووعده بأن يكون كل محررى الأهرام مساعدين له وصبيانا فى عملية السحر والدجل، واتفق معه على أن يدعى أنه يستطيع إذا عرف تاريخ ميلاد رجل أن يعرف بعمليات طرح وضرب وجمع وقسمة اسم زوجته أو اسم صديقته أو اسم خطيبته.

ويدخل الضحية إلى مكتبى ويسأله الدكتور عن تاريخ ميلاده ثم يغادر الدكتور الغرفة وتسأل الضحية عن اسم زوجته أو خطيبته فيهمس بها فى أذنى، فأهمس بها فى أذن جارى، ويهمس بها الى جاره حتى يصل اسمها إلى المحرر الذى يجلس عند باب الغرفة، فيفتح الباب فى هدوء ويخرج

وبعد دقائق يقتحم الدكتور الساحر الغرفة، ويمسك ورقا وقلما ويكتب أرقاما يجمعها ويطرحها، ويضربها ثم يقول له: اسم زوجتك فاطمة!

ويذهل الضحية ويعجب من كفاءة الدكتور فى السحر وفى معرفة الغيب وكان كامل الشناوى يجلس فى بار اللواء، وكان الجنود والضباط الإنجليز يترددون على قهوة اللواء، وأشاع كامل بينهم أن هذا الدكتور ساحر عظيم فأقبلوا عليه يرجونه ويتوسلون إليه أن يذكر لهم أسماء خطيباتهم! ويأخذهم كامل إلى غرفته فى الأهرام ومعه الدكتور الساحر ويلعب اللعبة على الضباط والجنود. وخف دم الدكتور المشعوذ كثيرا، وحول مجالسنا من كآبة إلى مرح ومن جد إلى هزل، ومن مناقشات علمية جافة إلى ألاعيب حواة وشعوذة! ثم ضاق كامل بشعوذة المشعوذ الذى صنعه فأصبح يخبر الضحايا مقدما بحقيقة الدكتور المشعوذ فيشتركون معه فى اللعبة، ويضحكون على الدكتور بدلا من أن يضحك منهم!

وكان أصدقاء كامل المقربون ضحايا مقالبه، وقال له أنيس منصور يوما: «أنت يا كامل بك تزغزغ أصدقاءك بالسكاكين» وغضب كامل من هذه الحقيقة، وحاول أنيس أن يسترضيه فقال له: أننى أداعبك بأسلوبك وأتكلم بلغتك وأمزح على طريقتك ! ولكن كامل كان يحب أن يحتكر المقالب ويحتكر السكاكين، وكان قادرا أن يطلق لقبا على زعيم أو أديب فيلصق به اللقب الساخر طول حياته.

وكان كاتبا كسولا وصحفيا كسولا وشاعرا كسولا وعاشقا نشيطا، إذا كتب حذف وشطب ومزق عشرات الأوراق قبل أن يكتب ثلاثة سطور.

وإذا ذهب للقاء زعيم خطير تكلم كامل طوال اللقاء ولم يترك للزعيم فرصة ليقول لنا خبرا، كان بظرفه ولطفه وخفة دمه يحتل المجلس ويسيطر عليه، فيتحول المتكلمون إلى صامتين والمثرثرون إلى صاغين، وينتظر رئيس

التحرير نتيجة المقابلة الخطيرة إلى ما بعد منتصف الليل ثم يكتشف أن رئيس الوزراء هو الذى سكت وأن كامل الشناوى هو الذى تكلم!

وكان شاعرا رقيقا لو جمعنا شعره كله لما ملأ كتابا واحدا بينما كان لديه من الخيال والموهبة والقدرة على الخلق ما يجعله أشهر شعراء مصر.

وكان شحيحا فى أدبه متلافا فى ماله، يكتب وكأنه بخيل يكتب كمبيالة وينفق وكأنه مليونير له رصيد فى البنوك! والشئ الغريب أن كامل الشناوى كان مدينا لجميع البنوك فى مصر، ولم يترك مصرفا صغيرا أو كبيرا إلا واقترض منه وكتب له الصكوك والكمبيالات، حتى جاء يوم كانت الفوائد التى يدفعها للبنوك أكثر من مرتبه الشهرى!

وكنت تراه يقبض فى يناير مرتب شهر يوليو! لأنه سبق أن استدان مرتبات شهور فبراير ومارس وأبريل ومايو ويونيو! كان كريما إلى حد السفة لا يتردد فى أن ينفق كل مرتبه فى شراء ولاعة ذهبية وأربع كرافتات ومنديل حرير من صناعة باريس.

وكان يعتقد أن الناس أربعة: عالم يعرف أنه عالم، وهذا حكيم فاتبعوه وعالم يجهل أنه عالم، وهذا نائم فأيقظوه، وجاهل يعرف أنه جاهل فاضربوه وعلموه، وجاهل يجهل أنه جاهل، وهذا حمار فاركبوه!.

كان كامل مستعدا أن يركب كل حمار وكل غبى، وكل ثقيل الدم، وكل أحمق ويجد متعة لا حد لها فى الركوب، كان الذكاء يستهويه وكان الغباء ينفره، وكانت الموهبة تجذبه بينما الخمول العقلى ينكد عليه الحياة.

وكانت غدة الحب فى قلبه تفرز باستمرار! ما مر يوم فى حياته منذ عرفته لم أره غارقا فى قصة حب، وكنت أقول له أن قلبه كروايات سينما مترو فى تلك الأيام، كل أسبوع فيلم جديد! وكان يسمى الفتاة التى يعشقها

«آخر صيحة» فإذا مضى أسبوع على الحب بحث عن تاجر الأشياء المستعملة ليلقى فى جرابه بالحب القديم كما يرمى بالحذاء القديم!.

أحب مرة نجمة سينمائية فاتنة، وكنت أدخل مكتبة فيقول لى: «القاهرة نائمة الآن فلا ترفعوا أصواتكم حتى لا تستيقظ» وأفهم من هذا أنه سأل عن معبودته فى بيتها فعلم أنها لا تزال نائمة فاعتبر هذا دليلا على أن العاصمة كلها مستغرقة فى النوم! وإذا رآها مبتسمة عاد يقول لنا: كانت القاهرة تبتسم اليوم، الشوارع تبتسم والسيارات تبتسم والعمارات تبتسم، حتى إننى رأيت جنازة فى ميدان الأوبرا كان المشيعون يبتسمون والنعش يرقص!، وكانت المعبودة تقيم فى تلك الأيام بفندق الكونتيننتال بميدان الأوبرا!.

وأعظم هوايات كامل الشناوى كانت احتضان المواهب الجديدة، ودفعها إلى الأمام، والحماس لها، والإشادة بها، وقد سمعت اسم «عبدالحليم حافظ» لأول مرة فى حياتى من كامل، وقد كرره أمامى مائة مرة حتى أصبحت إذا رأيت كاملا بادرته بقولى: «ما هى أخبار عبدالحليم حافظ» ولما عرفت عبد الحليم جيدا وجدت أن كاملا كان صادقا فى وصفه محقا فى إعجابه به وكذلك كان الأمر مع الموسيقار بليغ حمدى.

وكان كامل متقلبا يحب ثم يكره ثم يحب من جديد، يصنع التمثال ويحطم الصنم، ثم يعود ليجمع الأنقاض ليبنى ناطحة سحاب، وكان مكتبه فى جريدة أخبار اليوم «الأم» التى تحتضن المحررين المبتدئين والفنانين الصغار والمواهب الناشئة، وكانت سعادته أن يرى هذه الزهور الصغيرة تكبر وتتحول إلى أشجار باسقة، ولم يكن يخشى أن يكبر صغيرا فيحتل مكانه وكم من صغار حملهم فوق رأسه فداسوه بأقدامهم، ونصرهم فخذلوه وشهرهم وحاولوا أن يدفنوه!

وكان ذوقه فى الحب غريبا، كان دميما ولا يختار إلا ملكات الجمال وكان ضخم الجثة ويصر أن تكون معبودته دقيقة قصيرة تكون معه رقم ٥٠ فيكون هو الخمسة المستديرة وتكون هى الصفر الذى على اليمين، وكان مخلصا أمينا فى حبه ولا يقع إلا فى هوى الغانيات المتقلبات الخائنات الغادرات! وكانت الفتاة التى تقف وحدها لا تستهويه ولا تلفت نظره، وإنما الذى يجذبه هو الزحام، فهو يحب المرأة التى حولها زحام شديد، فيحاول أن يشق طريقه إليها، ويدفعه من أمامه، ويوقف من بجواره، ويزغده من خلفه، إلى أن يصل إلى المرأة التى اختارها منهوك القوى!

وقد قلت له مره إننى ألا حظ أنه لا يحب السيارة «الملاكى» التى يستقلها وحده وإنما يحب السيارة «الأتوبيس» كاملة العدد فيتشعبط على السلم، أو يتعلق بالباب حتى يدفعه راكب آخر! فأنا لم أره أبداً جالسا مستريحا فى أتوبيس حب بل كنت أراه واقفا ينتظر أن يخلو مقعد ولا يجد محلا خاليا أبدا!

وكان كامل يقول: «إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد فأنا أحب الجمال فى الطبيعة والفن والأخلاق والمرأة».

وعشت معه حبه الكبير الأخير وهو الحب الذى أبكاه وأضناه وحطمه وقتله فى آخر الأمر، أعطى كامل لهذه المرأة كل شئ: المجد والشهرة والطبل والزمر والدعاية والشعر، ولم تعطه شيئا! أحبها فخدعته، أخلص لها فخانته، جعلها ملكة فجعلته أضحوكة، وقد كتب قصيدة «لا تكذبى إنى رأيتكما معا» فى غرفة مكتبى بشقتى فى الزمالك، وهى قصيدة حقيقية ليس فيها مبالغة أو خيال حتى إن الموسيقار عبد الوهاب سماها «إنى ضبطكما معا»!.

وكان كامل ينظمها وهو يبكى، كانت دموعه تختلط بالكلمات فتطمسها وكان يتأوه كرجل ينزف منه الدم الغزير وهو ينظم، وبعد أن

انتهى من نظمها قال أنه يريد أن يقرأ القصيدة على المطربة بالتليفون.

وكان تليفونى بسماعتين أمسك هو سماعة وأمسكت أنا وأحمد رجب سماعة فى غرفة أخرى، وتصورنا أن المطربة ما تكاد تسمع القصيدة حتى تشهق وتبكى وتنتحب ويغمى عليها وتستغفر وتعلن توبتها وكان فى رأى أحمد رجب ورأيى أن هذا منظر تاريخى يجب أن نحضره.

وبدأ كامل يلقى القصيدة بصوت منتحب خافت، تتخلله الزفرات والعبرات والتنهدات والآهات مما كان يقطع القلوب، وكانت المطربة صامتة لا تقول شيئا ولا تعلق ولا تقاطع ولا تعترض، وبعد أن انتهى كامل من إلقاء القصيدة قالت المطربة:

- كويسة قوى - تنفع أغنيها... لازم أغنيها!

وانتهت المحادثة التاريخية ورأينا كامل الشناوى أمامنا جثة بلا حراك وكتب إليها يلعنها ويقول: «لم يعد بيننا ما يغرى بأن أخدعك أو تخدعينى، فقد خرجت من حياة نفسى! لا تدهشى... فالحياة التى أحياها اليوم لا يربطنى بها إلا ما يربط الناس بحياتهم من أمل ويأس، أو راحة وعذاب إنها حياة لا أتحرك فيها، ولكن أتمدد كجثه وهى لا تضمنى بين أحضانها ولكن تلفنى كالكفن! فى استطاعتى الآن فقط أن أصارحك بحقيقة قصتى معك، لقد خدعتينى وخدعتك، خدعتينى بكذبك الذكى وخدعتك بصدقى الغبى.. ظللت سنوات أتوهم أنك تحبيننى، فجريت وراءك بقلبى الأبله ومشاعرى الحمقاء وخلال تلك السنين كنت أنتزع من نفسى خلجاتها وأقدمها لك فى آهة، دمعة، كلمة، قصيدة، وقد دفعك إيمانك بصدق عاطفتى إلى أن تمارسى حقوق حواء بقدرة وجدارة فغدرت بوفائى وضحكت من دموعى».

وسمع كامل الشناوى أن حبيبته المطربة الكبيرة عندما علمت بعذابه قالت لأصدقائها:

ـ مسكين كامل الشناوى... لقد دمرته الغيرة.

وكتب كامل يقول لها «صدقينى إذا قلت لك، أننى لست مسكينا، ربما كنت كذلك لو أننى استسلمت للوهم الذى علقنى بك، ولكننى قاومته ورفضت، وجعلت من كبريائى حصنا يحمينى منك، ومن قلبى! ولا شئ يقوى أن يدمرنى لأننى أحيا وما دمت أحيا، فإن العواطف التى تهب من حولى لا تزيدنى إلا قوة على مواجهة الأعاصير، أننى لست كثيبا من الرمل، تبدده حفنه من الهواء، ولكننى جبل لا أبالى العاصفة، بل أحتفى بها، وبدلا من أن تزمجر فى الفضاء أجعلها تغنى من خلال صخورى! وليس صحيحا أنى أغار من أى أنسان تعرفينه، فالغيرة لا تكون الا ممن تحبينهم، وقد عرفت .بتجرية أنك لم تحبى إلا ذاتا واحدة، ولا أستطيع أن أغار منها لأنها مختبئة فى ثيابك! إنك تحبين نفسك، وتغارين ممن يشاركونك حبها، بل إنك تناصبينهم العداء، ومن أجل ذلك عاملتنى كما لو كنت عدوك الطبيعى.. أحببتك فكرهتنى، قدمت إليك قلبى، فطعنته بخنجر مسموم»!.

ومضت المطرية تثير كامل الشناوى بأنها تعشق فلانا الطبيب، وتحب علانا المحامى، وتخرج مع ترتان المهندس!

وكتب كامل يقول لها «ليتك تعلمين أنك لا تهزيننى بتصرفاتك الحمقاء فلم يعد يربطنى بك إلا ماض لا تستطيع قوة أن تعيده إلينا أو تعيدنا إليه، كنت أتعذب فى حبك بكبرياء، وقد ذهب الحب، وبقيت لى كبريائى، كنت قاسية فى فتنتك، ونضارتك وجاذبيتك، فأصبحت قاسية فقط».

وكان كامل يحاول بأى طريقة أن يعود إليها، يمدحها ويشتمها، يركع أمامها ويدوسها بقدميه، يعيدها ويلعنها، وكانت تجد متعة أن تعبث به، يوما تبتسم ويوما تعبس، ساعة تقبل عليه وساعة تهرب منه، تطلبه فى التليفون فى الصباح ثم تنكر نفسها منه فى المساء، وكان يقول إنه لا يفهمها، وهى امرأة غامضة لا أعرف هل هى تحبنى أم تكرهنى، هل تريد أن تحبنى أم تقتلنى؟.

وكتب عنها يقول «أنا لا أفزع إلا من شيئين، آلام مرض لا أعرفه، وغموض امرأة أعرفها، وقد أتحمل آلام المرض، بأمل أو يأس، أما غموض المرأة فلا يجدى معها أملى فيها أو يأسى منها أن غموض الرجل يثير فيه ريبة أصدقائه فيبتعدون عنه، والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها، أن كل خلجاته، ونبضاته تظل تسأل فى حيرة عن سر هذا الغموض، إذا أبدت الرضى ظن أنها تخدعه، وإذا غضبت منه اعتقد أنها تكرهه وإذا كانت وحدها سعى إليها فيحس وحده أنه فضولى متطفل، ضيف غير مدعو ! واذا أقبلت عليه فكر فيما ينطوى عليها إقبالها من نيات ماكرة».

واستمرت لعنة الحب الفاشل تطارده وتعذبه، وكان يعتقد أن الهجر قتله وأنه لم يبق إلا موعد تشييع الجنازة! وكان يجلس يكتب كل يوم عن عذابه وكان يخيل إلى أنه كان يكتب كل يوم نعيه.

وفوجئت به يتردد على المقابر، ولم تكن هذه عادته، وسألته ماذا حدث فابتسم ابتسامه حزينة وقال: أريد أن أتعود على الجو الذى سأبقى فيه إلى الأبد..

وقد كتب يصف رحلته إلى المقبرة ويقول: «ما أعجب هذه الصحراء، كل شئ فيها يشبه الآخر الناس متشابهون فى حركاتهم والانقباض البادى فى مساحات وجوههم، القبور متشابهة، كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبلل الثرى، كلها يضم عظاما نخرة هنا تحت المقابر تساوت الأعمار، والقيم الشاب والشيخ، الذكى والغبى، من كان له مثل أعلى فى الحياة، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف! ووصلت إلى المقبرة التى تعودت أن أزورها فى أكثر من مناسبة، ففيها يرقد أحبائى الذين تركوا حياتى وذهبوا إلى حيث سنذهب مثلهم حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع فى محاجرى حاولت أن أرثيهم فلم تنطق منى إلا كلمات خرساء، وقفت فى خشوع، ثم جثوت فوق التراب الذى ضمهم بالأمس وسيضمنى غدا، وحنيت رأسى إجلالا للموت الذى احتواهم بين ذراعيه وبهاتين الذراعين

سيحتوينى يوما! أيها الموت: أنا لا أخافك ولكنى لا أفهمك فمن تكون؟ هلأأنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك؟ أم لتروى ظمأ الحياة؟ ما أنت يا موت وما الحياة؟ يا أسفى على أنى أعيش حياتى، ولا أعرفها، وألقى الموت دون أن أعرفه!

أيتها الصحراء يا مدينة القبور والموتى! إذا جئت إليك محمولا فى نعش فاستقبلينى بروحك الوديعة التى شعرت بها اليوم، عندما جئتك محمولا فى سيارة.

* * *

ومات كامل الشناوى ومضت السنون وقابل مصطفى أمين المطربة التى كان يعشقها كامل وقال لها: إننى كرهتك طول حياتى منذ قصيدة «لا تكذبى إنى رأيتكما معا»!

قال: إننى لم أحبه، هو الذى كان يحبنى إننى كنت أحبه كصديق فقط وطلب منى أن يتزوجنى فرفضت لأننا نختلف فى كل شئ أنا رقيقة وهو ضخم، أنا صغيرة وهو عجوز، أنا أجد متعة فى أن أجلس مع الناس ومتعته أن يجلس معى وحدى، أنا لا أريد أن يعرف الناس من أحب، وهو يريد أن تعرف الدنيا كلها أنه يحبنى!

قال لها: إن أصدقاءه يعتقدون أنك قتلته!

قالت: لا... أنه هو الذى انتحر!

سألها: تقصدين أنه انتحر حبا؟

قالت: بل انتحر غيرة!

وعلق مصطفى أمين على كلامها، ولم أصدقها طبعاً!.



عندما يعشق الشاعر السراب!

وهناك رواية أخرى أكثر تفصيلا لذلك الحب الذى كان أكبر حب فى حياة كامل الشناوى وهو غرامه بالمطربة الشهيرة التى كانت نوعا من الغزل الهروبى من طرف واحد هو طرف كامل الشناوى الذى كان يظن أن كل كلمة أو كل همسة أو كل إشارة من تلك المطربة هى إشارات إليه بأن هناك تجاوبا من الوتر الآخر لكن ذلك كان نوعا من الوهم الكبير الذى ظل يعيشه، وكان سببا مباشرا لتحطيمه جسديا ونفسيا ومعنويا حتى تحول إلى شظايا قلب، وحطام جسد.

وحول النهاية الدرامية لقصة الحب المأساوية الأخيرة تلك فى حياة كامل الشناوى يروى لنا تلميذه يوسف الشريف تفاصيل تلك النهاية التى حطمت قلب الشاعر العاشق وهو فى خريف العمر تحت عنوان: «القصة الحقيقية لخيانة المطربة الصغيرة للشاعر كامل الشناوى»، فيقول[1]:

«يكاد يجمع الذين عرفوا عن قرب الشاعر كامل الشناوى، أنه برغم القصائد الوطنية العديدة التى نظمها، إلا أنه يستحق عن جدارة لقب «شاعر الحب» الذى خلعه عليه عباس محمود العقاد، وذلك لأن الحب كان دائما طعامه وهواه ومحور حياته»!

وهو عندما دعا الشعب فى قصيدته الوطنية إلى كراهية الإنجليز «تعلم كيف تكره» فكأنما كان يحرض نفسه، ويحاول أن يجبرها على شئ لا تعرفه فهو قد حاول طوال حياته أن يكره ولم يستطع!

(١) الهلال، مايو ٢٠٠٤.

كان كامل يكتب فى كل أغراض الشعر، وصفا، ومديحا، وحماسا، ورثاء، لكن ظل الحب يستحوذ على غالب اهتمامه وإبداعاته الشعرية، ولأنه لم يتزوج قط، كان شعره أداته، ووسيلته، وملهاته التى يستشرف عبرها الجمال ويتنفس بها الحب، فاذا لم يسعفه الوحى والخيال شعرا، استعاذ بلمحاته الشعرية المنثورة، وهى رسائل الحب التى كان يبثها إلى أخر معشوقاته، وكان يكتبها تحت عنوان «ساعات» فى صحيفة الجمهورية التى كان يرأس تحريرها، وفى قصاصات أوراقه التى صدرت بعد وفاته فى كتاب بعنوان «حبيبتى» وعلى ما يبدو أن هذه الرسائل ظلت حبيسة مكتبه دون أن تطاوعه نفسه على نشرها فى حينها لأسباب خاصة مجهولة!



قلبه ساحة للانقلابات

يقول مصطفى أمين فى كامل الشناوى العاشق: «كان برغم بدانته سريع التنقل خاصة فى حبه وهواه، وقلبه مثل برامج السينما التى تتغير كل أسبوع، وكل رواية تعرض على شاشة قلبه هى «آخر صيحة» وهى «أقوى ما عرض حتى الآن» فإذا انتهى عرض الفيلم، ارتدى الفيلم الجديد نفس الثوب، وتخلى بنفس الأوسمة والنياشين، وفى الفترة التى كان يحب فيها كامل الشناوى، يصف محبوبته بكل الأوصاف الحلوة والنعوت الضخمة، ثم ينسدل الستار على المعشوقة فجأة وتحل مكانها المعبودة الجديدة، وهكذا كان قلب كامل الشناوى مثل جمهوريات أمريكا اللاتينية، مليئة بالانقلابات والتغيرات»!.

ولأن الإنسان مطبوع على الحب طفلا وصبيا وشابا وكهلا وشيخا لذلك عرف كامل الشناوى الحب فى كل دورات حياته تباعا، فحتى المطربة الصغيرة، وهى كانت أشهر محبوباته وآخر معشوقاته وهو فى معمعة الكهولة، نظم فيها شعرا ملتهبا مشبوب العاطفة، كما سبها نثرا صارخا كضربات ملاكم جبار! .

عن حبه الأول يقول: «لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول، كل ما أذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب، كان حبا ساذجا لم ينته إلى غير الشوق والنسيان، كانت تربطنى بها أواصر قربى، كنا نلتقى فى منزلنا كل يوم أحسست نحوها شعورا غامضا، وجدته يدفعنى إليها وفى الوقت نفسه يبعدنى عنها كنت أتمناها زوجة، ولكنى كنت أتهيب أن أهمس إليها بكلمة حب واحدة، كان الحديث يدور بيننا

قصيرا جدا، وحركت هذه الحادثة شيئا حلوا جميلا فى قلبى كنت نسيته لأن العيون حولنا كثيرة كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب وافترقنا ولما كبرنا التقينا مصادفة جمعتنا المفاجأة المدهشة فى منزل الأسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء كانت حبيبتى قد تزوجت وأنجبت، وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وأنا صبى، قصصت عليها شعورى زمان، وضحكت هى الأخرى من هواجس نفسى، وقالت إنها كانت تبادلنى نفس المشاعر والأحاسيس فى ذلك الحين ولكن الوقت قد فات، وهكذا دارت بى الأيام دورتها، وكما أحببت فى صباى أحببت فى شبابى وإلى الآن مازلت أتشبث بالحب ولم أكن فى شبابى سعيدا بالحب، ومن هنا يمكن الاجابة عن السؤال: هل أنا مع الحب شقى أم سعيد»؟!.

ذلك كان اعتراف كامل الشناوى يوما عام ١٩٦٠ حب الصبا المكتوم الذى ضاع، وشقاء شبابه بالحب فماذا بقى له من مؤهلات الحب ومشاعره فى كهولته؟

أن يضيع الحب فى مرحلة الطفولة والصبا، فذلك أمر مفهوم فى سيرة كامل الشناوى فربما كان السبب يرجع إلى بيئته الدينية ونشأته المحافظة فى الريف، وربما كان للبدانة والانطواء دخل فيما حدث ثم من منا لم يحب ولم يضع منه الحب فى بواكير العمر؟

ولكن كيف يشقى الإنسان بالحب فى مرحلة الشباب والفحولة، وإذا فشل مرة فى الحب أو أكثر فمن الطبيعى أن يواصل تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرهن من المحبوبات حتى يلتقى بالحب ويتواصل معه، لكننا فى حالة كامل الشناوى نكتشف أنه لم يع الدروس المستفادة من تجاربه، وأنه ظل يستعذب الفشل فى الحب أو التعلق بأوهام الحب!

يقول أنيس منصور: أنا لا أصدق كثيرا ما يقوله الشعراء لأنهم يتغنون

بالعـذاب والهـوان ويجـدون لذة فى ذلـك، وإن حـاولت أن تمد يدك لواحـد منهم فـانه لن يطاوعك وسـوف يسـخـر منك لأن الشـاعـر لا يـريد عـلاجـا لعذابه، بل عذابه هو العـلاج، وشقاؤه هـو الشفـاء ولـذلك فـأنا أصدق كامل الشناوى ألف مرة عندما يقول:

أنا عـــمـــر بـلا شـــبـــاب ... وحـــيـــاة بـلا ربـيـع

أشـــتـــرى الحب بـالعـــذاب ... أشـــتـــريه فـــمـن يبـــيـع



فتاة المعادى

الشائع عن كامل الشناوى فيما رواه عن نفسه، أن أول حب قاهرى فى حياته كان فى مقتبل العشرين من عمره وزمانه عام ١٩٣٠ ومكانه المعادى، واسم محبوبته مدموزيل «س».

كانت «س» آية فى الجمال والرقة، رقة العود والصوت والسلوك، لكنها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيها موسيقى وسحرا!

ذهب إلى خالها يتلقى على يديه دروسا فى اللغة الفرنسية استعدادا لدراسة الحقوق فى «السربون» بعد أن تيقن والده الشيخ سيد الشناوى أن ابنه فاشل لا محالة فى الاستمرار بالدراسة على غراره فى صحن الأزهر الشريف.

فلما التقى بالمدموازيل «س» عدة مرات انفردا، وبحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم فى الأزهر، لم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لا شرقية ولا غربية، لكنها مزيج حضارى فريد ونبيل، كانت قطعة من الفن والجمال والثقافة من الحقيقة والخيال، كلماتها تغريد، وسكناتها نسائم ونظراتها ضياء الفجر!.

من أجلها خلع العمامة من قلبه وعقله قبل أن يخلعها عن رأسه سمع منها لأول مرة عن نظرية «داروين» وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن وعلمته أصول الاتيكيت وفتحت أمامه آفاقا رحبه على دنيا جديدة!.

لم تخل مواقفه معها من طرائف ومآزق كان أول الأمر يسير معها فيسبقها ويسرع حتى تظل خلفه كعادة الرجال مع النساء فى عائلته، وإذا قابلها أحد معارفها ابتعد عنها، فتناديه فيأتى خجلا كأنه ضبط فى

موقف شائن!

ورأى الرجال فى عائلة «س» يقبلون أيدى النساء وفكر فى أن يقلدهم، وعندما التقى بها نسى نفسه وهو يقبل يدها، فهم برفع يدها على جبهته كما يفعل عادة مع والده ووالدته وعمه، لكنه أدرك حرج الموقف بسرعة وتوقف!.

وكامل الشناوى تغزل كثيرا فى محبوبة الصبا بشعر مزيف لا يعبر عن نفسه، كان فى جملته تقليدا لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى قصائد الشعراء، فهو قد شكا من الهجر وهى تلازمه، وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد سواه، بعث إليها بالسلام على جناح النسور وهى بجواره!

لكن ما أن افترقا حتى اختلى بنفسه وهو يسترجع السعادة والنشوة ساعات اختلائه بها، وذلك النور الذى كان يشع من ملامحها، وسحر حديثها ورقتها ويقول كامل الشناوى إن أول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشاعره الحقيقية كانت فى محبوبة المعادى المودموزيل «س»:

المعادى أو نفحة من هواها | تودع النفس فى شذاها الشجونا

المعادى فقد تركت فؤادى | فى رباها مشردا مجنونا



الغانية روز

على أن كامل الشناوى روى أنه هم بالزواج عام ١٩٤٥ وكانت المحبوبة إحدى قريباته وهى فى الوقت نفسه حفيدة الكاتب الصحفى الشهير محمد التابعى، وقد وصفها كامل الشناوى بكونها بارعة الجمال ورقيقة...خجولة... شديدة الأنفة... منطوية على نفسها...

وعندما أبرقت العائلة إلى التابعى تطلب موافقته وكان فى رحلة صيفية بالخارج، كان رده بالاعتذار عبر تأجيل الموضوع برمته إلى حين عودته.

ومرت شهور، وبينما كان التابعى وكامل الشناوى فى ضيافة السيدة أم كلثوم بمصيف رأس البر.. أختليا وكل منهما لديه ما يقول للآخر وبادر التابعى قائلا: تريد يا كامل أن تسألنى لماذا عارضت زواجك من «.....»؟

قال: نعم.

قال التابعى: أنت يا كامل مولع بالسهر طول الليل تقوم الليل كله وتنام النهار كله... فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل و.. وافقه على استبعاد فكرة الزواج!

وقد ظل كامل الشناوى يختزن بالألم ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه، وبعد عشرين عاما تذكر الفتاة التى كان يرنو إلى الزواج بها، وكيف اضطر أهلها إلى الإسراع بزواجها عندما أدركوا تعلقه بها وتعلقها به، وكتب قصيدة يقول فيها:

كل مـا أذكـره إنا انتـهـينا وتـولانـى الـضـيـاع

حـين أبصـرت الـوداع لا تـثـر حـولـى ضـجـة

فلقـد أصـبـحت زوجـة

ويروى أصدقاء كامل الشناوى أن أعمق قصة حب مكتملة الأركان خاض تجربتها فى السابعة والعشرين من عمره وهى التى أطلقت ملكاته الشعرية الرومانسية من عقالها العاطفى، وفجرت مشاعره المكبوتة، وأججت فيه عزائم الرجولة، فلم يعد يأبه لا بالتقاليد ولا بالشهرة أو المكانة الاجتماعية!

حدث ذلك عام ١٩٤٧ وكان لا يزال يملأ الدنيا أملا وشعرا عذبا حالما وكانت محبوبته غانية اسمها «روز» وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى.

كان قد ذهب إلى هذا المكان مع جمع من أصدقائه يستروح من عناء العمل الصحفى، فوجدها تتهاوى على مائدته، وكان الصحفيون آنذاك لهم من الأهمية فى هذه الأمكنة الليلية ما لأثرياء الحرب وتجار القطن والعمد وجنود الحلفاء من جاذبية مادية، ودون الدخول فى تفاصيل العلاقة وكيف انتهت إلى فراق، كانت له كعادة الشعراء العرب القدامى ما يشبه الوقفات أو الزيارات للأطلال العاطفية، كلما استبد به الحنين إلى ماضى الفحولة والعطاء العاطفى المتبادل.

اصطحب كامل صديقاً له إلى «روز» فى أوائل الستينيات لبنانية الأصل أوروبية السلوك، ورغم أنها كانت فى العقد الخمسين، ألا انها كانت لا تزال تضج بالحيوية والنشاط والجمال والدلال رغم بصمات السهر التى تخلفت حول عينيها، وتحول شعرها الذهبى إلى كالح اللون، وأن قوامها رغم اكتنازه لا يزال يتقن فنون التثنى والإغراء والغواية.

كانت روز تملك وتدير بارا «حانة» يحمل اسمها فى أحد الممرات الجانبية عند تقاطع شارع شريف مع شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة و... إزيك يا كامل بك وإزيك يا روز وضحكات مجلجلة وانطلقا سويا فى حديث الذكريات الودود المتبادلة مما كان يصلنى فى المكان البعيد الذى جلست فيه حتى لا أقطع عليهما خلوة الحب الغارب.

ويستعيد يوسف الشريف بعض ذكرياته فيقول:

«لم أسأله عنها ولم أكن أعرف علاقته السابقة معها حتى جمعتنى الظروف به صيف عام ١٩٦٣ فى شقته التى استأجرها فى حى الأزاريطة بالأسكندرية، وكان قد فرغ من لعب «البوكر» مع بعض أصدقائه الفنانين وراح يداعبهم بسخرياته وآيات ظرفه، أذكر بينهم المذيع جلال معوض وزوجته الفنانة ليلى فوزى، والفنان صلاح ذو الفقار وحرمه، والسيد بدير وزوجته المطربة شريفة فاضل، وتحية كاريوكا والناقد الفنى جليل البندارى.

تحية كاريوكا التى كانت تعرف الكثير عن مغامرات كامل الشناوى العاطفية مع الفنانات والغانيات، طلبت منه فجأة أن يروى قصيدة «العيون» التى نظمها فى محبوبته الغالية روز وفى نبرات متوهجة بالألم وذكريات الشباب الغض الإهاب عرفنا أن قصته العاطفية معها انتهت كالعادة إلى فراق... قال:

لا وعينيك يا حبيبة روحى

لم أعد فيك هائما فاستريحى

سكنت ثورتى، فصار سواء

أن تلينى، أو تجنحى للجموح

واهتدت حيرتى، فسيان عندى

أن تبــــوحى بالحب أو لا تبـــوحى

وخـــيـــالى الذى ســمـــا بك يومـــا

ياله اليـــوم من خـــيـــال كـــســـيح

وإلى نهاية القصيدة التى يقول فيها:

لا وعـــــــــيـــنـــيـــك!

مـــــا سـلـوتـك عـــمـــــرى

فـــــاســـــتـــــريـحـى

وحــــــــــاذرى أن تـريـحــى



الفنانة كاميليا

الشائع أن أغنية «أنت عمرى» كانت أول لقاء فنى مشترك بين عبد الوهاب وأم كلثوم، وهذا غير صحيح، فقد سبق هذا الحدث لقاء آخر كان موضوعه الفنانة الجميلة كاميليا.

كان ذلك عام ١٩٤٥ والمناسبة عيد ميلاد أحد أصدقاء كامل الشناوى الذى لبى الدعوة وبصحبته الفنانه السينمائية الفاتنة كاميليا، وكان بين المدعوين السيدة أم كلثوم وعبد الوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبد الوهاب مورو.

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوى فاتهمته بأنه يتحيز فنيا لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية، وحاول أن يقطع عليها طريق السخرية فاعترف أمام الجميع بتحيزه لكاميليا عاطفيا، لكن أم كلثوم أحرجته وقالت: إذن فقل فيها شعراً من وحى اللحظة.

وعلى الفور بادر محمد عبد الوهاب وقال: أنا مستعد كذلك لتلحين هذا الشعر فورا وقالت أم كلثوم وفى هذه الحالة أعلن استعدادى لغناء اللحن فى الحال!

ولما وافق الحاضرون على هذا الرأى، لم يجد كامل الشناوى بدا من أن ينتحى جانبا حتى فرغ من نظم أبيات من الغزل فى كاميليا وقال فيها:

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك فارفقى بخيالى

إن بعض الجمال يذهل قلبي
عن ضلوعي فكيف كل الجمال

وقرأ عبد الوهاب القصيدة ولحنها على العود وغنتها أم كلثوم واستعادها الحاضرون مرات حتى مطلع الفجر..

ولم تكن كاميليا تفهم العربية الفصحى، فكان توفيق الحكيم يترجم لها الأبيات إلى الفرنسية.

والمتتبع لقصة كامل الشناوى العاطفية مع كاميليا يلاحظ أمرين لهما ماوراءهما من الدلالات والمعانى فهو والملك فاروق كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا، وعلى ما يبدو أن ذلك ماتشى به آخر قصائده عند افتراقه عنها، وهو شعور مزيج من الكبرياء والإحساس بالخطر:

ياكبريائى لقد كلفتنى خطرا
فيك المنايا مطلات بأنياب
تمرد الليل لا أغفو به أبدا
حتى أرى الفجر مسفوحا على بابى

بعدها ارتبط كامل الشناوى بعلاقات عاطفية طائشة فى غالب الأحوال، بعد أن أعياه البحث عن شبيهة لمحبوبة المعادى المدموزيل «س» فى رقتها ونحافة عودها وكان يسمى هذا اللون والشكل من الجنس اللطيف تارة «كوكيت» وأخرى «منيون» بل إن صديقه الشاعر صالح جودت نظم قصيدة بعنوان منيون أهداها إلى نجاة الصغيرة إرضاء لصديق صباه كامل الشناوى وفيها تخاطب الفتاة المنيون حبيبها البدين قائلة:

أحبه.. أحبه.. ويزدهينى حبه

و«فـرته» تـعـجـبنى «قلتى» تـعـجــبـه

كـأننى فى إصــبـعــه حــينمــا أقــربه

ســيـجـارة تؤنســه.. تدفـئـه.. تـلهـبـه

كـأننى عـصــفـورة.. زقـزقـتى تطربه

يضـمنى فى يده.. ويحـتـوينى جـيـبـه

أكـــاد من تيـــهـى بـه آكله.. أشـــربـه

والشاهد أن علاقات كامل الشناوى العاطفية بهذه الأحجام والأنماط الأنثوية التى عرفها فى كهولته لم تتجاوز الحب الروحى أو الرومانسى لا الحب الحسى أو الجنسى على حد وصف الشاعر العربى القديم:

أهوى الملاح وأهوى أن أجـــالســـهـم

ولـيس لـى فـى حــــــرام منـهـم وطـر

كـذلك الحب.. لا إتيـان مـعـصــيـة

لا خـيــر فى لـذة.. من بعـدها ســقــر



شاعر أحب الخائنات

عندما صدر ديوانه الوحيد «لا تكذبى» كان بمثابة صرخة ضد خيانة المرأة، حتى أن الشاعر الكبير صالح جودت كتب مقالا تحت عنوان «شاعر يحب الخائنات» وأحصى عدد محبوباته فى الديوان بأكثر من قصائده الثلاثين وصفحاته التى لم تتجاوز ١٠٦ صفحات وكتب أحد النقاد يقترح على كامل الشناوى تغيير العنوان من «لا تكذبى» إلى لا تكذب، ربما لأنه يتقاسم المسئولية فى خيانة محبوباته، عبر عجزه عن إرواء عطش تلك الأنماط الأنثوية البرعمية.

على أن أول بيت فى ديوانه كان بداية النهاية لأكبر وأعمق وأشهر قصة حب فى حياته كلها:

لا تكذبى إنى رأيتكما معاً ... ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى ... من عين كاذبة فأنكر وادعى

والحديث عن بطلة القصيدة كثير، ومتناقض، فمن قائل أنه ضبطها متلبسة بخيانتها العاطفية مع صباح قبانى مدير تليفزيون دمشق أو شقيقه الشاعر نزار قبانى، ومن قائل أنه المخرج عز الدين ذو الفقار، بينما الكثيرون يجزمون أنه كاتب أديب شاب يعتبره النقاد أقدر من كتب القصة القصيرة فى مصر والوطن العربى «قيل يوسف إدريس».

ومن عجب أن هذا الأديب التقى يوسف الشريف بعد صدور كتابه «آخر ظرفاء ذلك الزمان» حول سيرة حياة أستاذنا كامل الشناوى وبادره فيما يشبه العتاب لأنه لم أذكر اسمه صراحة، باعتباره الخائن فى قصيدة لا تكذبى، وكتب اعترافه فى حينه بمجلة روز اليوسف!

يقول يوسف:

أذكر أوائل عام ١٩٦٣ أننى صحبت كامل الشناوى إلى حلوانى «جروبى» حيث دفع فاتورة مشتريات مائة وخمسين جنيها، وإذا بثلاثة عمال يحملون أمامنا إلى سيارة «بوكس» صناديق الجاتوه والبتى فور وتورتة ضخمة بيضاء ذات عدة أدوار لم تقع عيناى على مثلها سوى فى الأفلام السينمائية.

كانت المناسبة عيد ميلاد مطربة مشهورة «منيون» صغيرة الحجم، رقيقة الصوت، وإلى شقتها بالزمالك، دخلت مع كامل الشناوى حيث كان المدعوون محدودى العدد من الأصدقاء والصحفيين والفنانين والأقارب.

فلما جاءت لحظة إطفاء الشموع، إذا بمحبوبة كامل الشناوى وملهمته تختار كاتب القصة القصيرة وتمسك بيده ليساعدها فى قطع التورتة بالسكين، وكأنها كانت تقطع فى أوصال قلب الشاعر الكبير، وحاول طوال الحفل أن يستر ألمه وإخفاقه وفشل، وهو الذى دخل الحفل منذ قليل هاشا باشا يكاد يرقص طربا ومرحا، ولم يحتمل الموقف فانصرفنا وكان لايزال فى الليل ساعات.

ذهبنا إلى شقة الشاعر عبد الرحمن الخميسى فى حى معروف وكان مفلسا، ومن النافذة نادى جاره الفنان سعيد أبو بكر وقال له إن كامل بك فى ضيافته.. وهات معاك أربعة كيلو كباب وأى حاجة نشربها! لكن كامل الشناوى لم يتناول غير قطعة واحدة من اللحم دون أن تلامس الكأس شفتيه، إذ كان فى حالة لم أعهده فيها من قبل على مدى السنوات العشر التى لازمته خلالها فى أخريات حياته.عيناه مغرورقتان بالدموع وقد امتقع وجهه، وكف عن أجمل صفاته ومواهبه.. وهى الحكى والسخرية وآيات ظرفه حتى خشيت أن يحدث له مالا تحمد عقباه وبعد قليل طلب من فكرى الجوهرى مدير أعمال الخميسى أن يحضر له تاكسى ولاحظت أنه

على غير عادته لم يدعى إلى مصاحبته و.... هناك فى شقة المطربة الصغيرة قالت لى باتعة مديرة منزل كامل الشناوى وكاتمة أسراره.. دق الباب فتحت الخادمة، لم يستأذن فى الدخول.. حتى رأى كل شيء ماثلا أمامه يستحيل إخفاؤه أو إنكاره!

وبينما أقرأ بابه الأسبوعى فى صحيفة الجمهورية «ساعات» أدركت ما حدث رغم أنه غير فى بعض التفاصيل وأغفل ذكر الأسماء: «كان المفروض أن أكون معهم أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها. فهى صديقة وهم أصدقائى. ولكنهم نسوا أن يدعونى إلى الاحتفال وتداركوا نسيانهم فذكرونى فى سهرتهم، وقدموا إليها هداياهم وكانت سيرتى أبرز مافى الهدايا، وضعوا أمامهم التورتة، ومع التورتة مزقوها بالسكين»!

قال لى الأستاذ مصطفى أمين إنه الوحيد الذى استقبل كامل الشناوى فى أعقاب فاجعته العاطفية فى مطربته الصغيرة، ولما حكى لى القصة بكل تفاصيلها المثيرة حرضته على أن يجسد مشاعره فى قصيدة، فكانت دموعه تختلط بحبر القلم الذى يكتب به، ثم حرضته بعد اكتمال القصيدة على أن يقرأها على مطربته الصغيرة فى التليفون حتى يشفى غليله، وقرأ عليها القصيدة وهو يكاد ينتحب، وعندما انتهى قالت وكأن الأمر لا يعنيها: كويسة خالص.. ممكن أغنى القصيدة دى يا كامل بك»؟

المعروف أن إحسان عبد القدوس كتب قصة الشاعر الكبير مع محبوبته فى جريدة الأهرام تحت عنوان «وعاشت بين أصابعه»، وقالت لى السيدة نرمين القويسنى مديرة مكتب الأستاذ إحسان إن المطربة الصغيرة ألحت عليه أن يغير من بعض التفاصيل وكان قد نشر من القصة فصلين، لأنها فوجئت بلعنات الناس تنهال عليها عبر التليفون، وفى خطابات الذين قرؤوا القصة وعرفوا العذاب والآلام التى عاناها كامل الشناوى فى حبه من طرف واحد، بل إنها عادت وطلبت شراء القصة بعد نشرها لإنتاجها

فى فيلم سينمائى بشرط ألا تسأل لماذا لم تشرع فى إنتاج هذا الفيلم ورفضت أسرة إحسان العرض.

على أن كامل الشناوى لم يتوقف عن هجاء محبوبته شعرا ونثرا.. فهو القائل فى القصيدة التى غناها عبد الحليم حافظ:

حبيبها لست وحدك حبيبها أنا قبلك
وربما جئت بعدك وربما كنت مثلك

* * *

فلم تزل تلقانى وتستبيح خداعى
بلهفة فى اللقاء برجفة فى الوداع
بدمعة ليس فيها كالدمع.. إلا البريق!'
برعشة هى نبض بغير عروق
حبيبتى ورؤت لى ماكان منك ومنهم
فهم كثير.. ولكن لا شئ تعرف عنهم

ثم ينهى القصيدة قائلا:

ما أنت ياقلب؟ قل لى:
أأنت لعنة حبى؟! أأنت نقمة ربى؟
إلى متى أنت قلبى؟

وفى رسائله النثرية الكثير من ألوان هجائه لمحبوبته «المنيون» التى يصفها بقوله: إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها.. تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث.. وتقابل فيه كل الناس.. شخص واحد تهرب من لقائه.. صاحب البيت!

الفصل السابع

كامل الشناوى صحفياً

«على الرغم من أن كامل الشناوى كان كاتبا شيق الأسلوب، إلا أن أسلوبه فى الحياة، النكتة الحلوة أو المرة هو الذى كان يفتح أمامه كل الأبواب على مختلف المستويات»

حافظ محمود



ارتبط كامل الشناوى بالصحافة منذ مطالع شبابه، حيث كان أول عمله بالصحافة فى صحيفة «كوكب الشرق» سنة ١٩٣٠ ثم عمل مع الدكتور طه حسين فى صحيفة «الوادى» ثم اشتغل محررا بصحيفة «الأهرام» كان يكتب فى مجلات «آخر الساعة» و«الاثنين» و«المصور» حتى جاءت سنة ١٩٤٣ فترأس تحرير مجلة «آخر الساعة».

وفى سنة ١٩٤٥ انتقل من صحيفة «الأهرام» إلى صحيفة «أخبار اليوم» فترأس تحرير آخر ساعة بعد تنازل الكاتب الكبير محمد التابعى عنها إلى الأخوين مصطفى وعلى أمين فى أخبار اليوم .

ولكن كامل الشناوى بطبيعته القلقة غير المستقرة ترك أخبار اليوم بعد حوالى أربع سنوات ليترأس تحرير «الجريدة المسائية» سنة ١٩٤٩، ولكنه يعود إلى صحيفة الأهرام مرة أخرى سنة ١٩٥٠ ليعمل رئيسا لقسم الأخبار بها، ولكنه يتركها سنة ١٩٥٢ ليعمل رئيسا لتحرير صحيفة «الأخبار» وفى سنة ١٩٥٥ ترك صحيفة «الأخبار» ليتولى رئاسة تحرير صحيفة «الجمهورية» التى شهدت خواطره وكتاباته وتأملاته فى سنواته الأخيرة.

وكانت خبرته الصحفية فى عالم الصحافة المصرية على مدى أكثر من ثلاثين عاما خبرة طويلة وعميقة وحافلة مليئة بالخبايا والأسرار والأزمات والنجاحات كان خلالها كامل الشناوى شخصية مؤثرة عميقة لم تمنعه رومانسيته وشاعريته الحالمة من أن يكون صحفيا ناجحا بكل المقاييس.

وحول تجربته يذكر حافظ محمود أن كامل الشناوى استطاع أثناء عمله بالأهرام فى هذه المدة القصيرة أن يصبح كل شئ فى الصفحة البرلمانية، ثم استطاع أن يغدو عميدا للمندوبين البرلمانيين فى مجلس النواب، واستطاع من خلال هذا العمل الصحفى أن ينشئ لنفسه جسورا من الصداقات الحميمة مع الزعماء وكبار السياسيين فى مختلف الأحزاب.

كان صيته قد بدأ ينتشر فى كل الأوساط، ودخل الشاب السمين الذى يرتدى أحدث الملابس الأفرنجية القصور، وجالس الوزراء ورؤساء الوزارات، وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية محمد محمود باشا.

وهنا يذكر لكامل الشناوى أنه كان شديد الحساسية لكرامته واعتزازه بشعره ومواقفه السياسية، فكما كان صديقاً حميماً لشاعر أحمد شوقى وكان مثله الأعلى فى مدرسة الشعر، إلا أنه اختلف معه فى الرأى وانضم إلى العقاد فى موقفه من مدرسة «أبوللو» أيضا نرى الشاعر والصحفى كامل الشناوى الذى أصبح صديقا لمحمد محمود باشا زعيم الدستوريين، لا يمدح فى شعره أو مقالاته ذلك الحاكم بأمره، والقصيدة الوحيدة التى قالها فى مدح زعيم، كانت فى مصطفى النحاس باشا بالرغم من أنه لم يكن صديقا له وعندما سئل عن السبب قال كامل الشناوى: «كل ما هناك أنه يستحق شعرى وإذا كانت الصداقة لرئيس الوزراء فالشعر يجب أن يكون لزعيم الأغلبية».

وعندما يعلم جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام أن كامل الشناوى سهر كل ليلة مع صديقه محمد محمود باشا، يخبط كفا بكف ويصرخ فى وجهه: «وماذا تفعل بهذه الصداقة.. حاول أن تحصل منه على الأخبار أولا بأول».

ويخرج من مكتب تقلا باشا إلى سراى محمد محمود، وفى مجالس

الوزراء والزعماء لا يكون الحديث دردشة أو دعابات فقط، فالذين يصنعون الأخبار والقرارت، يضطرون فى حياتهم وسهراتهم العادية إلى الدردشة فى الأسرار، وهى الكنز الذى كان يبحث عنه كامل الشناوى الصحفى، ويلتقط من خلال الدردشة خبرا هاما، أن أمين عثمان سوف يسافر إلى القدس ليجتمع مع أحد المسئولين البريطانيين، وأن مفاوضات على مستوى عال ستدور بينهما بعيدا عن أعين الصحفيين ورقابة الشعب!

ويسرع كامل الشناوى إلى الجريدة ومعه الخبر، ويعيد تقلا باشا صياغة الخبر، وينشره منسوبا إلى مراسل الأهرام فى القدس، ويحدث الخبر هزة عنيفة فى كل الأوساط السياسية والشعبية، ويتلقى كامل التهنئة، ويرتفع مرتبه بضعة جنيهات، وينال مكافأة ضخمة، أكدت عزمه الذى استقر أخيرا على أن يتحول بكل طاقته إلى احتراف مهنة المتاعب والقلق... الصحافة...

ويدرك محمد محمود بذكائه وخبرته، أن الشاب كامل الشناوى المحرر بالأهرام وصديقه وجليسه هو مصدر الخبر، فلا يفاتحه فى الأمر إلى أن تأتى جولة أخرى يلقنه فيها درسا لا ينساه.

ذات مساء وفى سراى محمد محمود وكامل الشناوى ينصت باهتمام، يعلن رئيس الوزراء أمامه خبرا، أن جوبلزوزير الدعاية فى حكومة هتلر وصل إلى مصر سرا ونزل بفندق سميراميس، وأنه التقى بمحمد محمود، ودارت بينهما أحاديث خطيرة، ويستأذن كامل الشناوى فى الانصراف مسرعا إلى الأهرام.. ويدخل إلى مكتب تقلا باشا يزف إليه الخبر الخطير!

ويرفع رئيس التحرير المدرب سماعة التليفون ويتصل بفندق سميراميس، ثم بجميع الفنادق التى يحتمل أن ينزل فيها الوزير الألمانى،

واتصل بالمطار وبرجال السياسة، وبكل مكان له علاقة بوصول جوبلز، ولكن الجميع يؤكدون أن الخبر كاذب، ويضطر تقلا باشا قبيل الفجر الاتصال بمحمد محمود باشا، وما أن يسمع رئيس الوزراء صوته حتى ينفجر ضاحكا ثم أنهى المحادثة بكلمة ظلت ترن فى أذن كامل الشناوى «عشان تتعلم الفرق بين الصداقة والصحافة» وفعلا تعلم كامل الكثير من هذا الدرس، أن يكون حذرا، حتى أصبح الحذر من أبرز صفاته الصحفية.

وحدث أن كتب كامل الشناوى خبرا عن اعتكاف عبد العزيز فهمى باشا فى داره بسبب مرضه، فسأله أنطون الجميل: «هل استأذنت عبد العزيز فهمى باشا فى نشر الخبر؟».

قال كامل: أنا واثق من صحة الخبر.

وقال أنطون: هذا خبر شخصى، فلا ينبغى نشره إلا بعد استئذان صاحبه، فقد يتسبب عن نشر الخبر أن يزوره أصدقاؤه فى داره وهو غير مستعد لاستقبالهم وربما أزعجته هذه الزيارات وضاعفت آلامه.

كان أنطون الجميل يؤثر الأخلاق الممتازة على الكفاءة، وكان يقول لكامل الشناوى «أن الصحافة تتطلب من الصحفى عقل فليسوف، وقلب شاعر، وضمير قاض، ولا مانع ـ بعد ذلك ـ أن يكون الصحفى صاحب قلم».

ويقول كامل الشناوى رأيه فى رائد مدرسة الأهرام الصحفية إبان الثلاثينيات: «كان أنطون الجميل رئيس التحرير يحب الشعر والأمثال والاستشهاد بالكلمات المأثورة، وكثيرا ماكان يبدأ مقالاته بحكمة معروفة أو أسطورة قديمة، ويتخلل المقال بيتان أو ثلاثة من الشعر العربى أو ترجمة لبيت من الشعر الفرنسى، أو مثل أو حكمة صينية، وكان يتأنق فى اختيار اللفظ والفكرة والمعنى وكان إذا تناول موضوعا سياسيا، عرض وجهات النظر المختلفة بدقة وأمانة، وترك للقارئ أن يختار ما يشاء

مكتفيا بأن يعرف بوجهات النظر على اختلافها».

ويقول كامل الشناوى: «لم تكن الصحافة عند أنطون الجميل سبقا صحفيا، وإنما دقة وأمانة وحرص على تجنب الإثارة والتهييج، وكان يتلقى الخبر الهام فيبقيه عنده حتى يتحراه، ثم يقارن بين ما يترتب على نشره فإذا كان النشر يتعارض مع المصلحة العامة، امتنع عن نشر الخبر مهما تكن أهميته، وكان يكره العنف فى المناقشة والحدة فى الجدل، كثير الاعتداد بكرامته وكرامة الأهرام، فلا يزج بنفسه ولا بالأهرام فى خلافات سياسية أو طائفية أو مذهبية ولا ينشر خبرا عن إنسان إلا بعد استئذان».

وتعلم كامل الشناوى دروسا كثيرة فى صحافة مدرسة الأهرام، دروسا فى الكتابة الصحفية.ودروسا فى التعامل مع المصادر، وكما أخذ عن الأهرام فقد أعطاها أيضا، كتب الخبر والتحقيق والمقالة والدراسات الأدبية، وقدم سلسلة من الأحاديث الصحفية التى أثارت ضجة حولها، وأجرى الحديث الشهير مع أحمد لطفى السيد الذى قال فيه أستاذ الجيل: «أنه فى الساعات الأخيرة من حياته سوف يزرع شجرة» وكان قد بلغ من العمر نحو ثمانين عاما.

وفى عام ١٩٣٨ أصبح مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة، فاختار كامل محرراً سياسيا لها بجانب عمله بالأهرام، وفى عام ١٩٤٢ كان مصطفى أمين رئيسا لتحرير مجلة الاثنين فخصه بكتابة عامود أسبوعى «سمعتهم يقولون» بجانب كتابته للمقالات فى مجلة المصور، وفى عام ١٩٤٤ اختاره مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة، وبعد صدور أخبار اليوم كان يعد من ألمع كتابها.

ثم عين رئيسا لتحرير الجريدة المسائية عام ١٩٤٩ ولكن حزب الوفد قرر إغلاقها رغم توزيعها ونجاحها الواسع لأنها كسبت معظم القراء من

البلاغ وهى جريدة وفدية ومسائية أيضا، ولأن كامل الشناوى لم يكن وفديا ثم عاد إلى الأهرام رئيساً لقسم الأخبار ثم تركها عام ١٩٥٢ وعمل رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية وفى ديسمبر عام ١٩٦٢ عين رئيسا لتحرير جريدة الأخبار وظل بها حتى وفاته وكانت آخر عهده فى عالم الصحافة.

* * *

كانت قفزاته فى عالم الصحافة تدهش أقرانه وتثير حسد من تخلف عن سباقه فمن مجرد مصحح بلا أجر فى «كوكب الشرق» عام ١٩٣٠، إلى رئاسة تحرير «آخر ساعة» عام ١٩٤٣م.

كانت موهبته كشاعر لامع ومحدث ظريف تطغى على استعداده الصحفى، بل إن شاعريته وظرفه كانا مفتاح أبواب الصحافة والمجتمعات، وتخاطفه أصحاب الصحف، فكان يختار المكان الذى يروقه، والمنبر الصحفى الذى تتوفر فيه حرية الرأى والنشر. وكان يحدد الأجر الذى يفى بمتطلبات بذخه وإسرافه، رغم أنه منذ أصبح رئيسا للتحرير كان يعطى بعض وقته للعمل ومعظم أوقاته للناس. وكان يتكلم أكثر مما يكتب، وكان يعمل ويكتب وسط مريديه وحوارييه الذين لم يكن ينقطع سيل تدفقهم على مكتبه، ويستنفد معظم دخله فى ولائم العشاء التى كان يدعو إليها العاملين معه والمترددين عليه وعرف عن صينية عشاء كامل الشناوى الكثير من الطرائف، فكانت تصحبه من دار صحفية إلى دار أخرى، وكانت تمتلئ بما لذ وطاب من صنوف الطعام والكباب والأسماك.

كانت مشكلته الوحيدة أنه يكتب فى الساعات التى يريد أن يكتب فيها بينما كانت الصحافة تطلب منه أن يكتب فى الساعة واللحظة التى تحددها له.

يقول مصطفى أمين: «كنت دائم الخلاف مع كامل الشناوى. لأنه قليل

الانتاج، فقد كانت المقالة التى لاتزيد عن عامود، تستغرق منه عدة أيام، وكنت أدهش لأنه راوية ومحدث ومبدع فى الحياة ووسط الناس، وكثيرا ما فكرت فى أن أستأجر له شخصا يمشى معه ويسجل ما يقوله وأنشره موقعا بامضاء كامل الشناوى».

لم يتعلم كامل الشناوى الصحافة فى المعاهد المتخصصة فى الصحافة، ولكنه تعلمها فى مدرسة الممارسة والتجربة، وقد ظل تلميذا فى هذه المدرسة حتى النهاية وكان يصف نفسه بالهواية الصحفية، ومما لا شك فيه أن قراءاته اللامنهجية فى دار الكتب وتكوينه الثقافى العصامى فى صدر شبابه قد أفاده كثيرا فى عمله وعلاقاته بمصادره الصحفية.

كان أساس ثقافته الفلسفة وعلم النفس والسياسة ومختلف الفنون والآداب العالمية، وجميع ما أنتجه الفكر العربى منذ العصر الجاهلى، وكان يحفظ آلاف الأبيات للشعراء القدامى والمحدثين، وكانت له ذاكرة أشبه بجهاز التسجيل، لكن كامل الشناوى لم يتوقف عند مرحلة وضع الأساس لثقافته فكان يتردد على المكتبات لاقتناء كل جديد فى الفكر، وكان يهضم قراءاته لها ثم يقدمها أو يعلق عليه وظل بنيانه الثقافى مفتوح النوافذ على كل الاتجاهات والأفكار والتيارات، وكان أصدق مصادر الأخبار الهامة لأنه كان صديقا لصناع الأحداث، وكان هو صانع بعضها.

كان كامل الشناوى يجمع فى شخصه وفكره وقلمه بين جيل رائد للصحافة الحديث والجيل الذى دخل عتبات الصحافة صغيرا ولمع مع التطور، الأول كان قاعدة بناء والثانى كان سند البناء، وهو مع الاثنين عنصر مزج وإدماج ومحور التقاء، ومركز إشعاع، شاعرا لامعا بين الشعراء وصحفيا من أبرزهم وأكثرهم نفوذا وكان أيضا فنانا بين الأوساط الفنية، وكانت رسالته أن يطلق شرارة الاندماج سواء بين الأجيال أو بين العناصر

المتجانسة في كل ميدان.

ولم يكن الطريق ممهدا أمام كامل الشناوى الصحفى ولكنه تمكن بذكائه وثقافته أن يستفيد من رسالته وتجاربه فى الصحافة، وأن يتخطى العقبات الواحدة تلو الأخرى دون أن يكرر نفس الخطأ الذى تعرض له من قبل.

يقول: «فى عام ١٩٣٥ كنت محررافى روز اليوسف، لم يكن لى عمل محدد، أحيانا أساهم فى تحرير الصفحة الأدبية وصفحة الشباب، وأحيانا أكتب التعليقات الساخرة الخفيفة. وأحيانا أحرر باب «من أدب القرآن» وهو باب كنا نستغله فى معارضة الحزب الذى كانت الجريدة تنتمى إليه دون أن نقول أننا معارضون. فمثلا كان رئيس الحزب يدافع عن وجهة نظر الوزراء فى إرجاء إعادة الدستور فننشر أقواله ونضعها فى إطار نكتب فى صدره هذه الآية الكريمة «استغفر لهم أولا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم».

وكنت إلى ذلك الحين، لا أكتب مقالات تحمل اسمى، كنت أدخر ظهور الاسم لأكتب موضوعا جديدا أو حديثا فيه شيء جديد، وفكرت.. فكرت أن أنشر عدة أحاديث مع بعض رجال السياسة اللامعين، واخترت للحديث الأول «حافظ رمضان باشا» رئيس الحزب، وكان إنسان ذكيا، واسع الثقافة والأدب والتاريخ وبرلمانيا خطيرا.

وذهبت إليه فى بيته ووجهت إليه أسئلتى، ودونت إجابته بأمانة ودقة. حمست أوراق الحديث إلى الأستاذ محمود عزمى والفرحة تكاد تقفز على ملامحى، فقد استطعت أن أفعل شيئا، وإذا برئيس التحرير يقول لى: «هذا مقال بقلم حافظ رمضان وليس حديثا صحفيا، أنا أريد حديثا يقوم على الحركة. والأخذ والجذب بينك وبين حافظ رمضان باشا ووصفا لتلقيه السؤال وكيف يبدو وهو يجيب عليه، ثم فتح محمود عزمى درج

المكتب ورمى فيه بالأوراق، وخرجت من عنده وأنا أجرجر قدمى من الإحساس بالفشل وفكرت أن أتراجع عن مهنة الصحافة، وألا أجرب حظى مرة أخرى مع الأحاديث الصحفية، ولكنى جمعت كل قلبى وعقلى وتأملت خطوط ملاحظات رئيس التحرير، وفكرت فى ضرورة البدء على هداها فى إعداد حديث صحفى خطير، وفعلا حققت بإرادتى هذه التجربة مرة أخرى، وعاودت الحديث مع حافظ رمضان باشا وكتبت حديثه مرة ثانية ونجحت إلى الدرجة التى كان محمود عزمى يدرس أحاديثى الصحفية على طلبة معهد الصحافة آنذاك، وكان الفارق بين أن أتراجع وبين إقدامى على التجربة، هو أننى عرفت لماذا فشلت، ودفعنى إحساسى بالفشل إلى إعادة التجربة».

ولأنه أشهر من أجاد الاحاديث الصحفية وكتابتها، فقد استجاب له الرئيس جمال عبد الناصر وخصه بأول حديث له فى الصحافة العربية والأجنبية على مدى أربع ساعات متصلة، وقد تناول الحوار بينهما الاتحاد القومى والوضع الاقتصادى والاجتماعى ومصير المعتقلين السياسيين، وتمكن من أن يعرف منه الكثير من الأخبار وتوقعات المستقبل.

* * *

وحول تجربة كامل الشناوى الصحفية باعتباره أحد عمالقة الصحافة يسترجع الكاتب الصحفى الكبير حافظ محمود بعض ذكرياته عن كامل الشناوى إنسانا وأديبا وصحفيا كبيرا، فيقول(١):

«كانت بيننا على عهد الصبا الباكر مناقشات حادة غير جادة حول سؤال عجيب هو: «أيهما أكثر ضخامة بين فتيان الحى: أهو ابن الشاعر الهراوى أم ابن الشيخ الشناوى.. لقد ظللنا مختلفين فى هذا الأمر حتى

(١) حافظ محمود، عمالقة الصحافة/ كتاب الهلال/ ١٩٧٤.

سمعنا بنكتة حافظ إبراهيم عن ابن زميله الشاعر محمد الهراوى حين قال له: «يامحمد أنا شفت النهاردة دار الكتب جنب الولد ابنك» وبهذه النكته ضاعت زعامة الضخامة بين فتيان الحى من كامل الشناوى وكأن القدر قد أراد أن يزيل عنه تهمة البدانة الثقيلة، فإذا به يشق طريقه فى الحياة وثبا وكان من بين الخطوط الاستراتيجية التى وصل إليها الخط الأول فى عالم الظرفاء.

لقد كان هناك شئ يحز فى نفس كامل الشناوى وهو يافع، أن فتيان الحى يلبسون الثياب الأوروبية الحديثة وهو وحده المطلوب منه أن يرتدى زى الشيوخ لكى يكون عالما من علماء الدين كأبيه وأعمامه.

عالج كامل الشناوى هذه الأزمة فى نفسه بالشعر.فاكتشف أنه شاعر.. لكن من الذى كان يصدق أن هذا الفتى ابن الخامسة عشرة من عمره يقول شعرا من عنده.. لقد كان فتيان الحى يتهمونه بأنه ينسب شعر الغير لنفسه، وانتهى الجدال حول هذا الموضوع بتحكيم الشاعر الأزهرى المعروف الشيخ محمد الأسمر الذى شهد لكامل شهادتين: شهادة بأن هذا الشعر من عنده وشهادة بأن شعره من النوع الجيد.

واصطحب محمد الأسمر كامل الشناوى إلى أمير الشعراء شوقى ليطلعه على هذه الخامة الجديدة فى إمارة شعره.. وأعجب شوقى بالفتى كامل الشناوى وفتح له صدره وهو يشكو المصير الذى يرى أنه غيرمستعد له اذا استمر فى دراسته الأزهرية، وكان لابد من حيلة تنجى كاملا من غضب «أصحاب الفضيلة» من أهله إذا وقفوا على سر فراره من صحن الأزهر.. وتكفل أمير الشعراء شوقى بهذه الحيلة.

اصطحب شوقى كاملا إلى صديقه عوض «بك» صاحب جريدة كوكب الشرق، واتفق على تشغيله مصححا بهذه الجريدة.. وكانت السن قد مالت

بكامل الشناوى نحو الثامنة عشرة من عمره.. وأصبح رجلا يكفل نفسه فلا يستطيع أحد من أهله أن يعترض على فكاكه من الدراسة فى الأزهر، وذهب فتيان الحى بكامل هيئتهم إلى بدروم دار جريدة كوكب الشرق لتهنئته بهذا «المنصب» وهناك التقينا بكامل «أفندى» الشناوى وهو جالس وراء مكتبه يصحح تجارب المطبعة وهى عملية بدت لنا إذ ذ ك بحق وكأنها تصريف لكبريات الأمور.. وهناك أحس الفتيان أن زميلهم الذى كان يتأخر عنهم خطوة قد سبقهم إلى ميدان الحياة بخطوة، وخرجوا من عند كامل وهم يقولون: أن أرشق فتيان الحى لم يعد قادرا على أن يسبقه!

كان العمل الذى بدأ به كامل الشناوى فى الصحافة، وهو التصحيح، عملا «روتينيا» صعبا.. ثم جاءت الفرصة لكى يظهر مواهبه وفى مقدمتها خفة ظله..فقد كان يتولى أعمال سكرتيرية التحرير فى جريدة كوكب الشرق رجل ممن كانوا يسمونهم أعيان الريف، لا هو بالصحفى ولا هو بالأديب.. لكن العمل السياسى الوطنى قد هيأ له هذه الوظيفة ليؤدى بها واجبا حزبيا.. وذات يوم وفد على مصر زائر كبير هو ملك الأفغان، وكانت أنهار الصحف تفيض بأنباء تنقلاته فى القاهرة مع ملك مصر.. وكان لزاما أن يذكر إسما الملكين بلقب صاحبى الجلالة - مرة تكون الجملة «صاحبا الجلالة» ومرة تكون الجملة «صاحبى الجلالة».

لم يعجب هذا الخلاف فى سياق الحديث الرجل الصيب سكرتير التحرير، فكان يصحح عبارات المندوبين بأن يجعل العبارة كلها إما «صاحبا الجلالة» وإما «صاحبى الجلالة» كما كان يتراءى له، وكانت تجارب الأخبار تصل إلى يد كامل الشناوى المصحح فيعيد تصحيحها حسب قواعد اللغة، ويرى سكرتير التحرير هذا التصحيح على تصحيحه فيغضب وينادى كاملا ليقول له: «أهى لعبة استغماية بيننا فكلما اكتبها»

صاحبا» تصححها «صاحبى» وكلما أكتبها «صاحبى» تصححها «صاحبا»؟!.

وكتم كامل ضحكته، وأخذ الموضوع برمته إلى الدكتور طه حسين الذى كان قد عين فى هذه الأثناء مديرا لسياسة «كوكب الشرق» وأخذ يقصه عليه بحركات الظرف التى اشتهر بها كامل من بعد، فإذا بطه حسين يضحك من قلبه ويقرب كاملا إليه، ثم ينقله بلا أية مقدمات من قسم التصحيح إلى وظيفة المحرر المنتدب بمكتب مدير سياسة الجريدة وكانت هذه بداية لمعان كامل الشناوى الصحفى..

لقد اشتهر كامل الشناوى عند كبار الكتاب قبل أن ينال أية شهرة عند عامة القراء.. فلما أنشئت جريدة «روز اليوسف» اليومية فى سنة ١٩٣٤ ودعى العقاد ليكون كاتبها الرئيسى اشترط أن يكون إلى جانبه الصحفى الشاب كامل الشناوى... وبدأ توقيع «كامل الشناوى» يظهر لأول مرة على مقالات يومية من حجم نصف العمود على صفحات «روز اليوسف» اليومية قال أنطون لكامل: «لا تحزن يابنى.. بجوار غرفتى بالأهرام غرفة صغيرة لك أن ترابط بها منذ الآن حتى ندبر لك عملا».

لكن.. ماذا كان كامل فاعلا بهذه الغرفة الضيقة، لقد كان كامل يقضى معظم وقته بغرفة أنطون، فإذا حاول الانصراف استبقاه أنطون وجلساؤه للتزود من ظرفه وظل عاما أو يزيد إلى أن أعيد تشكيل مجلس النواب فاذا بأنطون يكلف كاملا بأن يصحب مندوب الأهرام البرلمانى الذى يصف جلسات المجلس وما كادت تمضى بضعة شهور حتى طلب المندوب البرلمانى القديم اختصاصا آخر فى العمل، فقد كان كامل الشناوى قد استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يصبح كل شئ فى الصفحة البرلمانية بجريدة الأهرام، ثم استطاع أن يغدو عميد المندوبين البرلمانيين فى شرفة الصحافة بمجلس النواب.

* * *

استطاع كامل الشناوى عن طريق هذا العمل الصحفى أن ينشئ لنفسه من الصداقات مع الكبراء ما عز على الكثيرين من أبناء جيله فى الصحافة لقد كان جليسا لمحمد محمود زعيم الدستوريين وصديقا حميما لشقيقه حفنى محمود، وكان فى نفس الوقت صديقا لمكرم عبيد ولمن خلف مكرم عبيد فى سكرتارية حزب الأغلبية، ثم كان فى نفس الوقت صديقا لخصوم هؤلاء جميعا فى السياسة.

وليس من شك أن صداقات كامل الشناوى قد تفوقت على كفاءته الصحفية فيما كان يوكل إليه من المهام وفجأة دعى مندوب الأهرام كامل الشناوى لكى يرأس تحرير الجريدة «المسائية» الجديدة التى أنشأها بعض أقطاب الوفد وهكذا وثب كامل الشناوى إلى الصفوف الأولى فى مهنته وأصبح من رؤساء التحرير المعدودين.

وعلى الرغم من أن كاملا كان قد انتزع انتزاعا من «الأهرام» فان «الأهرام» رحبت بعودته إليها حين توقفت الجريدة المسائية عن الظهور وقد عاد إليها هذه المرة وهو من رؤساء التحرير.

وعلى الرغم من أن كاملا كان كاتبا شيق الأسلوب إلا أن أسلوبه فى الحياة أسلوب النكتة الحلوة أو المرة هو الذى كان يفتح أمامه كل الأبواب على مختلف المستويات، بما فيها باب البرلمان.. لقد انتخب كامل الشناوى عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٤٥.. وكان لهذا الانتخاب قصة:

ففى أخريات سنة ١٩٤٤، تولى الحكم الدكتور أحمد ماهر، وكانت هذه أول مرة يتولى فيها رئاسة الوزراء أحد المنشقين على الوفد وكانت مناسبة أقام لها رئيس الوزراء أحمد ماهر حفلة ساهرة فى بيته أحيتها أم كلثوم.. وحضرها الملك.. وكان الملك قد سمع بنكت كامل الشناوى فلما علم بوجوده فى هذه الحفلة طلب أن يسمع منه شيئا.. ولما علم الملك أن

هناك اتجاها إلى ترشيح كامل لعضوية مجلس النواب أمر بأن يكون ترشيحه فى دائرة الزعفران وهى دائرة كان الملك فيها يملك الأرض ومن عليها ونجح كامل الشناوى نجاحا ساحقا.

ولما وقع الاختيار فى سنة ١٩٥١ على عشرين صحفيا للإنعام عليهم بالرتب كان كامل واحدا منهم.. وكانت لكامل نكته طريفة فى يوم تلقيبه بلقب البكوية فقد ذهب يومئذ كعادته اليومية إلى مقهى الأنجلو، وهناك التقى بجلسائه المعتادين جلوسا بمدخل المقهى، فإذا به يقول لهم: «وسع يا أفندى أنت وهو لسعادة البيه».

بعد هذا بعام واحد قامت الثورة وكامل الشناوى من رؤساء التحرير بدار «أخبار اليوم» فإذا به من أكثر الصحفيين تفهما لإرادة التغيير وإذا به من الصحفيين القدامى الذين لم يشملهم التغيير بالتغيير.. بل لقد دعى كامل لأن يكون أحد رؤساء التحرير فى أول جريدة يومية أنشأتها الثورة، وهى جريدة «الجمهورية».

ثم يتساءل حافظ محمود:[1] «كيف كسب كامل الشناوى كل هذه المواقع»؟..

نظلمه إذا قلنا أنه كان يكسب كل هذه المواقع بظرفه الذى جعل الذين يتعلقون به أكثر من الذين ينفرون منه.

ونظلم الحقيقة إذا قلنا أن براعة أسلوبه كانت وحدها سر نجاحه لقد كانت فى كامل خاصية تغطى حتى على سيئاته، هى قدرته على إثارة اهتمام من يرغب فى إثارة اهتمامه.. وكما كان يقدر على إثاره اهتمام القراء بأسلوبه نثرا وشعرا ـ كذلك كان يقدر على إثارة اهتمام من يملكون زمام الأمور.. كان يعرف ما هى النقطة التى تثير اهتمامهم ليحركها تحريكا بارعا.

(١) حافظ محمود/ عمالقة الصحافة.

ذات مرة، وكان هذا منذ ثلاثين عاما، وقع خلاف شديد بين توفيق دياب وعبد القادر حمزة... وانتقل هذا الخلاف من القضايا العامة إلى مسائل شخصية ذات حساسية خاصة أزعجت أصدقاء الطرفين إلى درجة تشكيل لجان من هؤلاء الأصدقاء للإصلاح بينهما بلا جدوى.. التقط كامل الشناوى الخيط من هذا الفشل وحوله بطريقته إلى نجاح*.

كان كامل أقدر الناس على تقليد أصوات الناس وبصورة من صوت توفيق دياب تحدث تليفونيا إلى عبد القادر حمزة، وكانت كل من هاتين المحادثتين تفيض رقة وودا من أحدهما إلى الآخر.. حتى لقد بكى توفيق دياب وهو يستمع إلى حديث عبد القادر حمزة المزعوم فى التليفون تأثرا بما فيه من تسامح وحنان... فكانت المحادثة التالية بصوت توفيق دياب، حقيقية إلى عبد القادر حمزة، وهو يصب فى أذنى صاحبه أحاديث الصفاء على نحو أزال هذا الجفاء، وقضى على مشكلة هزت الأوساط الصحفية جميعا.. ومن أن جميع الأطراف قد علمت فيما بعد بأن هذا كله كان من صنع كامل الشناوى، إلا أن الصلح كان قد تم بين الصحفيين الكبيرين فلم يعدلا عنه، وحفظت الأوساط الصحفية الكبرى لكامل الشناوى هذا الجميل الذى زاده اختلاطا بمن هم أكبر منه.

لقد لمست هذه الموهبة الشناوية مرة أخرى منذ سنوات قليلة حين بدأ المرحوم صلاح سالم يتولى الإشراف على دار جريدة «الجمهورية» حينئذ، وفى جلسة خاصة مع صلاح سالم سمعته يتحدث متوجساً عن كامل الشناوى، وربما كان هذا التوجس هو الذى حدا به إلى التفكير فى اسم ضخم يوضع فوق أسماء رؤساء تحرير الجريدة ـ التقط كامل الشناوى هذا الخيط فإذا به هو الذى يخاطب الدكتور طه حسين فى هذا الأمر.. وما هى إلا بضعة أشهر حتى غدا كامل الشناوى كل شئ عند صلاح سالم.

* حافظ محمود: عمالقة الصحافة: القاهرة ١٩٧٤.

كانت هذه الموهبة تحول أخطاء كامل الشناوى إلى صواب وتحول عداءاته إلى صدقات.. وكانت هذه الصداقات هى رأسماله الأول، إن لم يكن رأسماله الوحيد.

ومع هذا كله فقد كان كامل الشناوى شاعر الدموع كان يبدو فى خلواته وكأنه دمعة كبيرة قد تحولت إلى إنسان.. يعذبه نبوغه.. يعذبه شعره يعذبه حبه..!

كانت اهتماماته وسهراته الاجتماعية تطغى على قدراته الأدبية وكان قلبه أكبر من حبه، وعقله أكبر من قلبه.. كان فى معركة داخلية بين ما هو كائن وما كان يتمنى أن يكون... لكن هذه المعركة قد خلقت منه فنانا يخالط الفنانين ويحبهم ويحبونه أكثر من حبه لزملائه وحب زملائه له!.

كان كامل الشناوى طيفا ضخم الحجم لكن هذه الضخامة لم تحمه من أن يمر بهذه الدنيا، وبكل ما فيها مرورا سريعا كمر النسيم، فلا تكاد تستطيع أن تحدد مكانه من التاريخ الفكرى المعاصر.. هل كان صحفيا... هل كان أديبا... هل كان فنانا.. هل كان هذا كله؟ لقد كان كل شئ فى هذا كله.. لكنه لم يكسب من هذا كله إلا الحرمان فى حياة حافلة بالأخذ والعطاء... ولله فى خلقه شئون!.

* * *

ولما كان كامل الشناوى متعدد المواهب والملكات، فقد كان أديبا وشاعرا وكاتبا صحفيا وأحد ظرفاء العصر المعدودين، فقد أصبح ظاهرة فريدة فى دنيا الأدب والصحافة والفن فى مصر لعدة عقود استطاع خلالها أن يفرض موهبته الأدبية وعبقريته وأن يكون أحد أبرز صانعى نجوم الأدب والفن فى مصر فى تلك الحقبة الثرية المفعمة بالإبداع والابتكار والفن الأصيل.

ولذلك لن يكون عجيبا أن يتناوله محمود السعدنى كأحد ظرفاء العصر بجانب مواهبه الأخرى العديدة، حيث قال عنه[1]:

«كان كامل الشناوى رجلا فريدا بين الرجال.. أعداؤه يكرهونه على طول الخط.. والسبب.. كامل الشناوى نفسه»..

فهو إذا أحب، أحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره، كره بلا قيد ولا شرط، وهو مثل القائد الحاسم، إذا هاجم، دمر هدفه تماما، وإذا انسحب، مضى لا يلوى على شئ.

* * *

وعلاقته بأى إنسان تحددها صفات هذا الإنسان نفسه، فإذا كان إنسانا وسطا.. فكامل يكرهه: «فليس أبغض على قلبى من الشئ الوسط ويستوى عندى نصف الأمى، ونصف المتعلم»!.

وهو لهذا السبب نراه يعشق الأذكياء والأغبياء معا.. ويكره الذين يمتازون بنصف ذكاء والذين يتمتعون بنصف غباوة.. ولكن ـ وهنا العجب ـ نرى كامل الشناوى لا يطبق هذا المذهب على سلوكه هو نفسه فى الحياة.. مثلا، أنه يعشق الحرية ويناضل فى سبيلها ولكن نصف نضال وهو ينشد العدل ويدافع من أجله ولكن نصف دفاع وهو يحمى المواهب ويحتضن أصحابها، ولكن أيضا نصف حماية، ونصف احتضان...

ولابد أن يكون وراء هذا السلوك سر من الأسرار.. ربما كان السر عقدا نفسية تراكمت بمرور الزمن على نفس الصبى الصغير الذى خرج من السيدة زينب ومن بيئته يحكمها ويتحكم فيها سلطان الدين، ليتربع هذا الصبى الصغير آخر الأمر على رأس المجتمع، يبهره ويدهشه ويشترك فى توجيه مصيره، وصنع أحداثه لفترة طويلة من الزمان.

(١) محمود السعدنى، الظرفاء.

ولقد بدأ كامل الشناوى حياته طالبا فى الأزهر، ثم ما لبث أن هجر الدراسة فيه كافرا بالمناهج العقيمة، وبالعلوم الجامدة التى انفصلت عن عصرنا عشرات القرون، وبالجهل النشيط الذى كان ميزة بعض علماء الأزهر فى تلك الأيام، وخرج كامل إلى الحياة ينشد البحث عن شئ يحن إليه ويحبه، عن الشعر عن الفن عن الموسيقى عن الغناء وبمعنى آخر، خرج ينشد البحث عن الحياة فنراه ينضم إلى جمعية للشعراء، ثم يذهب إلى حافظ محمود ليتعلم منه فن الخطابة والإلقاء، ثم يبعث إلى جريدة الأهرام بين الحين والحين بقصيدة من نظمه، ولكن القليل من هذه القصائد كان يرى النور، أما الغالبية العظمى فكان يجد طريقه بسهولة... إلى سلة المهملات.

* * *

ومن طرائف الشناوى.. كان المشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميتة «كجلمود صخر.. وأشياء من هذا النوع ولم يكن يستسيغ أبدا هذه المعانى الجديدة، ولا هذه الرقة التى أخذت تسيل من شعر شبان ذلك الجيل!.

وفكر كامل فى وسيلة ليقنع بها الأستاذ المشرف على الصفحة بأن شعره يستحق النشر، ووجد الوسيلة أخيرا فى «مقلب» فيه كل الاحتجاج، وكل السخط وكل الثورة التى تعتمل فى نفس كامل، وفيه قبل هذا وبعد هذا.. فن جميل.

ومن هنا، ستظل «المقالب» من هذا هى النوع هى هواية كامل الشناوى، وطريقته المثلى فى التعبير عن رأيه بصراحة فى الأشخاص والأحداث.

ونفذ كامل الشناوى «المقلب».. كتب قصيدة من نوع:

سلاما صاحبا لا يعم ولا يجرى

ولا ألما بهـــا نفـــسى ولا تدرى

وهات يا شعر من هذا النوع الذى يعجب الأستاذ المشرف على الصفحة، ثم ذيل القصيدة بإمضاء شاعر مشهور كانت له شنة فى تلك الأيام، وطوى القصيدة، وبعث بها الأهرام، ونشرت الأهرام القصيدة، وكانت فضيحة.

* * *

وهكذا أيضا دخل كامل الشناوى الأهرام، محررا بها، ثم مشرفا على الصفحة.

وكان صيته قد بدأ رغم حداثة سنه ينتشر فى كل الأوساط، ودخل الشاب السمين الأسمر الذى يحفظ الشعر ويقرضه، ويقول النكتة ويجيد حبك المقالب ويقلد الأصوات والحركات، دخل القصور، وجالس الوزراء ورؤساء الوزراء، وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية... محمد محمود.

وتمضى الأيام بكامل الشناوى إلى الأمام، وهو ينتقل من نصر إلى نصر، وشهرته تطبق الآفاق، وصيته يدوى كالطبل، والمال ينهال عليه كما تنهال المياه من جوف القرب ويتبخر من بين أصابعه بأسرع مما يأتى وهو يحب المال ويطلبه ويسعى فى سبيله، ولكنه يحبه ـ كما يقول أوسكار وايلد ـ كالجنتلمان ـ يحبه لينفقه، ويقبض عليه ليتركه يسيل من بين أصابعه!.

ويلتقى كامل بوجوه كثيرة، وأصناف شتى من الناس وأنواع مختلفة من النفوس، وألوان لا حصر لها، عباقرة وأغنياء وزراء وصعاليك فنانون وأدعياء، أصحاب مواهب وأصحاب سلطة، أصدقاء وأعداء، وكامل الشناوى يتفرج ويتأمل ويضحك، ولكنه أبدا... صديق للجميع، ولكن، كيف

يجد القدرة فى نفسه على أن يظل صديقا للجميع، وهو الفنان الذى ينفعل ويضطرب ويتألم ويصرخ أحيانا فى شعره وفى فنه صراخا رهيبا عنيفا سيظل يدوى أبد الدهر فى سمع الوجود.

لا أحد يدرى؟

ذات مرة سأله محمود السعدنى بصراحة جارحة:

ـ كيف تستطيع أن تنافق كل هؤلاء الناس؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيا على قلب الشيخ الذى بلغ الخمسين فقال وهو يكبت فى نفسه غضبا ثائرا:

ـ تعودت أن أجامل الناس، وما تسميه أنت نفاقا، أسميه أنا مجاملة.

وفى سبيل هذه المجاملة ترزح نفس كامل الشناوى تحت أثقال من العذاب!.

ويقول السعدنى:

«ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويجاهد فى سبيل أن يدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام... وإذا كان مكتب الشناوى صالونا يلتقى فيه كل مساء رجال الأدب ورجال الفكر، ورجال الفن، ورجال العلم، ورجال فقط، وأشباه رجال، فباب كامل الشناوى طريق للمواهب الصغيرة إلى المجد والشهرة، وإذا كان وراء كل عظيم امرأة فوراء كل فنان شاب كامل الشناوى وراء الأدعياء أيضا وراءهم بلسانه ونكاته وقفشاته..

ولقد ذكرت من قبل أن كامل الشناوى اختار لنفسه طريقا وسطا فى الحياة.. ينشد العدل ويدافع فى سبيله ولكنه نصف دفاع ويناضل من أجل الحرية... ولكن نصف نضال.. ومن أجل هذا أيضا خاض كامل الشناوى غمار كل المعارك التى خاضها الشعب، ولكنه لم يدخل السجن أبدا، فقد

كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسبا للقتال، حتى إذا هبت العاصفة آثر كامل أن ينحنى لها حتى تمر، فإذا انقضت عاد كامل مرة أخرى إلى النضال.

ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوى، وهو ذكاء من فصيلة «الذكاء العام» للشعب.

* * *

وكما يعشق كامل الشناوى الأدب والفن، فإنه يعشق الليل، الحياة عنده تبدأ عندما يبدأ الظلام، ولا يأوى كامل إلى فراشه إلا عند الفجر، والمؤكد أنه يكره الوحدة، ولديه قدرة عجيبة على العمل وسط مائة إنسان وفى جو صاخب عاصف، وهو يبدو دائما هاربا من شئ فى نفسه، وطاقته المبدعة يفرزها قليلا فى الكتابة، وكثيرا فى الكلام، أنه يعشق الكلام أيضا، وهو أسعد ما يكون عندما يتكلم فى الأدب، وأنت تحس عندما تسمع كامل ينشد الشعر أنه يضيف إلى القصيدة معانى جديدة لم تكن تحس بها من قبل ولكن هذا الولع الشديد بحب الكلام والذى أمتع الآلاف وأسعدهم قضى على كامل الشناوى كأديب، إذ أنه لم ينتج أدبا على ورق، وكل روائع كامل وآثاره الخالدة كانت طلقات فى الهواء.

وأعجب ما فى كامل أنه وهو الذى يقدر النكتة ويعشقها ويضعها أحيانا فوق كل اعتبار، يفزع من النكتة ويرهبها إذا كانت مصوبة إليه صحيح أنه يحب النكتة، ويطرب لها، ويضحك من أعماقه عليها، على شرط أن يكون هو قائلها، وفى جلسة مريحة وبين أصدقاء أعزاء، ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده، إذا كانت تعنيه أن موقفه منها كموقفه من المعارك، يخوضها إذا كانت لا تقضى عليه.

ومهما يكن الأمر، فقد ذاق كامل الشناوى كل ألوان الحياة، ذاق خيبة

الأمل ذاق الفشل، وتجرع النجاح ووصل إلى القمة، وربح الألوف، وعاش كالمهراجات، وأنفق كل ما ربح، وعرف عشرات الألوف من الناس، وأحب وتألم وشعر بالرضا، وشعر بالسخط، وكان دائما ثائرا على كل شئ حتى على نفسه، ولكنه استطاع ببراعة وبذكاء أن يسير على حبل الحياة دون أن يسقط وعاش حياته كما اشتهى أن تكون حياته، واختلفت صورته عند الناس، فمنهم من يعده مازحا، ومنهم من يعتبره فناناً وهو عند البعض أديب وعند الآخرين صحفى، ولكنى اعتقد أنه كل هذه الأشياء، وأنه إنسان وإنسان فريد من نوعه، جمع فى نفسه وبين جوانحه كل ما فى الحياة العريضة المتلاطمة، من متناقضات، وببساطة أننى أعتقد أن كامل الشناوى هو الحياة.

وليعذرنى القارئ إذا ضربت صفحا عن نكات كامل الشناوى وقفشاته، فهى شائعة ذائعة على كل لسان، وليعذرنى كامل الشناوى نفسه إذا كنت قد أخطأت، وهذا الذى كتبته ليس تاريخا لحياة كامل الشناوى، وإلا لكنت احتجت إلى مجلد ضخم قد تنتهى صفحاته قبل أن ينتهى الحديث عن كامل الشناوى، ولكنه مجرد انفعال شخصى بأستاذ زاملته حينا، وصاحبته حينا، واتفقت معه حينا، ولكننى أحببته على الدوام*.



* نشر هذا المقال فى حياة كامل الشناوى.

الفصل الثامن

أغنيات الوداع.... ....

آه من نومى ومن صحوى

ومن ساعة تعلن أو تخفى أسايا

آه منها.. أنا لم أدرك مداها

آه منى.. هى لم تدرك مدايا

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى.. وأنا منها شظايا؟

كامل الشناوى

بالرغم من أحزان كامل الشناوى الدفينة إلا أنه كان عاشقا للحياة يحب أن ينهل منها كل قطرة فيها، ولذلك عشق الليل والحب والجمال..

وقد فسر سر كلماته الشعرية الحزينة فقال: «لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة ويسمون ذلك تفاؤلا».

«لست متشائما، ولست مجنونا، ولكنى أحاول أن أكون صادقا مع ما أشعر به، وما أفكر فيه».

وحتى ينسى أحزانه الدفينة، كان يحاول أن ينغمس فى الحياة الاجتماعية، فيسهر الليل كله فى مجالس السمر والفكاهة، وكان لا يطيق أن يظل وحيدا يوما واحدا وقد اعترف بذلك فقال:

«أمضيت يومى كله وحدى.. أردت أن أجرب هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا ناس؟ قرأت كتابا، وسمعت أغانى، وموسيقى ولكننى لم أتصل بأحد، ولم يتصل بى أحد خيل لى وأنا هكذا وحدى، أنى مريض أتولى بنفسى، زيارة نفسى».

«ولم أشأ أن أثقل على المريض بالزيارة الطويلة فغادرت البيت واختلطت بالناس».

وفى سنواته الأخيرة بدأ يشعر بوطأة السنين وتبدل الظروف والأحوال فكتب يقول:

«أصبحت ساعتى مثلى.. أصابتها الشيخوخة فقدت توازنها، تريد أن تسير فتقف، تحولت دقاتها المنتظمة إلى سعال متقطع. حاولت التخلص منها، فماذا أصنع بها[1]؟

«.... آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى.. لأنى أصبحت مثل ساعتى».

ويلقى لنا أحد تلاميذ[2] بعض الأضواء على ملامح شخصية كامل الشناوى ونفسيته، فيقول:

«كان يعشق فى الليل سحره وغموضه، ويكره فيه غدره وظلمته ولذلك عاش دائما تحت الأضواء..».

«سأله الدكتور الكاتب عندما كان نزيلا فى مستشفاه: «أخبرتنى المرضات أنك تسهر كل الليل ولا تستأثر منه بساعات للنوم والراحة»؟

قال: لأن معظم الموت يأتى فى الليل!

«لم يكن هذا حالة مع الليل فى شبابه أو رجولته، كانت الصحة موفورة والحياة هادئة الإيقاع، والشهرة مقبلة عليه، والدنيا تتألق حوله، والمال ينساب بين يديه، والأمل فى الحب والزواج متجددا ومحتملا، وصحبة الاصدقاء كل يوم وكل ساعة وحتى الصباح ميسورة ومعظمهم عزاب بلا زوجات ولا أولاد».

لأن دوام الحال من المحال ولأنه جاوز الخمسين والزمن يتغير من حوله إذن فلابد مما ليس منه بد وقرر أن يغتال الليل كل ليلة من لياليه وأن يحتمى من الموت وسط الناس بالصخب والمرح وأن يعيش للناس وبالناس..

(١) كامل الشناوى، ساعات.

(٢) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان.

كتب يقول: «عمرى مثل ديونى.. أدفعه على أقساط، فى كل سنة أسدد اثنى عشر قسطا!».

وهكذا كان إحساسه الحاد بالزمن ولذلك لم يقتن ساعة فى بيته حتى «المنبه» فى غرفة نومه كان يأذن له بالدوران ليذكره فقط بموعد هام أو مكالمة عاطفية، وكأنه يعمل لحسابه وليس لحساب الزمن، وكان يصف عقارب الساعة بأنها طرفا مقصلة، فى كل حركة تقصف أرواحا!

وعندما ألمت به الوعكة الصحية فى نوفمبر عام ١٩٦٤ أدرك أنها النهاية، عندئذ رأى الموت رأى العين، وأدرك أن شمعة حياته آخذة فى الذبول، وأن ما بقى من العمر ليس أكثر من ترقب وانتظار لحظة الانطفاء وعتمة القبر.

ومن هنا كانت سخريته من الحياة، وسياقه اللاهث مع الزمن، أكون أو لا أكون ذلك كان سؤاله الملح مع نفسه، وقرر أن يظل حضوره الانسانى غامرا، وأن يعيش ما بقى من أيامه وسط الناس أن يسعدهم ويسعد بهم!

كان يزحم يومه بالحركة المتنوعة وبالنشاط الملون، لم يكن يرضى ليومه أن يمضى شبيها بأمسه.

كان يدرك أن أيامه معدودة، وأن أقرانه يتساقطون تباعا كأوراق الخريف، وبقدر معايشتى واقترابى منه خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، لا أتصوره متشائما كما يعتقد البعض، كان متشائما فقط حينما يخلو لنفسه حتى شعره المتشائم لم يكن يكتبه إلا وهو منفرد مع نفسه أو مختل بها منصرف إليها، وعندئذ تدور برأسه دوائر الشك والتمزق، ولكن كامل وسط الناس كان دوما فرحا مرحا بالحياة يطرب لها وينتشى لسماع نفسه، ويزداد طربا كلما طرب الناس لحديثه وشعره وظرفه ومقالبه، وكان يتساءل فى شعره:

ولم يشعر كامل الشناوى فى حياته بأنه يضحك للحياة كان دائما يضحك عليها أو يسخر منها وهو الذى قال: «فمادام الموت يتعقب حياتنا ومادمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة».

ومن هنا كان إحساسه العميق بالموت وحيرته أمام هذا السر الغامض وراء هوايته الجامحة فى مداعبة المجانين والغائبين عن الوعى بحقائق الحياة وإثارته للشد والجذب بينهم وبين العقلاء.

ولم يتغير كامل الشناوى كثيرا عبر مراحل حياته، كان وهو فى الخمسين طفل المشاعر وإن كبرت ثقافته وأفكاره وتجاربه

والذين عاشوا مع كامل الشناوى طفولته وكهولته يؤكدون ذلك كان إذا ضحك وهو صغير نكأنه يبكى وتدمع عيناه وكان وهو كبير إذا غمره الحزن والألم فاض بسخرية ضاحكة.

وقد عرف كامل الشناوى الموت صغيرا، ولم يجد تفسيرا ولا سببا له عندما توفيت شقيقته الصغرى أمامه، ولم تكن قد أكملت دورتها فى الحياة بعد...

ثم أدرك بعد ذلك قسوة الموت وغدره عندما كان يقف على شاطئ البحر فى بورسعيد، يرى ابن عمه الشاب يلاطم الأمواج فى نشاط وقوة ثم وهو يرفع يديه إلى الله والناس يطلب الحياة والنجاة... و... غاص فى أعماق البحر والمجهول، ثم أخرجوه ميتا أمام عينيه جثة هامدة، وأمسك بيده فوجدها لا نبض فيها ولا روح.

ومن هنا كان فزعه من غدر الموت، وعندما سافر لأول مرة بالطائرة إلى الكويت وإلى سوريا مع الرئيس جمال عبد الناصر كتب يرثى نفسه

ويتخيل حال أصدقائه بعد وفاته،حتى مانشيتات الصحف تخيلها وكانت مطابقة لما حدث بعد غيابه عن عالم الأحياء، وحتى المكان الذى توقع أن تبدأ منه جنازته ويتلقى عزاؤه بجوار مسجد عمر مكرم كان يمر عليه كل يوم فى ذهابه إلى العمل وإيابه إلى بيته، وكان يجزع منه ويرتجف:

«ما أشد نفورى من كل شئ عار إنسان، فضاء، مكان. الانسان العارى من الثياب، أو الذكاء، أو الأخلاق، أو الثقافة يفزعنى!».

الفضاء العارى من الهواء يخنقنى. المكان العارى من الأبنية أو الزرع، أو الماء، أو الحركة يخنقنى !.كل ما هو عار أتهيبه، إلا هذه القطعة من الأرض التى تعترض طريق بيتى أنها لا تكتسى بالزرع، أو الماء، أو العمارات، أو الحركة، ولكن تكتسى بسرادق واسع لتستقبل به الناس وتودعهم وأى ناس هؤلاء الذين يلتقون بها؟ إنهم أصدقاء الموتى يجيئون ليشيعوا جنازة، أو يتبادلوا العزاء وتلمح على وجوههم الوجوم والكآبة والوفاء! كلمات واحدة يرددونها ويسمعونها والأرض المسكينة لا تكاد تخلع سرادقها وتعرى، حتى تعود وترتدى نفس السرادق من جديد!

والذين يترددون عليها اليوم ليعزوا فقيدا، سيصبح كل منهم ذات يوم فقيدا يعزى فيه الناس... هنا فى هذه الأرض التى تتعرى يوما وتكتسى بضعة أيام؟؟

كلما استقبلتنى هذه الأرض وهى تتدثر بقطع القماش المرفوعة كالحائط انقبضت نفسى!.

لا أدرى هل أشعر بالانقباض لأنى أعزى فى ميت، أو لأنى أشعر بأن المقعد الذى أجلس فيه لأعزى اليوم سيجلس فيه غيرى غدا ليعزى أهلى فى موتى!.

ولكن كيف نفكر فى الموت ومازلنا أحياء وهل نستطيع أن نفكر فيه بعد ما نصبح موتى!

إن العقلاء هم الذين لا يفكرون فى الموت وعبثا أحاول أن أكون واحدا من العقلاء، كان يخاف الموت فى كل شئ ينبئ بالخطر يخشى الموت عندما يمشى فى الليل تحت أسلاك الترام والتروللى باص، يخشى الموت فى العربة اللاهثة، والمبنى القديم والأسانسير المتعب.

وزملاء كامل الشناوى فى جريدة الأهرام يتذكرون خوفه الشديد إبان الحرب العالمية الثانية عند سماعه صفارة الإنذار، فكان يهرب إلى دورة المياه ويغلقه خلفه ويظل فى مخبئه فترة كافية حتى بعد إطلاق صفارة الإنذار، فربما كانت هناك طائرة ألمانية مختبئة فى السماء ولم ترصدها الكشافات وكان يؤكد لزملائه أن أول ما تستهدفه طائرات المحور بعد المواقع العسكرية دور الصحف التى كانت بوقا للحلفاء فى هذه الحرب.

وكان كامل الشناوى يخطئ كثيرا ولكنه كان قليل الذنوب وكان رأيه أن البشر كالأنبياء والفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من الخطأ، أما البشر فمعصومون من الصواب.

وعندما سأله صديقه جليل البندارى: ما هو الخطأ الذى يتردى فيه الانسان وما هو الذنب؟

قال: إذا أهملت صحتك فهذا خطأ وإذا سرقت أدوية غيرك فهذا ذنب وأنا فى حياتى لم أسرق الأدوية، ولكنى أهملت دائما صحتى.

وسأله: من هم سكان الآخرة؟

قال: «إن الدنيا تتسع لمن يغمضون قلوبهم وعيونهم ويغلقون آذانهم وعقولهم ولكن الآخرة لن تتسع لهؤلاء أبدا، فما جدوى أن يبعث فى العالم

الآخر، من لم يحسوا ما فى العالم الأول من عظمة وجمال».

وسأل كامل الشناوى: عندما تهدى كتابا لك إلى صديق يقول لك أنه لم يقرأه فماذا تفعل؟ وأجابه جليل البندارى: أغضب...

فقال كامل الشناوى: فما بالك بهذا الكتاب الفخم الذى ألفه الله وسماه الدنيا؟ وهل يسر الله ألا يقرأه أحد بحجة أنه ناسك أو زاهد أو راهب؟ أن من يظنون ذلك يعانون أمية فى الإيمان.

ثم قال: ومن واجب الناس أن يقرءوا الحياة ويمارسوها بكل ما فيها.. عليهم أن يواجهوا فتنتها ومن استطاع مقاومة الفتنة فهو الذى يستحق أن يبعثه الله.

وهكذا كان كامل الشناوى يرى الحياة والآخرة ويفهم معنى الخير والشر، لقد تجاهل حقائق الحياة التى لا ترضيه من خلال نظرته الرومانسية واعتبرها غير قائمة ولكن إلى أى مدى يملك الانسان المقيد بحدود الواقع أن يتجاهله؟!

قد يستطيع أمام الدمامة أن يغمض عينيه، وأمام الأكاذيب أن يسد أذنيه وأمام الصراع أن يدير له ظهره وأمام الإساءات أن يتناساها ولكن ماذا يفعل أمام الحقائق الأخرى القاهرة التى تقتحم كيان الانسان وتفرض نفسها عليه وفى داخله.

ماذا يفعل كامل الشناوى أمام الموت وهو القائل بأن ضوء الحقيقة كضوء الشمس يخترق الحجب والظلمات، ليس صدفة أن تكون الحرية أكثر ما قدسه فى حياته ودافع عنه بكل قواه.

كان الموت هو الحقيقة الوحيدة الذى لا يستطيع أن يلغيها بتجاهلها، وكانت الحرية هى الوهم الوحيد الذى لا يستطيع أن يعيشه بالتمنى: لأنه

لا حرية لانسان يحب الناس إلى حد الالتزام بحمل نصف أعبائهم وحده..

وبين هذين القطبين ـ الموت والحرية ـ كانت الأرض التى اصطدم فيها خيال كامل الشناوى بحقائق الوجود.

وإذا كانت المواجهة صعبة ونتائجها وخيمة، فأولى به أن يهرب، وهرب كامل الشناوى .. أو كان يحاول أن يهرب دائما من مواجهة الحقيقة إزاء قضية الموت والوجود وكان السهر ودوام السهر هروبا من الحقيقة بوعى وبلا وعى...

كان يأوى إلى فراشه قبيل الفجر أو قبيل الشروق، وكان يسخر قائلا: آخاف أن ترانى أول عصفورة تستيقظ فى جاردن سيتى فى عودتى إلى المنزل هذه الساعة وتبلغ عنى البوليس.

وكان أهل منزله وهما سيد وفاروق ابنا شقيقه أبو الفضل وخادمتاه سعديه وباتعة يستيقظون مبكرا حال عودته ليسمعوا منه عبارة «صباح الخير» وعندئذ ينام وسط الجلبة وحركة الشارع...

لم يكن يقوى على مشاركة حياته الليلية كثير من الأصدقاء وكانت علاقاتهم به ليلا تتحول إلى إدمان بعد أول سهرة معه وكيف لا ومجال كامل الشاوى أنس وبهجة وشعر ومرح، ولم لا ونجوم الفن والأدب والصحافة يتحلقون حوله، وهو الكريم الحاتمى الذى يصر على دفع الحساب كل ليلة من مال فكره وفنه ونبض قلبه.

وكان يتعجب فى تأملاته الساخرة من الانسان الذى وهبه الله عقلا وقلبا يحب ما شاء له أن يحب فى كل يوم وفى كل لحظة فإذا به يكفر بنعمة ربه فيغيب عقله ويحبس قلبه طواعية فى أسر حب واحد بدعوى الاخلاص وما هو بالإخلاص وإنما حب التملك والأنانية!.

نعم.. كان أشد ما يؤلم كامل الشناوى أن ينفض من حوله الأصدقاء والتلاميذ إلى الزواج والحياة الروتينية التى تسمى بالاستقرار وهو الذى عاش حياته يعربد فيها حركة ومرحا وحبا وتألقا بلا زوجة ولا أولاد..

فقد كان يخشى يوما أن يصبح وحيدا بلا أصدقاء يسهرون معه ويحتمى وسطهم من هجمة الموت ولذلك كان فى كل يوم يستقبل فى حياته أصدقاء جددا بينما يخرج آخرون وكان يقول:

«كلما ضاع منى صديق، أبكى عليه كما لو كان قد فارق الحياة وأدفنه فى قلبى.. وضعت اليوم يدى على صدرى فخيل إلى أنه مقبرة تضم مئات من الأضرحة»!

كان يعجب من أمر الحياة والناس وتقلبات الزمن فكان يتعجب لأن الرجال خلعوا الطرابيش وأنهم أصبحوا لا يجدون حرجا فى إرسال شعورهم وتلوين ملابسهم وكل ذلك كان فى فترة ما أشبه بالمقدسات وكان الطربوش رمزا للكرامة وكانت ألوان ملابس الرجال فاتحة أو غامقة وكانت شعورهم تتدرج من الزيرو إلى نمرة ثلاثة[1].

خلع كامل الشناوى الطربوش الأنيق كما خلع من قبل العمامة الأنيقة و«جبة» أولاد العلماء، وكانت ملابسه جميلة وغالية ومتقنة، وكان يتعامل فى آخريات أيامه مع ترزى أخرس يدفع له خمسين جنيها فى البدلة الواحدة، وكان أكبر أجر فى تلك الأيام لا يتجاوز العشرين بحال، وكان يصر على موضة زمان وألوان زمان وكان يشترى حمالات البنطلونات من الخارج ويرفض استعمال الحزام وأن يستعمل الحمالات المطاطة للجوارب وعندما يأكل فى منزله كان لا يستخدم الشوكة والسكين ويجد متعة كبيرة فى تناول الطعام بأصابعه مباشرة ودون تؤدة وتأنق لا كما يأكل أمام

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان ـ ص ١٥٥.

الناس خارج بيته!

وكلما اهتزت صحته تحت وطأة المرض والسهر والحب والحزن زاد إسرافه وإتلافه للمال فى كل ما يأتى إليه بالمرض ويطيل السهر ويصل ما انقطع وصالا وقربا وحبا ومرحا.

وبدأت كتاباته تعكس قلقه وهمومه:

«كلما نظرت إلى أمسى ويومى أصابنى الفزع!! فأنا حتى هذه اللحظة أعيش على الدين ليس عندى ما أملكه حتى ملابسى فهى بالتقسيط وقد عرفت ناسا عقلاء حسبوا لغدهم الحساب فلما أدركتهم الشيخوخة مثلا وجدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب!، أما أنا فلا أستطيع أن أحصل على ما أروى به ظمئى إلا بعرق عقلى ولا أستطيع أن أظفر بما يمسك رمقى إلا إذا أنهكت ما تبقى من قواى، وفى أول كل شهر أواجه وحشا مفترسا هو أقساط الديون التى لا تريد أن تنتهى!، تمنيت لو كنت فلاحا أملك فدانا أزرعه بنفسى، ولا أقرأ إلا الخضرة والسحاب، والشمس الساطعة، وظلام الليل، ولا أسمع من الموسيقى إلا زقزقة العصفور، وحفيف الأوراق، وأصوات الحيوانات، وأزيز الساقية!».

وكان يحب التدخين، كان يدخن فى اليوم الواحد ثمانين سيجارة «كابيتوى»، وكان يكره السجائر ذات «الفلتر» لأنها حائل غير طبيعى بين طعمها ومزاجه.

وقد عرف كامل الشناوى تبذير المال منذ الصغر فوالدته كانت تدلله بقروش إضافية فوق مصروفه اليومى فقط ليبقى فى البيت بعيدا عن سخرية أولاد الجيران من بدانته وكانت تطيب خاطره بقروش أخرى حتى يشعر باعزازها له أكثر من أشقائه الرياضيين الأصحاء.

وكان كامل الشناوى قد كتب مقالة بعنوان «الفقر الذكى والثراء الغبى» فاتهمه الأغنياء بأنه يثير عليهم الفقراء واتهمه الفقراء بأنه يحاول تخديرهم بكلام لا يسمن ولا يغنى من جوع، وكان موقف طه حسين من مقاله .. أن رد عليه بكلمة لاذعة اختار لها عنوان «جنة الشوك» يقول فيها: «قال الطالب لأستاذه الشيخ: ألم تقرأ ما كتبه الأستاذ كامل الشناوى فى جريدة الجمهورية أمس، وأنبأنا بأن يده لا تمسك المال إلا كما تمسك الماء الغرابيل»؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو أكثر قراءة القرآن لصد عن ذلك صدودا، ولأنفق حين يحسن الانفاق، واقتصد حين يجب الاقتصاد قال الفتى لأستاذه الشيخ: وماذاك؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه: وأنت أيضا لا تقرأ القرآن ألم تسمع قول الله عز وجل: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» وقوله عز وجل قبل هذه الآية: «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا».

قال الفتى لأستاذه الشيخ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لقد هممت أن أذهب مذهب الأستاذ كامل الشناوى.

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إياك أن تفعل فإن الله عز وجل قد وصف الذين أخلصوا قلوبهم له فقال فى بعض وصفهم «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» فاحرص جهدك على أن تكون من هؤلاء.

ثم كتب الدكتور طه حسين على هامش كلمته «هذه العبارة لا تنشر وإنما تعرض على كامل الشناوى»..

لكن كامل نشرها فى يومياته وكتب يقول:

«لقد أمسك بى الدكتور طه ورمانى فى جنة الشوك»!

وكل ما قاله الدكتور طه لا يخضع للجدل، فهو من صميم القرآن الكريم الذى أحفظه وأومن به، وأعترف بأنى أفهم بمنطق العقل، مدلول ما ورد فى كتاب الله عن التبذير والمبذرين .. ولكن منطق العقل يتعارض أحيانا مع منطق السلوك!.

ولقد قادنى سلوكى بمنطقى الخاص إلى أن أبذر فى إنفاق المال وهو منطق يقوم على أن التبذير الذى يجعلنى من الشياطين، ليس هو التبذير فى المال بالانفاق، ولكن التبذير فى العمر بالحرمان من المتع الحلال والحرمان يقتضى التقتير فى الإنفاق، وهكذا يصبح لرصيدى الحياة وهو شر أنواع التبذير والتبديد!

كان هذا منطق سلوكى فى فهم التبذير وهو منطق يتعارض مع منطق العقل أن كان ذنبا فأنا التلميذ الفتى لم أقع فيه وحدى ولكن وقع فيه أيضا الأستاذ الشيخ!

ألا فليقل لى أستاذنا وشيخنا طه حسين ماذا جمع من المال؟ وماذا اقتنى غير البيت الذى يسكنه الآن، وكان إلى سنوات قليلة مضت يستأجر السكن وينفق عرق جبينه على الديون!

ماذا جمع طه حسين؟ ماذا جمع الرجل الذى ملأ الدنيا، وشغل العالم وربح مئات الألوف من الجنيهات!

وليسمح الدكتور طه أن أستعير أسلوبه فى «جنة الشوك» وأختم به كلمتى على هذا النحو:

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ: أليست هذه حقيقة .. حقيقة تؤلمك.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إنها لا تؤلمنى.. إنها تشرفنى!

وكامل الشناوى كان «مبذرا أمثل» رغم أنه لم يكن «ثريا أمثل» وكان المال فى جيبه مسافرا «ترانزيت» يأتى سريعا ويذهب سريعا، ولم يعرف فى حياته فضيلة الادخار والجنيه الأبيض أكثر فائدة اليوم وألزم من اليوم الأسود، ولم يجد منفذا للمال إلا ولجأ إليه يقترض منه وتراكمت ديونه لدور الصحف التى عمل بها وعندما ذهب الورثة إلى خزانته فى بنك مصر، وفتحوها، لم يجدوا مليما أبيض.

ويروى بعض معاصريه أن كامل الشناوى قد عرف ليالى الكباريهات وهو شاب ولكنه لم يدخل الكباريه بعد الثورة وأصبح مقلا فى شرابه، وكان يقول: أن الظروف السياسية تلعب دورها الهام فى تغيير العادات والتقاليد وملامح الحياة وكان يحتفظ فى ذاكرته بالعديد من قصص الغرام التى عاشها جيله من الأدباء والصحفيين والفنانين ورجال السياسة فقد كان قلبه وقلوبهم مفتوحة على الحب والصفاء والصداقة الحقيقية التى تصمد للزوابع والخلاف!..

وكانت ذاكرته كأنها قائمة تضم أسماء العديد من الفنانات الشهيرات ويعرف أسماءهن الحقيقية عندما كن غانيات أو راقصات متواضعات.

وعندما كان يواجه الخطأ من أصدقائه يقول: «اغفر دائما حتى لأعدائك فليس هناك ما يضايقهم أكثر من ذلك»..

من هنا ظل كامل الشناوى صديقا لكل الفنانين على اختلافهم وكان وهو الفنان الفريد المواهب والرقة والمرح يشعر وسط سهراته مع الفنانين بالصداقة الحقيقية والألفة والمرح، وكان يقول أن ولادة فنان لا تقل فى الأهمية عن ظهور القادة والزعماء والمجددين وكما يتمنى لو أنه ملحن يشهد

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان ـ ص ١٥٧.

ولادة المواهب والألحان وكان يتمنى لو كان ثائرا مجددا مثل جمال الدين الأفغانى وكان دائما يردد عبارته التى خاطب فيها الفلاح المصرى «إنى أعجب لك كيف تشق الأرض بفأسك، ولا تشق بهذا الفأس قلوب ظالميك».

ولم أعرف كامل الشناوى المقامر، ولكن سلوكه فى حياته ومع نفسه وحبه الطائش كان مقامرة كبرى ومما عرفته أن كامل الشناوى كان فى الماضى مقامرا كبيرا لا يتوقف عن اللعب مهما كانت خسارته ويقال أنه أفلس ذات ليلة ولعب على سيارة «بنتلى» فاخرة كان قد اشتراها منذ أيام وخسرها وعاد إلى منزله على الأقدام، أنه اقترض ألف جنيه لقضاء أجازة صيف بالاسكندرية وعاد إلى القاهرة صباح الوم التالى بعد أن خسر كل القرض على مائدة القمار.

وحال كامل الشناوى مع المال، كان حاله مع أفكاره الذكية وآرائه اللماحة المبددة فكان يتكلم أكثر مما يكتب المهم عنده الفكرة وليس صاحب الفكرة المهم أن تصل الفكرة وليس أن يتبناها وكان يلقى بأفكاره فى سهراته ليقتات عليها غيره من الأدباء والصحفيين والكتاب.

كان يقول: «يظل الانسان عاقلا إلى أن ينشر كتابا».

وقال: «لن يصل أحد إلى الكمال من أبناء الجيل الجديد ولن يقترب من الكمال إلا إذا بدأ يصبح عنده شئ يعطيه للآخرين».

وكانت حياته مجموعة من المواهب ومجموعة من التناقضات تماما كما كانت مجالسه، وفى مجلسه الحاشد دائما كان هناك خليط لا يجمعه ولا ينسق بينه سواء «بورجوازيون» جاءوا يستمتعون بحديثه الجذاب يستروحون فيه نسمات الماضى القريب، وثوريون جاءوا يعرفون منه الأحداث الوطنية المتلاطمة التى عاشها سياسيا وصحفيا، والتى لم تزعزع حبه أو إيمانه بهذا البلد وأدباء يجلسون حوله يروى لهم الشعر ويحول

النصوص القديمة فى مسامعهم إلى صور ساخرة متدفقة بالحياة وفيهم أيضا فنانون بوهيميون أو ضائعون لا يجدون من يفهم نزواتهم ومن يحبهم ويغفر لهم غيره، ومجاذيب من أبناء الله يوقظون حبه الصوفى وعطفه العميق على مأساة الانسان وكان ما يبعثه من حيوية وتدفق فى مجالسه كشاعر جذل وراوية عذب ومحدث على ثقافة وعلم وتجارب وذكريات يجعل الليل مهما طال معه قصيرا.

ومن الظواهر المشهودة فى الأدب المصرى، أن الشاعر أو الأديب الذى يضحك كثيرا فى حياته، يبكى كثيرا حينما يخلو إلى نفسه ويمسك بقلمه.

هكذا كان شاعر النيل حافظ إبراهيم[1].

كان من أظرف ظرفاء عصره، وكانت له نكات مشهوره ومع ذلك فانه عندما ترجم عن أدب الغرب اختار «البؤساء» لفيكتور هوجو وعندما كتب نثرا «ليالى سطيح» كانت حروفها دموعا وألما وشجنا وعندما نظم كان شعره عذابا وشكوى وأنينا...

وهكذا كان الشيخ عبد العزيز البشرى وعبد الحميد الديب ومحمود غنيم. وأحمد رامى إذا حدثك ملأ الكون من حوله رقه وجمالا وظرفا، وإذا نظم فأغنياته لوعة وحرمان..

وعلى غرارهم كان كامل الشناوى الذى طالما ملأ الليالى طربا، وبهجة وإيناسا، كان إذا خلا الى ذاته التقت به الأحزان والشوك واليأس، وهو إذ يتلفت حوله يذهله هذا الشعور بوحدته فى الحياة حتى بين ذويه وأهله:

أينقضى العمر بين أهلى وأشتكى لوعة الغريب
ويرتوى الورد من دموعى ليصبح الشوك من نصيبى

(١) راجع مقال صالح جودت عن كامل الشناوى/ الهلال/ ١٩٦٦.

وعندما داهمه المرض تتازعه نداء الموت والحياة.. وعاد إلى الحياة تطحنه دورة الزمان وخشيته من الله ويوم الحساب:

آه من دورة الزمـــــان دهتنى ... ورمتنى فى غمـرة النسيان

قـــــد تخلت عناية الله عنى ... وتخلت عناية الشــــيطان

ضاق بى معبدى وضاقت حانى ... لا صلاتى تجدى.. ولا ألحانى

هكذا كان الناس يتهافتون على مجال كامل التناوى ويسعدون وينهلون من بحر عطائه وحديثه وشعره وظرفه أما هو فكان حاله مع نفسه مختلفا..

كتب يقول: «كثيرا ما أسال نفسى: لماذا أنا شقى؟ فيم هذا الألم الصامت العميق؟ فيم هذا الحذر أن أحزن حتى لا أتألم.. والحذر من الفرح حتى لا أحزن، فإن الحزن فى حياتى يتعقب الليل والنهار».

«مامن ابتسامة ارتسمت على شفتى إلا دفعت ثمنها دمعا وأنينا، وما من أمل مشرق فى خاطرى إلا أعقبه أسى يضنينى».

وكان قاسيا بعض الشئ مع نفسه ومع الآخرين خاصة بعد المرض الذى ألم به فى عام ١٩٦٤ كان يرى كل شئ حوله يتقلص واشياء كثيرة فى داخله تخمد أو تتهاوى وكل شئ يذهب ولا شئ يجئ.

كان يقول «الناس جميعا يتمنون أن تطول أعمارهم هذه هى القاعدة [illegible] تشذ عنها بعض المفكرين والفلاسفة وهواة الانتحار، ولست والحمد لله واحدا من هؤلاء ومع ذلك فإنى كثيرا ما أتساءل: هل طول العمر نعمة أم هو عقوبة؟».

وسألته إحدى صديقاته: ألا يساورك الخوف من الموت؟

وأجابها بقوله: «ما دمت حيا فلن أحس بالموت حتى أخافه، وإذا مت فإنى سأصبح عاجزا عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة إن الموت ليس مشكلة، الحياة هى المشكلة».

وإيمان كامل الشناوى بالله كان لا يعادله إلا النفور من الشرك به وكانت ذروة إيمانه تتجلى فى تأكيده على حقه فى مغفرة الله.. أليس «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» كما يقول رسول الله ﷺ.

وكان يقول: «إذا جاء يوم الحساب فلن يحاسبونى قط على سيئاتى لأن الحسنات يذهبن السيئات كما يقول الله فى قرآنه الكريم».

وعندما غاب عن الوعى عام ١٩٦٤ كتب بعد عودته إلى وعيه يقول:

أمضيت بضع ساعات فى عالم اللاوعى، ذهبت إلى الجنة وعشت فى قصورها المشرفة على نهر الكوثر، وكانت بها نافذة تطل على طاقة جهنم..

ورأيت هناك عددا كبيرا من المفكرين والشعراء والفنانين، وكل من ساهم فى تعمير الدنيا وتجميلها... واكتشفت أن الطريق إلى الآخرة ليس فيه حساب، ولا عذاب، ولا حواجز جمركية ولا جوازات سفر.

ثم كتب وهو يستشرف النهاية:

«أنا لا أخشى آخرتى.. لأننى أتصورها أكثر جمالا وفنا وخيرا وحقا من الدنيا لقد كنت فى شبابى أتهيب لقاء الله لأنه لم يكن عندى من مؤهلات اللقاء ما يشجعنى على أن ألقاه. كان إيمانى شعورا فقط، وقد أصبحت بحمد الله جديرا بأن ألقى ربى فى كل لحظة فأنا أؤمن به بفهم وأفهمه بإيمان.

«أنا ابن هذه الدنيا التى خلقها الله ولم أغمض عنها عينى لأنى أدركت عظمة هذا العمل الفنى الإلهى فإذا اختارنى لآخرته فسأكون جديرا بهذه الآخرة بعد أن دخلت تجربة الدنيا ويالها من تجربة[١]!».

---

(١) كامل الشناوى/ ساعات.

أنشودة البجعة

وفى ٧ ديسمبر ١٩٦٤ احتفل بعيد ميلاده السادس والخمسين وكان أثناء احتفال الأصدقاء به شاردا حزينا، وكأنه يحس بدنو النهاية وبقرب انطفاء شمعة عمره الحزين.

وقد قيل أن البجعة عندما تحس باقتراب أجلها ترسل أعذب أناشيدها قبل الوداع وفى لحظ حزن عميق كتب كامل الشناوى بعض الخواطر فى عيد ميلاده خطها بقلم مداده اليأس والحيرة والأسى، وكأنه يودع فيها الحياة، فقال:

«صحوت على صوت رقيق يهنئنى بعيد ميلادى إن كلمات التهنئة والعيد والفرح أصبحت غريبة على أذنى فأنا فى عذاب دائم من أوهامى وظنونى تمر بى الأيام فلا أدرى أأبكى عليها أم أبكى منها إن عبء الكهولة يرهقنى وشبح الشيخوخة يحيفنى، ومع ذلك أريد أن أحيا، وأريد حياتى أن تكون إلى أمام وليس أمامنا إلا الموت».

«لقد كسبت من الأيام تجارب ومعلومات وعشت فى أعظم حقبة فى تاريخ الإنسانية فقد عاصرت اختراع الراديو والسينما والتليفون والتليفزيون وتفجر الذرة».

«ولقد أخذت من الزمن كثيرا، ولكن ما أعطيته أكثر.. فقد أعطيته كل صحتى، وكل أحلامى».

«خذوا تجاربى، وثوبى، ومأواى، وأعيدوا لى طفولتى بلا تجارب ولا ثوب، ولا مأوى».

«ولقد أحنت السنون ظهرى، وأنى أفضل أن أكون هرما عاليا عاريا، على أن أكون صحراء تغطيها الرمال والأعشاب».

ألا تزال فى العمر بقية؟

أكثيرة هى ياترى؟

«لقد لهثت وراء الأيام الذاهبة، فمن أين لى الأنفاس التى ألهث بها وراء ما تبقى لى من الأيام؟!

وتقترب ساعة الوداع..

كان أصدقاؤه يحتفلون بعيد ميلاده كعادتهم السنوية فى منزل محمد حسنين هيكل، وكان كامل ينتظر هذا الحفل ويتألق شيه ويبدع وأدار الأصدقاء جهاز التسجيل بأغنية لصباح تهنئ فيها كامل الشناوى بعيد ميلاده «سنة حلوة ياحبيبى» وأطفأوا الشموع ثم أضاءوا النور فإذا بكامل يبكى.

كان يدرك أن هذه السنة لن تكون حلوة ولذلك بكى.. ويقترب موعد حفل عيد ميلاده السابع والخمسين بحسب يوم مولده عام ١٩٠٨.

ويعود بعض أصدقائه من الخارج خصيصا ليشهدوا الحفل معه ولكنه خدعهم ودخل المستشفى..

وعندما قالت له الممرضة: سيتم شفاؤك هذا الأسبوع.

أشار بأصبعه: أبدا.

وقالت له نهلة القدسى (زوجة محمد عبد الوهاب):

ـ عندى لك سهرة لطيفة بعد ما تخرج.

قال: لا.. هذه المرة سيطول الرقاد.

* * *

وأثناء غفوته الطويلة فى المستشفى كان يفتح عينيه بين الفينة والأخرى، وشفتاه تتمتم بصوت هامس فيه الكثير من الأسى واللوعة:

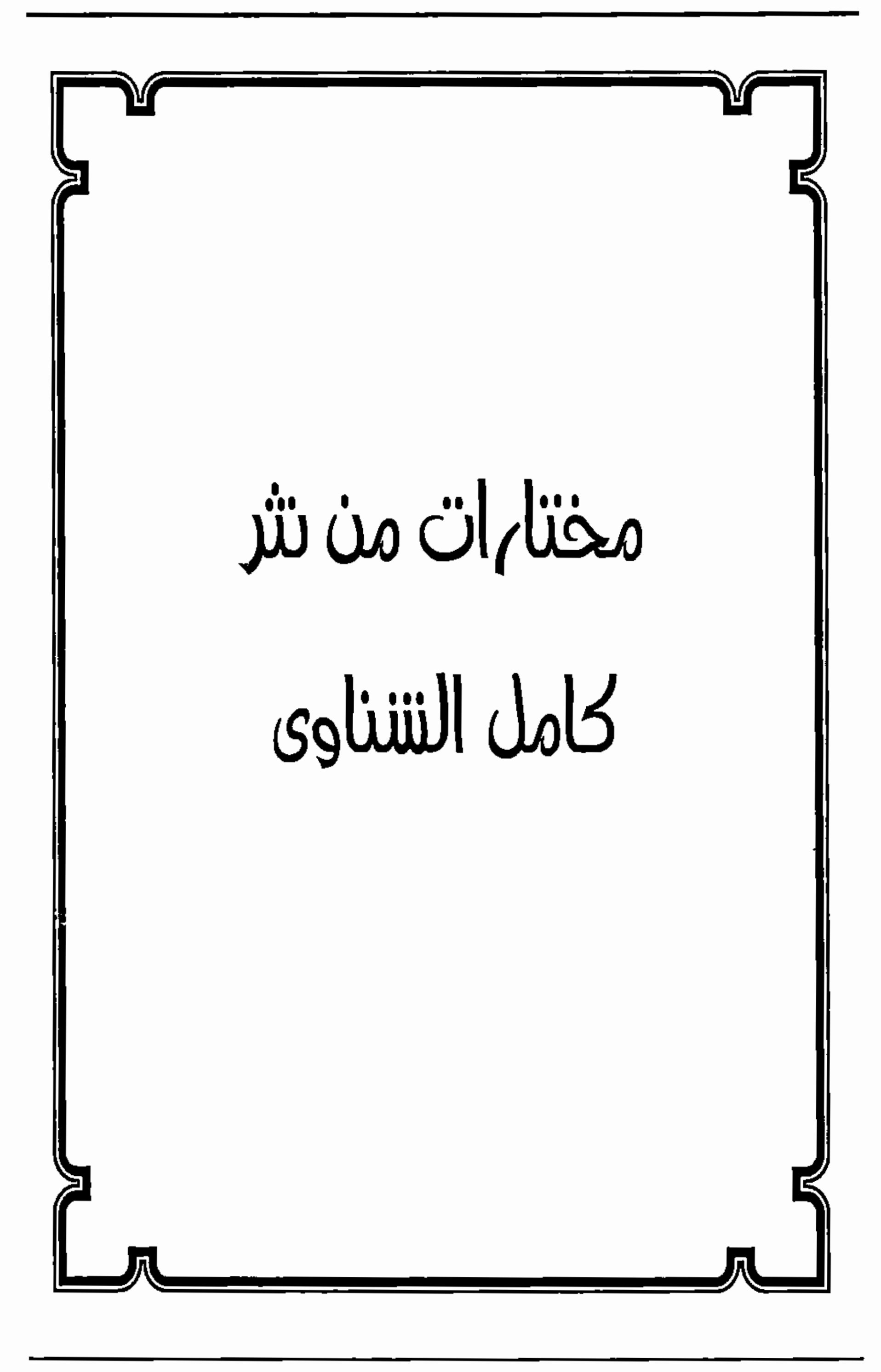
آه من نومي ومن صحوى ... ومن ساعة تعلن أو تخفى أسايا

آه منها.. أنا لم أدرك مداها ... آه منى.. هى لم تدرك مدايا

حطمتنى مثلما حطمتها ... فهى منى.. وأنا منها.. شظايا!

وأغمض الشاعر العاشق المحروم عينيه، وودع الحياة فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ ليترك لنا ذوب قلبه فى كتاباته الشعرية والنثرية تروى لنا حكاية مع الحب والليل والشك والحرمان وقصة شاعر حساس أحب بصدق ولكنه اكتشف بعد رحيل العمر أنه كان يجرى وراء سراب خادع!!.




مختارات من نثر
كامل الشناوى

تأملات شاعر

من ساعات كامل الشناوى:

طريق حياتى

● ما أشبه طريق حياتى ببيتى، نصفه مفروش والنصف الآخر خال من الآثاث.. أتلفت ورائى فأجد الأيام تغطى طريقى، وأنظر أمامى فأرى الطريق عاريا إلا من يوم أراه، ويوم لا أكاد أراه!

يا شقوتى من طريقى.. يثير خوفى كلما تقدمت خطوة، ولا أستطيع أن أرجع إلى الوراء فهذا محال..

هل أقف مكانى حتى لا أصل إلى العراء الذى ينتشر كالظلال القاتمة؟ إن الوقوف والتجمد، كلاهما موت، وأنا لا أخاف الموت، ولكنى لا أسعى إليه!

وإذا ما أرسلت بصرى أمامى أحسست الوحشة والكآبة، وشعرت بأنى فريسة لخيانات تنبع من أعماقى. وليس هذا الشعور وهما. فقد خاننى عمرى... سرق شبابى واختلس قواى. وخاننى ذكائى فظننت الأبيض أسود، والأسود أبيض! وخانتنى ذاكرتى فنسيت من أنا؟ توهمت أنى ما أزال قادراً على أن أجدد صباى بانفعال عاطفى جديد... وفى لحظة تبين لى أنى لا أجدد صباى، ولكنى أجدد شيخوختى! فأفقت من غفلتى، وأخذت حذرى من خيانات العمر، والذكاء، والذاكرة... ولم يسعنى إلا أن أرضخ للحقيقة، وأهرب من انفعال الجديد!

* * *

أنا والشتاء

• قالت لي: أنت في قمة الحب هذه الأيام.. البرد لاذع، والجو يهدر ويتلاطم كموج من صقيع... وأنت تحت البرد، والموج، والصقيع! ووضعت كلتا يدي على ركبتي، وأخذت أنحني على نفسي، وأنكمش وأزعق، حتى لا تسمع صياح فرائصي وهي ترتعد!

وقلت: إني أحب الشتاء فعلاً..

ـ إن ما يريحك يعذبني... فأنا أكره هذ الشتاء الذي تحبه .

قلت: إن الحب كالقدر. أحياناً يمنحني الراحة، وأحياناً يتعقبني بالعذاب... ولا حيلة لي في أن أهرب منه إذا عذبني. هل تستطيعين أن تهربي من القدر!

- و لم لا؟

قلت: أنا شخصاً لا أستطيع أن أهرب من قدري... من حبي. وإذا فقدت الحب حقيقة.. وجدته ذكرى!

ـ أنا أحدثك عن الشتاء، وأنت تحدثني عن الحب!

قلت: إن الشتاء لي.. حب نابض حار، يلسع مشاعري، ويثير نشوتي، فتبدو لي الحياة كلها ضحكة عالية مرحة، فكرة عميقة واضحة، قطعة موسيقية، قصيدة شعر، شباباً متجدداً، فتاة حلوة جذابة في العشرين، وأنا مثلها في... العشرين!

إني أحب شمس الشتاء التي تختبئ في الغيوم، فإذا ظهرت لحظات..بادرت السماء فردتها إلى المخبأ بصيحات الرعد، ووميض البرق،

ودموع المطر...

أحب نهار الشتاء العريان إلا من الضباب... أحب ليله يتدثر بالمعاطف، والأردية، ويقتحم السهرات الهادئة والصاخبة... يأكل بنهم، ويشرب بنهم. ويمرغ وجهه، ويديه وساقيه.. على لهب المدافئ!

ـ أما زال هذا شعورك بالشتاء؟

قلت: كان هذا هو شعورى به طوال عمرى!!

ـ والآن؟

قلت: يخيل لى أنى لم أعد جديراً بحب الشتاء!

ـ لقد أصبحت إذن لا تقوى على البرد مثلنا؟

قلت: أو على الأصح، قالت فرائصى المرتعدة... نعم!

ـ وكيف راح حب الشتاء الذى زعمت أنه قدر؟! هل عرفت كيف تهرب منه؟!

قلت: لم أهرب منه... وإنما هو الذى هرب منى... هرب من سنى!!

* * *

مأساة إنسان مثالى

● رقيق، ذكى، عالم، يؤمن بالله والقيم، والإنسانية..، افترقنا سنوات.. وزارنى بغتة، ولم أكد أراه حتى ضممته إلى صدرى فى شوق وحنان، وقابلنى بفتور، صافحنى بيد نائمة كضمير ظالم.. وحيانى بابتسامة خافتة كصوت مبحوح!.

وبعد ما أمضينا معاً ساعات خيل لى أنه شخص آخر!! لقد أصبحت رقته ضراوة، وصار ذكاؤه خبثاً، وتخلت عنه ثقافته، واستحال إيمانه بالله، والقيم، والإنسانية.. إلى سخط جارف على الحياة! وعرفت مأساته.لأنه يعنى حالة نفسية وبيلة، لقد أخبره الأطباء أنه لا ينتمى إلى أحد الجنسين... وأنه لابد من إجراء جراحة تحوله من رجل إلى امرأة، أو تحوله من امرأة إلى رجل... فهو يحقد على الرجال لأنه ليس منهم، ويحقد على النساء لأنه ليس منهن!

وقد جعلته مأساته ينقلب فى سلوكه من إنسان مثالى يعيش فى مجتمع.. إلى وحش مفترس يعيش فى غابة!

ولم أحاول أن ألومه، أو ألعنه، أو أنقم عليه، فإن مأساته الرهيبة تحميه من اللوم، واللعنة، والنقمة.

* * *

التليفزيون في بيتي !

• دخل بيتي زائراً، يتكلم دقائق، ويسكت ساعات، يبدى بعض الإشارات في أوقات متفرقة، ويمتنع بعد ذلك عن أية إشارة !.

ولكن من يشاركونني البيت حولوه من زائر إلى صاحب بيت.. فهم يجلسون معه أكثر مما يجلسون معي ! ويلتفون حوله، يستمعون إليه، ويتأملونه، في لذة وشغف، فإذا امتنع عن الكلام أو الحركة... قلبوه بين أيديهم، ودلكوا له ظهره، وتحسسوا أصابعه.. أو استدعوا أخصائياً، ولا يزالون به حتى يسترد أنفاسه، ثم يعودون إلى الإصغاء إليه، والتأمل فيه !هذا هو جهاز التليفزيون الذي يظل مفتوحاً في بيتي خلال فترات الإرسال، وما أكثرها، والويل لي ممن يسكنون معي، إذا أنا حاولت أن أغلقه ! ولا شك أن للتليفزيون إغراء لا يستطيع مقاومته من عندهم وقت يسمح لهم بأن يقعوا تحت سيطرة الإغراء. ومن سوء حظي أن كل من في البيت ليس لهم وقت حتى يحتفظوا به، أو يضيعوه !

والراديو ما زال حتى الآن يغرى أمثالي بالإقبال عليه، ولكن الفرق بين الراديو والتليفزيون، هو أن الراديو سيدة محجبة تخاطبك بلباقة، ولا تراها... أما التليفزيون فإنه سيدة تحررت من الحجاب. وهي تتحدث إليك بلباقة ورشاقة، وإذا لم تقنعك لباقتها... أقنعتك رشاقتها !.

* * *

سطوة الجمال !

• إلى أين يقودنى الجمال؟ وهل الناس جميعاً مثلى.. يعذبهم إذا رأوه ويعذبهم إذا احتجب عنهم؟

كم أعانى من انفعالاتى به، إنها تثير فى نفسى القلق، والريبة والرعشة... ولكم ألهبتنى هذه الانفعالات وأضرمت النار فى دمى ونبضى، وما حاولت يوما أن أفر منها، فهى مثل الحياة تشقينا، ولكنا نحرص عليها، ونتشبث بها... نمارسها لنحيا، ونحيا لنمارسها!

إننى أحب الجمال ولو تحول إلى خنجر يسكن ضلوعى، يجول فيها، ويتلوى، ويقفز!..

أحبه فى فكرة، كلمة، لوحة، نظرة، إشارة شروق، ضباب، حقيقة، خيال، بحر هائج، نهر وديع، رياح عنيفة، نسيم ضعيف، نغمة تنساب من حنجرة، أو آلة موسيقية، أو كعب حذاء!.

ولا تدهش... فقد اهتز كيانى، وأنا أسمع صوت حذاء عال يمر بجانبى، ووجدتنى بغير إرادة، أتجه إليه بكلتا عينى... كان يضم قدمين صغيرتين، تمهدان لساقين تعرتا بجورب من الحرير... يعلوهما قوام يتثنى بخفة فى فستان يتحدى برد الشتاء... وقد برز من القوام صدر جذاب يعلو ويهبط فى خفوت كبقايا موجة.أو ضوء شمعة تعرضت لنسمة عابرة... وقد بدأ على الصدر عقد اللؤلؤ، وضج فيه نهدان متمردان !وأطل فوقه عنق حلو ممشوق يحسن التعبير عن لفتاته بسحر ولباقة... واستسلم العنق لوجه باهر القسمات، اكتسى بحمرة الورد وبياض المرمر.. العينان زرقاوان ترفرف عليهما أهداب سوداء.

والخدان ينبضان بالحرارة كقبلة الفراق ! والأنف دقيق ينسحب إلى الشفتين فى كبرياء. والفم ملئ... بالرقة !والأذنان الرقيقتان، انسدلت عليهما خصلات الشعر الناعم الأصفر لتغطى الأذنين وتحجب عنهما صيحات الإعجاب !

واختارت الفتاة إحدى الموائد، وجلست، وانتقلنا إليها بنظراتنا وأنفاسنا.

كان فوق المائدة مصباح التف بغلالة زرقاء، إنه لا يرسل أشعته فى صمت كهذا المصباح الجاثم فوق مائدتنا... إن أضواءه تصرخ، وتعربد... فالنور المنبعث منه يتمايل، ويترنح !!.

كانت وحدها.. هكذا رأيناها عندما مشت أمامنا، وعندما جلست بالقرب منا... وكنا سمعنا صوتها. هل تحدث نفسها؟ وكيف؟! ورمقنا مائدتها بأعيننا، فوجدنا معها شخصاً... ولم نعترف بوجوده، فحيث يكون الجمال... لا نستطيع أن نعترف بغير الجمال !

* * *

الحب والعذاب !

● سألنى : ألا تزال تحب ؟

قلت : ربما . . .

ـ ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب إلا بالعذاب ؟ !

قلت : وما هو الحب؟

ـ التقاء عاطفة بعاطفة .

قلت : إن هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذى يشعل نار الحب . . فإذا اشتعلت النار التهمت الالتقاء ، والتهمت أيضاً عود الثقاب !

ـ قل لى أنت . . . ما هو الحب؟

قلت : الحب أن تتعذب بمن تحب ، أو يعذبك من تحب !

ـ وإلى متى تتعذب وحدك ولا تفرض العذاب على سواك ؟ !

قلت : أنا فى العذاب أنانى . . . أستأثر به لنفسى ! .

ـ ما أسعدها !

قلت : بل ما أشقانى . . فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى . وتتركنى وحدى بلا عذاب !

* * *

نهر الزمن !

● وبعد دقائق يلتف عقربا الساعة وينقض أحدهما على الآخر، ويعلنان انتهاء عام، وابتداء عام...

انتظرى ياعقارب الثوانى، والدقائق والساعات... تريثى، قفى... فأنا لم أستعد بعد للرحيل معك.

كل الناس فى هذه اللحظات ينتقلون من سنة إلى سنة على جسر من القبلات... وليس لى جسر أعبر عليه!!

إنى أحس وأنا أقفز من شاطئ السنة القديمة إلى شاطئ السنة الجديدة، بلا قبلة... بلا ابتسامة.. إنى لا أتحرك، ولا أقفز، ولكنى أتهاوى، وأتدحرج، وأسقط فى نهر الزمن!

* * *

اللقـــاء

● التقينا... وكنت أحسب أننا لن نلتقى أبداً... ونسيت كل شئ إلا أنى أحبها، ونسيت هى كل شئ إلا أنها لا تحبنى!

وسألتنى: أين كنت ليلة أمس؟

قلت: كنت معك!

وانطلقت منها ضحكة عالية كاذبة... كعواطفها!!

وقالت: أنا لم أقابلك من ثلاثة أشهر!

قلت: وأنا قابلتك كثيراً خلال هذه الفترة... وقد كنت معك ليلة أمس بالذات... وصافحتك، لثمت يدك، ضممتك إلى صدرى!

ـ ماذا تقول؟!

قلت: أقول الصدق.

ـ ولكنى لم ألتق بك أمس قطعاً.

قلت: وهل التقيت بى اليوم؟

ـ طبعاً!!

قلت: أنت ما التقيت بى فى أى يوم... إن اللقاء ليس فى أن نجتمع فى مكان واحد... ولكن اللقاء هو أن ننفعل بشعور واحد! وشعورى الذى انفعلت به منذ سنوات لم يتخل عنى، ولم أتخل عنه فى أية لحظة!

ـ هه!

قلت : ألا تثقين بما أقول !

ـ أنا واثقة من أنك كنت تجلس أمس فى هذا المكان مع فتاة تحدق بعينيك فى وجهها .وتصغى إليها باهتمام !

قلت : أنا أفتح عينى بجسارة على ما لا يبهرنى ! !

ـ وما يبهرك . . . ألا تنظر إليه ؟ !

قلت : لا أجرؤ على أن أحدق فيه .

ـ وما الذى لا تجرؤ على التحديق فيه ؟

قلت : الجمال الخارق . . . والشمس الساطعة .

ـ ولماذا تغطى عينيك الآن بهذه النظارة الغامقة ؟

قلت : الشمس ساطعة !

ـ أين الشمس . . . ونحن فى منتصف الليل ؟ !

قلت : الشمس . . . فى حقيبتك !

ـ ليس فى حقيبتى إلا منديل وعلبة بودرة ، ومفتاح ، ومرآة ! !

قلت : انظرى فى المرآة !

* * *

قدرى الشقى

● ياقدرى الشقى...

ياحبى...

متى تيأس منى، فلا تطاردنى، ولا تغرينى بأن أطاردك ؟!

* * *

النوم والحب

● أصبح النوم كالحب...

أريده ولا أقوى عليه !

* * *

الخديعة

● لم تخدعيني... أنا الذى خدعتك... أوهمتك أنى أصدق انفعالاتك، كلماتك، دموعك، ابتساماتك.. مع أنى كنت مؤمناً بأن كل ما فيك كاذب.. إلا القوام الذى يذوب رقة ورشاقة، والوجه الجميل المرصع بملامح أشبه بفكرة خارقة، أو نجم ساطع!!

واليوم تجلت لى حقيقة أخجلت ذكائى... فأنا لم أخدعك وحدك ولكن خدعت نفسى!!

لقد نظرت إليك بعد ما انتهت فترة الحب والحماقة، فوجدتك جسداً بلا قوام، ووجهاً بلا ملامح!!

* * *

الانفعـــال

● سألني: لماذا ترهق نفسك بالانفعال العاطفي والانفعال الذهني؟

ـ لأن الانفعال هو الجو الطبيعي الذي نستطيع فيه أن نبحث عن علاقتنا بالحياة، وعلاقة الحياة بنا؟

قال: وإلى متى نظل نبحث عن هذه الحقيقة؟

ـ حتى نجدها!

قال: ومتى نجدها؟

ـ عندما نموت!!

* * *

الفن والحرية

● كنت إلى عهد قريب مولعاً بالتردد على حديقة الحيوان. وكلما رأيت الأسد في قفصه الكبير.. شعرت بحسرة شديدة عليه!!

إنه هنا يجد طعامه، وراحته. ومأواه.

يعتنى به حارس، ومدرب. وطبيب.

ولكنك تحس أنه ليس أسداً.. وإنما هو ذكرى أسد.. زئيره أنين. وأنيابه أسنان، ومخالبه أظافر!!

لقد فقد طبيعته فى إشاعة الرعب منه. والإعجاب به. والتحدث عنه.. ولن يجد هذه الطبيعة إلا فى الغابة...!

والفن مثل الأسد، ينبغى ألا نحبسه فى أقفاص من المذاهب، والنظريات والتوجهات.. بل يجب أن نتركه فى غايته ينطلق على طبيعته، لنشعر به.. نشعر بخطره وقوته وقدرته على أن يثير فينال الدهشة، والنشوة والاستعداد لمقاومة الأخطاء والأخطار... إذا حبسنا الفن ومنعناه من انطلاقه، فإنه سيصبح موعظمة، ربما كانت حسنة.. ولكنها لا تجدى!!

* * *

التوقيت الصيفى

● تبينت الليلة أن ساعتى ما زالت تسير حسب التوقيت الصيفى... فعندما قدمتها ساعة فى الصيف، شعرت بأنى استدنت من النهار ساعة، وفرحت كعادتى كلما أستدين!

ولما أعلنت الدولة عن انتهاء التوقيت الصيفى. خيل لى أنى مطالب بتأدية الدين.. فما طالت كعادتى أيضاً فى تأدية الديون. وأبقيت الساعة. كما هى!!

وأنا أكتب هذه السطور، وعقارب ساعتى تشير إلى التاسعة والنصف، وراديو القاهرة يذيع نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف!!

* * *

النسيان

● هذا الشارع. كم أثار خوفى، كنت أشعر وأنا أسير فيه أنى أمشى على جثتى! فتنتابنى رعشة تشدنى من رأسى إلى قدمى..

أحس أن شعر رأسى دبابيس، وعرقى ماء يغلى... أنفاسى مبهورة من الفزع، وخطواتى مثل أنفاسى!

ومنذ أيام اخترقت الشارع بقدمين تنبضان بالطمأنينة والثقة، أعصابى هادئة، هواجسى مسترخية، وخيالى كسول!...

لم يعد فى الشارع ما يخيفنى أو يفزعنى، كان لى فيه حب حطمنى، مزقنى. ذبحنى... حاولت أن أنساه ولكنه كان يتعقبنى ولا يريد أن ينسانى!..

ونسينى حبى... نسى أن يتعقبنى!

أيها النسيان ما أرحمك فلولاك ما استطعت أن أحيا!

* * *

ذاكرة قوية وقلب ضعيف!

● امتدت السهرة إلى منتصف الليل، أكل المدعوون وملؤوا بطونهم وأخذوا يتثاءبون، وإذا السهرة كلها تتثاءب!...

وبغتة اهتز البهو الكبير وارتعدت مقاعده التي يشغلها عدد من الناس، فيهم الشاب والكهل، وسيدتان حائرتان بسنيهما بين الشباب، وادعاء الشباب!

واتجهت أنظارهم جميعاً إلى عشرين عاماً... ترتدى فستاناً أزرق...وقد تشبث الفستان بقوام رشاقته حملت العدوى إلى مشاعرنا، ونظراتنا، وإشارات أيدينا... إنه لا يتحرك.. ولكنه ينبض كقلب خائف... يعلوه وجه اطمأنت قسماته... الفم أحمر كالورد... تفتحه كلمة، وتغلقه ابتسامة... الخدان ملتهبان كحريق... أنفها صغير كسنها... وشعرها كليل الشتاء.. أسود وطويل والعينان فى لون الفستان.. زرقاوان!

ولم تكد تأخذ مكانها فى البهو، حتى ارتفعت أصوات المقاعد وهى تزحف لتقترب منها...

وكنت أجلس إلى جوارها. فمالت على أذنى وهمست: هذه الحركات تزعجنى.

قلت: هل تزعجك عدسات التصوير؟

ـ لا... طبعاً.

قلت: إنهم يحاولون أن يلتقطوا لك بعدسات عيونهم صورة يحتفظون بها فى قلوبهم... فلا تنزعجى منهم!

ـ أنت إنسان مهذب، ولهذا لم تحاول أن ترتكب مثل هذه الحماقات...

قلت : لقد سبقتهم إلى هذه المحاولة.. عندما لقيتك منذ شهرين.. ألا تذكرين ؟

ـ ذاكرتى ضعيفة.

قلت : وقلبك ؟

ـ قلبى قوى... وضحكت...

ثم سألتنى : وأنت ؟

قلت : أنا ؟ ذاكرتى قوية... وقلبى ضعيف !

* * *

حكم القدر!

• عندما رأيتها لم أعرفها... الملامح الحلوة الصارخة بالدفء والجاذبية والنضارة.. تحولت إلى رسم كاريكاتورى لعجوز شمطاء!

الشعر الأصفر اللامع، المتوهج أصبح حفنة من حشائش ذابلة، معفرة بتراب أبيض!!

الجسد الممشوق كالسيف انحنى على نفسه وصار عصا ملتوية من طرفيها.

أهكذا يفعل بها الزمن.وهى ما تزال فى الأربعين؟!

وعرفت ما جرى لها. ولم أستطع أن أخفى عنها دموعى وهى تنحدر ساخنة كعرق يتصبب من جبين شقى... فقد ماتت ابنتها وثوب زفافها ينتظرها عند الخياطة..

ولم أسأل كيف ماتت؟ فلا أحد يملك الجواب عن سؤالى إلا القدر.. وهو لا يسمع، ولا يتكلم!

* * *

بين اليأس والأمل!

● سألنى : هل تؤمن بالصداقة؟

ـ أو من بالحياة . . .

قال : أنا أسألك عن الصداقة لا عن الحياة . . .

ـ لا حياة بلا صداقة !

قال : أى أصدقائك أحب إليك . . من يخدعك ؟ أو يصارحك ؟

ـ من لا يتخلى عنى . . . حتى ولو خدعنى !

قال : ألم يسئ إليك أصدقاؤك الذين تعتز بهم؟

ـ الصداقة تغفر الإساءة !

قال : من هم الأصدقاء الذين احتفظت بصداقتهم طول حياتك ؟

ـ لقد دخل حياتى صديقان ولن يخرجا منها . . . أحدهما أستريح إليه لأنه يخدعنى ، ولا يتخلى عنى !

قال : من هو ؟

ـ الأمل . . . أما الصديق الآخر فأنا أضيق به لأنه صريح ، حاسم يواجهنى بالحقيقة ، ولو كانت فيها دمارى ! !

قال : من هو ؟

ـ اليأس . . .

قال: إذن أنت تنفر من الصراحة، ويستهويك الخداع؟

ـ أنا أحب أن أسمع الغناء، ولا أطيق أن أسمع دقات الساعة.. واليأس ساعة مضبوطة تدق بصدق... أما الأمل فإنه صوت جميل يكذب... ويغنى!!

* * *

لا تظلمينى

● اذهبى... لا تعــودى فلن أنتظرك أبداً... ولكن لا تظلمــينى... لا تتهمينى بأن تعبيرى عن حبى أهان رشاقتك... فأنا لم أتعمد أن أهينك يوماً. كل ما حدث أني ـ يا.. لغفلتى !! بدلاً من أن أطوق خصرك بذراعى... طوقته بقلبى !

* * *

أيها الليل، يا حبيبى!

● أيها الليل، ياحبيبى... ألم يعد لنا مكان نلتقى فيه إلا غرفة نومى؟!

أين الشوارع، والملاهى، والفنادق؟!

أخرجنى من بيتى كما كنا نفعل أيام الشباب... واسهر معى حتى أرى أصدقاء عمرى... السحر، والفجر، والصباح!

أيها الليل ياحبيبى... اترك عناء نومى للنهار!!

* * *

مارسى حماقاتك!

● هل يمكن أن يعيش العصفور بلا هواء؟!.. كذلك أنت ياعصفورتى.. لابد لك من هواء تعيشين فيه، لابد لك من حماقة تعذبك أو تعذبنى... وقد أصبحت عاجزاً أن تعذبنى حماقاتك... فمارسيها كما شئت وعيشى. وتعذبى!!

* * *

أيام الصفاء

● كلما استقبلت يوماً جديداً، شعرت بأني معه في غربة... فلا أعرف أين أنا منه، ولا أين هو مني؟ حتى لأكاد أسأله: من أنت؟ وأكاد أسمعه وهو يسألني في ازدراء: من تكون؟!

ولا أحد منا يستطيع أن يجيب، فاليوم مثل الإنسان كلاهما لا يعلم لماذا يلتقي بالآخر؟! وكلاهما لا يدري لماذا يرحل، أو لماذا يجيئ؟!

الأيام الوحيدة التي أشعر فيها بالألفة، والطمأنينة، والتجاوب مع إنسانيتي.. هي هذه الأيام، ولا أدري لماذا؟! ربما شغفي بها، منعني عن التفكير فيها... ربما لأني أصوم عن الطعام، والشراب، والشك، والظنون، وأستغرق في إيمان عميق بالله، حتى ليخيل لي أنه خالقي، وصديقي... فأناجيه، وأعاتبه، وأعانقه، وأغمر ذاته المقدسة بقبلاتي!

في هذه الأيام، تصفو روحي، فلا خوف، ولا قلق، كل الناس أحبابي.. السعداء يبتسمون بشفتي، والمحبون تخفق قلوبهم في ضلوعي... والمساكين الكادحون الصائمون.. يعرقون بجبيني، ويجوعون بمعدتي، ويظمؤون بحلقي، ويئنون بأنفاسي!!

* * *

بين الجمال الرقيق
والجمال العميق!

● سألتنى أيهما أجمل: أنا... أم هى؟

ـ أنتما!

قالت: ألا ترى بيننا أى فارق؟

ـ أرى... إن جمالها رقيق، وجمالك عميق!

قالت: وما الذى يستهويك... الرقة، أم العمق؟

ـ الرقة يد تقود الأعمى فى الطريق... والعمق سوط يلهب ظهر الحصان ليحثه على أن يسرع الخطى..

قالت: وهل أنا يد، أم سوط؟

ـ أنا حصان!

قالت: هل أفهم من ذلك أنى سوط يلهب ظهرك؟

ـ افهمى!

قالت: وأنت... هل تحب أن تكون سوطاً، أو تحب أن تكون يداً؟.

ـ أحب السوط.. ولكننى لا أتمنى أن أكونه!

قالت: هذا كلام غير معقول... كيف لا تحب لنفسك. ما تحبه فى غيرك؟!

ـ إننى أحب رقص الغوازى، ولكنى لا أمارسه، ولو شنقونى!

قالت: وهل ترانى راقصة؟

ـ وغازية أيضاً!!

* * *

لا أهاب الغدر!

● الحب جمعنا، والحب فرقنا... مأساتها أنى كنت حبها الأول... ومأساتى أنها كانت حبى الأخير!

هل يجمعنا الحب مرة أخرى؟ كل تصرفاتها تقول لا... وكل تصرفاتى تقول ربما!

كم أتمنى أن تنتصر «لا»... على «ربما»، فقد أقتنعت بأن تجربتى الفاشلة، لا ينبغى أن تتكرر!.

أننى لا أهاب الغدر.. ولكنى أهاب أن أتعذب من الغدر أكثر مما تعذبت!.

* * *

ليتنى كنت فلاحاً

● كلما نظرت إلى أمسى ويومى.. أصابنى الفزع!! فأنا حتى هذه اللحظة.. أعيش على الدين.ليس عندى ما أملكه.. حتى ملابسى... فهى بالتقسيط! وقد عرفت ناساً عقلاء حسبوا لغدهم الحساب... فلما أدركتهم الشيخوخة مثلى.. وجدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب!.

أما أنا.. فلا أستطيع أن أحصل على ما أروى به ظمئى.. إلا بعرق عقلى.. ولا أستطيع أن أظفر بما يمسك رمقى.. إلا إذا أنهكت ما تبقى من قواى..

وفى أول شهر أواجه وحشاً مفترساً.. هو أقساط الديون التى لا تريد أن تنتهى!

تمنيت لو كنت فلاحاً أملك فداناً أزرعه بنفسى. ولا أقرأ إلا الخضرة والسحاب، والشمس الساطعة، وظلام الليل... ولا أسمع من الموسيقى إلا زقزقة العصافير، وحفيف الأشجار، وأصوات الحيوانات، وأزيز الساقية!.

* * *

لا أستطيع مصارحتها

• الجلسة صاخبة.. أضواء مثيرة، وأصوات عالية، وأنغام موسيقى وجلست وحدى فى ركن منعزل، وجاءتنى تتهادى فى رشاقة، شعرها الأسود يكاد يفترش بخصلاته المتهدلة جسدها الأبيض، وخدها الأحمر، وقد أشرقت من فمها ابتسامة تغرى بالتفاؤل والأمل.. وجلست إلى جانبى وسألتنى: لماذا تجلس وحدك؟

وقلت لها: سأنضم إليكم بعد قليل.

وعادت تسألنى: هل يشغلك شئ.

قلت: تشغلنى أشياء!.

قالت: هل أكوّن متطفلة إذا سألتك عن هذه الأشياء؟

قلت: أنا فى حالة عاطفية.. لا أعلم ما هى؟

قالت: أظن..

قالت: من هى السعيدة التى اتجه إليها قلبك؟

ولم أجب عن السؤال، فعادت تسألنى:

ـ ألم تصارحها بحبك؟

قلت: لا أستطيع!

قالت: إنك دائما تستطيع أن تحب، وأن تعبر عن حبك بشراهة؟

قلت: لو صارحتها بحبى... لنفرت منى!

قالت : أنها إذن لا تستحق أن تحبها . .

قلت : بل هى تستحق ما هو أكثر من الحب !

قالت : لماذا لا تصارحها ، هل هى قاسية ؟ هل هى غبية ؟ وصرخت فيها .

قائلا : اسكتى ! إننى لا أطيق أن أسمع من اتجه إليها قلبى وهى تصف نفسها بالقسوة والغباوة !

ولم تفهم ماذا أعنى . . . أو لعلها فهمت وسكتت ! !

* * *

تكلمى قبل الوداع!

● ما أقسى الفراغ الذى أعانيه فى هذه الأيام، إنى أتصوره وحشا يفترس نبض قلبى.. وخلجات ذهنى!!

لست أطمع فى أن تملئى فراغ حياتى بأن تمسحى دموعى بلمسات يديك، فكل ما فيك كاذب... المشاعر، الأفكار، الصمت، السكون!

ولا أخدع نفسى... فأنكر أنى مازلت أحب هذا الكذب بصدق مجنون! ولكنى يائس من حبى... ولن أجرى وراءه بعد ما فتحت باب قلبك وقذفت بى إلى الفضاء!

كل ما أطمع فيه وقد انتهى ما بيننا أن أسمع منك كلمة وداع، كلمة أسى، كلمة كراهية.. فحرام أن يذهب هذا الحب، هكذا بلا كلمة!

إذا كانت الكلمات ثقيلة على شفتيك الرقيقتين فلا أقل من أن تحركيهما بحرف.. بابتسامة.. باشمئزاز.. افعلى أى شئ إلا أن تسكتى!!

* * *

أغفر لى يارب مرضى!

• أغفر لى يارب مرضى، وأغفر لى غفلتى عندما تصورت طول عمرى أن المرض داء يعالجه الطبيب، وليس جريمة يرتكبها المريض!.

إننى يارب لست حسن الظن بنفسى.. حتى أتمنى جنتك الخالدة!! فأنا قانع بدنياك هذه الفانية!!

أريد أن أعيش فى الدنيا التى أبدعتها ـ سبحانك ـ لأتفاعل معها، وأتغنى بها... فامنحنى الصحة لكى أستطيع دائما أن أتفاعل.. وأن أغنى!

* * *

الصاروخ والقمر!

● قالت : أليس للحب نهاية ؟

ـ لكل شئ نهاية .

قالت : وهل الحب شئ؟

ـ إنه جوهر كل شئ !

قالت : وما علاقة الحب بالدنيا ؟

ـ الدنيا مغامرة عاطفية !

قال : هذا خيال !

ـ ربما . . . ولكنه أيضا حقيقة ! !

قالت : كيف ؟

ـ ألا ترين أن الدنيا لقاء وفراق . . . ومطاردة ؟

قالت : لا أرى . . .

ـ فى الدنيا نلتقى بالحياة وفى الدنيا نفترق بالموت . . . الليل يطارد النهار فى شوق . . . والقمر يلهث وراء الشمس فى شغف ! .

قال : وما رأيك فى الأقمار الصناعية والصواريخ ؟ هل هى الأخرى حب ؟

ـ إنها تعبير علمى عن الوصول إلى القمر الطبيعى الذى أحبه العشاق ! !

قالت : والأرض ؟

ـ إنها مثل المرأة اللعوب.. لا تكف عن الدوران!

قالت: وأنا... وأنت؟

ـ أنا صاروخ... وأنت قمر!!

* * *

غموض المرأة!

● أنا لا أفزع إلا من شيئين.. آلام مرض لا أعرفه، وغموض امرأة أعرفها... وقد أتحمل آلام المرض، بأمل أو بيأس.. أما غموض المرأة.. فلا يجدى معى أملى فيها، أو يأسى منها... إن غموض الرجل يثير فيه ريبة أصدقائه.. فيبتعدون عنه، والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها إن كل خلجاته.. ونبضاته تظل تسأل فى حيرة عن سر هذا الغموض.. إذا أبدت الرضا.. ظن أنها تخدعه.. وإذا غضبت منه.. اعتقد أنها تكرهه.. وإذا كانت وحدها... سعى إليها... فيحس وحده بجوارها أنه فضولى، متطفل، ضيف غير مدعو!!

وإذا أقبلت عليه فكر فيما ينطوى عليه إقبالها من نيات ماكرة! ولا حيلة لمن يحب.. فى أن ينزع من نفسه هواجسه التى أكدتها التجارب... وما أكثر تجاربى!! وكل تجربة منها أثبتت لى أن غموض المرأة لعنة تتعقب مشاعرى وتفكيرى... بقسوة ضارية!

إلى متى تطاردنى اللعنات.. حتى بعد ما أصبح الحب ذكرى لن تعود.. فالذكريات كالأيام التى تمضى، ربما كانت قريبة منا... ولكننا لا نلتقى بها أبدا !!

* * *

بين الحياة والموت!

● ما أعجب هذه الصحراء.. كل شئ فيها يشبه الآخر... الناس متشابهون في حركاتهم... وفي الانقباض البادى في مسحات وجوههم... القبور متشابهة.. كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبل الثرى، كلها يضم عظاما نخرة..

هنا، تحت المقابر... تساوت الأعمار، والقيم... الشاب والشيخ، والذكى والغبى، ومن كان له مثل أعلى فى الحياة، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف!

ووصلت إلى المقبرة التى تعودت أن أزورها فى أكثر من مناسبة.. ففيها يرقد أحبابى الذين تركوا حياتى وذهبوا إلى حيث سنذهب مثلهم.. حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع فى محاجرى.. حاولت أن أرثيهم فلم تنطلق منى إلا كلمات خرساء!!

ووقفت فى خشوع، ثم جثوت فوق التراب الذى ضمهم بالأمس وسيضمنى غدا وأحنيت رأسى إجلالا للموت الذى احتواهم بين ذراعيه بهاتين الذراعين سيحتوينى يوما!.

أيها الموت أنا لا أخافك ولكنى لا أفهمك!! فمن تكون؟! هل أنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك.. أو لتروى ظمأ الحياة؟!

ما أنت ياموت؟! وما الحياة؟!

يا أسفى على أنى أعيش حياتى ولا أعرفها، وألقى الموت دون أن أعرفه!

* * *

ولعى بالجمال !

● إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد.. فأنا أحب الجمال فى الطبيعة، والفن، والأخلاق، والمرأة...

وهذه الأشياء تعبر بصدق عن جمالها.. أما المرأة فهى وحدها القادرة على التعبير عن الجمال بإغراء !.

والصدق يعطينى صورة مستقيمة للجمال، والإغراء يعطينى صورة ملتوية... ولكن هذا الالتواء يشدنى من مشاعرى... ويلوينى معه !.

بين الناس من يسمى هذه التجربة حبا، وبينهم من يسميها وهما... ولقد عشت التجربة أياما، ولا أدرى إن كنت أحب.. أو كنت أتوهم؟ !

* * *

الجمال المرتاب!

● كل من رآها هزته بملامحها الجميلة الدقيقة، إلا أنا... فإنى أحس كلما رأيتها براحة من الاهتزاز!.

فهذه الملامح ربما كانت حلوة، ولكنها مترددة، مرتابة... أنها لا ترى... ولكن ترسل نظراتها إلى غير اتجاه! لا تبتسم.. ولكن ترسم فوق شفتيها ابتسامة... دموعها مثل ابتسامة مرسومة!.

لم تقنعنى بأن أفكر فيها بنشوة أو ألم، وما لا يقنعنى لا يجذبنى إليه... إن الحياة نفسها لم تجذبنا إليها... إلا بعد ما أقنعتنا بفتنتها!.

* * *

خواطر الصحراء

بدت لنا الصحراء الشقراء كالمرأة الحقود، قلبها أسود فى هذا القلب الأسود قطعت بنا السيارة أكثر من ثلاثمئه كيلو فى أقل من ثلاث ساعات..

وعلى جانبى الطريق تراكمت الرمال كتراكم الأعمال فى مصالح الحكومة، وتبدى لنا البحر الهائج المائج عاليا كالشباب هابطا كالكهولة نائما ولكن كما تنام الأقدار. وعلى الشاطئ المشوق تنام أجساد وتستيقظ قلوب. قوام كالسيف فى قلبى منه جروح وعين السحر بعض ما ينطوى عليه جفناها، وشفة تلهم القبل وخد تنبت نضارته الورد والبحر العربيد لا يقنع بما يحتويه من أجسام فيلاحقها على الشاطئ ليسيل على القوام أو يسيل على الهندام كما يسيل الندى على أوراق الزيتون.

* * *

الطريق إلى الليل

ما أجمل ليل القاهرة.. السماء صافية، والنيل فاتن، والجو ناعم رقيق.. والنسمات حلوة تتسلل إلينا فى حنان ساحر، تكاد من حنانها تقبلنا وتحتوينا بين أحضانها!

ولكن الطريق إلى الليل مثل الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره.. فالنهار هو الطريق الوحيد إلى الليل... وما أشد ما نقاسيه من عذاب النهار.. حرارة مرتفعة إلى درجة الغليان جو شرير يخنق الأنفاس، ويشد الأعصاب، وينفذ إلى المخ، والكبد، والكلى والمصارين يضغطها ويعصرها ويكويها بالنار.

لقد نجحت المخترعات الحديثة فى تخفيف الويلات الظاهرة للحر ولكنها لم تنجح فى منع الحر من ممارسة إيذائه للناس فى صحتهم وفى تفكيرهم.

* * *

أمـواج قلبـى

هذا البـحر. كم عرفته ثائراً يعـريد كسكران، ويتمرد كعقل فيلسوف... مياهه تهدر، وتزأر. وتنطح الشاطئ، ويمد لسانه إلى الرمال يلعقها، ويحمل على كتفيه المصطافين العرايا، فيعلون فوق الموج، أو يهبطون تحت الموج!

إنه فى هـذه الأيام يعـانى هدوءاً غـبيـاً، واسـتكانـة بليـدة... لقـد مـد ذراعيه، وسـاقـيـه، واسـتلقى على ظهـره، وتدثر بغـلالة زرقـاء كلون السـمـاء التى بدت من بعيـد وكـأنهـا قـبـة انغـرسـت جدرانهـا العـريضـة فى أعـمـاق البحر، وملأ سقفها رقعة الفضاء!!

الماء لا يركد، ولا ينتفض، ولكن يتـحـرك فى غـموض كسطور مـكتوبة فوق شاشة السينما... كلما حاولت أن تقرأ سطراً اختفى وظهر سطر آخر يختفى أيضاً قبل أن تقرأه!

ورنوت إلى البـحـر بعيـون كثيـرة مبـهورة، عـيـون ذكـرياتى، وانفعـالاتى، وخلجات نفسى!!

هل هـو مـريض؟ هل هو حـزين؟ هل هـو ينفض قلبـه من غـبـار حب قديم، ويتهيأ بنبضاته لحب جديد؟.

لا... إن البـحـر السـاحـر العبـقـرى، فنان، إذا لم يجد حـوافـز خـارجيـة تشـحـذ صـخبـه، عكف على تأملاته، وهدأ، واسترخى!

وهو الآن لا يجد ما يحـفزه إلى الصخب، ولا ما يغـريه بالنشوة... لقد كـانت شـواطئه مسـرحاً لـرقصـاته على أنغـام مـوسيـقى يعـزفهـا قـوام رشيق

يتلوى من انهيال نظرات الإعجاب عليه! وملامح جذابة حادة دافئة، تلهب الأشواق، وتنتفض بها العروق، وبشرة متوهجة ناعمة، شقراء وبيضاء، تحسدها الشمس ويغار منها النهار... وشعر أسود فاحم لامع تتهدل خصلاته على العين المتحفزة دائماً للسحر والفتنة!

ونام البحر... بعدما سكتت الموسيقى التى لا تعزف إلا فى موسم الصيف!.

استيقظ يا بحر.. فإن هنا على شاطئك من تغريك وحدها بأن تنتشى، وتترنح، وتغنى، وتضرب بأمواجك الصخور والرمال... ولا تسألنى عنها... فلست أعرفها... كنت مثلك نائماً، ورأيتها فاستيقظت مشاعرى وتلاطمت أمواج قلبى!.

* * *

أتمنى فى شيخوختى!

● ناس تتجمع وتتفرق، ذراع مشبوكة فى ذراع، أحضان تعبر عن فرحة اللقاء، ولهفة الوداع. قبلة على جبين، ابتسامة رزينة، قهقهة مجنونة، أصوات تعلو، وتنخفض، رؤوس تدنو من رؤوس، مقاعد، موائد، جرسونات، باب واسع يلتقى فيه القادمون والراحلون... من رجال، ونساء، وأطفال، وحقائب...

وردهة الفندق تمتلئ فى أول الليل كبطن أكول... وتفرغ فى آخر الليل كقفص الاتهام بعد ما تنتهى جلسة المحكمة!

وجلست وحدى أراقب من يأتى، ومن يذهب، فيهم من أعرفه، ومن لا أعرفه، ولمحت بينهم توأمين من مواليد إيطاليا، وقد عاشا فى الأسكندرية منذ زمن بعيد، وهما الآن فى حدود الثمانين. أحدهما تزوج وهو شاب، والآخر لم يتزوج، وكانا يتجهان إلى الباب، وفى خطى متشابهة..!. الأخ المتزوج يتعثر وهو يستند إلى ذراع زوجته التى تصغره بعشرين عاماً... فهى فى الستين فقط والأخ الأعزب يتعثر وهو يتوكأ على عصاه!

وأحسست أن القدر ساق إلىّ هذا المنظر لأتمنى مصيرى عندما أصبح شيخاً محطماً... هل أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على عصا، أم أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على ذراع زوجة!

ولم أتردد أن أتمنى... تمنيت أن تكون لى عصا!.

* * *

لا تطاردينى

● لا تطاردينى هكذا... إننى لا أراك. ولا ألتقى بك. فلماذا ترغميننى على أن أعيش معك دائماً بالخيال والذكرى؟

ما أقسى هذا الجمال الذى يتعقبنى.. كلا... ليس ما يتعقبنى جمالها، ولكن الذى يتعقبنى حنينى الطائش، ووفائى الأحمق!

* * *

يد الله

● الشوارع، مثل الناس، بينها الغبى الثقيل الظل، وبينها الذكى الخفيف الروح... والطريق الصحراوى أنيق رشيق، ذكى. ولكن ذكاءه يخونه أحياناً فيفقد أناقته، ورشاقته، وخفة روحه، ويصبح طريقاً غبياً ثقيلاً، كوجه كالح اختفت ملامحه وراء التجاعيد، أو كقوام ممشوق أصابه الترهل... فصار له أكثر من كرش بارز... أعضاؤه مسترخية، وأنفاسه تلهث من فرط الإعياء!

وكم أضيق بهذا الطريق إذا قطعته فى صحبة ناس شعورى بهم غامض! إنى لا أحس دمامة الطريق... وغباوته ليس إلا، ولكنى أحس أنى لا أتحرك فوقه، وإنما هو الذى يتحرك فوقى!

ولقد أخذنى الطريق اليوم بسحره أخذاً لذيذاً، كانت السيارة التى تحملنا لا تخترقه، ولكن تلثمه وتعانقه فى شوق ونشوة... الحصا الصغير المنثور فى رحاب الصحراء لا يلمع تحت وهج الشمس ولكن يبتسم! الرمال الغزيرة تفرش حافتى الطريق كبساط أصفر! الهواء يتحسس النوافذ بأنامل باردة، يغطيها قفاز، من جو الخريف!

وكنت أتابع الشمس وهى تتدثر بالسحاب، وتتعرى من السحاب ويحتقن لونها، ويبهت، ويمتقع. ثم أخذت تنكمش وتتلاشى حتى أصبحت خطوطاً حمراء وبيضاء...

أين ذهبت؟ لقد كانت منذ لحظة قرصاً ملتهباً... كيف ذاب: قرصها هكذا، ولم يعد منه إلا خيوط ترتعش فى صفحة السماء؟!

لقد رأيت من خلال السحاب، يد الله. وهى تمحو القرص الملتهب، لتعيد رسمه من جديد!

نضب حنينى

كان يتمتم بصوت هامس كالنجوى... ويقول: يا خجلى منك! إننى أراك كما أنت، وعبثاً أحاول أن أغمض عينى... فإن عيوبك العارية، لاتقل فتنة عن ساقيك العاريتين!

ساقاك ترقصان فتثيران رعشة الحنين إليك... وعيوبك العارية الراقصة تثير سخريتى من نفسى، عندما كنت لا آراها!

غطى ساقيك... غطى عيوبك... فلن تثيرينى بعد اليوم... لقد نضب حنينى، ونضبت غفلتى!

* * *

عجلة الأيام

كلمـا مـر بى يوم، اعـتـرانى شـعـور يهـزنى من أعـمـاقى فى عنف وغموض. أحياناً يخيل لى أن اليوم الذى مضى قد سرق قطعة من حياتى. وأحياناً يخيل لى أن اليوم الذى مضى قد سرق قطعة من حياتى.. وأحياناً يخيل إلى ويومى يتسرب منى، إنى لم أفقد شيئاً... ولكنى تخلصت من ضيف ثقيل! فالأيام هى العمر. وهل العمر إلا ضيف احتل مائدتى، وهل أنا إلا ضيف احتل مائدة عمرى وكلانا بالنسبة إلى الآخر غير مدعو... ضيف ثقيل!

وأحياناً تنتابنى حيرة لا أستطيع معها أن أحزن أو أفرح... لأن الأيام التى تنقص من عمرى. تزيد فى سنى، وتجربتى. وثقافتى، وانفعالى بالجمال... فكيف أحزن على النقص، ولا أفرح بالزيادة؟ إننى دائماً ناقص، وزائد!

ولكن ما فائدة أن تزيد تجربتى وثقافتى... مادامت رقعة حياتى تنكمش وتضيق؟!

ما جدوى الانفعال بالجمال... ولم يعد فى استطاعتى أن أمارس انفعالاتى إلا بعين تلعثمت نظراتها... وقلب متعثر النبضات!

ما هذه الأيام التى تمضى إلى غير عودة؟ وإلى أين قد مضت؟

* * *

غدر البحر

● البحر يهدر فى عصبية وصخب... وكانت تتمدد على الشاطى، وتتقلب فوق الرمال فى كسل لذيذ... وقد كست قوامها الرشيق بالجاذبية، وعرته بالمايوه!

قالت لى: لقد اشتقت إلى البحر، أريد أن استحم، ولكنى أخشى الأمواج وهى فى هذه الحالة... إنها غدارة!

وسألتنى: هل هناك ما هو أشد غدراً من البحر؟

وقلت: نعم... بعض الرجال... وكل النساء!

* * *

إنها تحتل قلبى

● من يدرى؟ لعل ربى رحمنى إذ أراد لحبى هذا المصير!

ولكنى أطمع فى رحمة الله، وفى عدالته معاً... أليس من العدالة وقد أقصانى عنها، أن يقصيها عنى؟

أنها فى مكانها النائى البعيد... وبرغم ذلك فهى معى... أغمض عينى فأراها. أصم أذنى فأسمعها... وأشعر بها تنطلق، وتجرى وتعدو فى رأسى كما لو كان رأسى شارعاً خالياً من الناس، ومن إشارات المرور!

إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها... تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث... وتقابل فيه كل الناس... شخص واحد تهرب من لقائه... صاحب البيت!!

* * *

قلب متمرد على القواعد!

● رأسه أصلع، عيناه زائغتان، أنفاسه لاهثة، يسيطر القلق على كتاباته، وقراءاته، وضربات قلبه!

يحمل من الهموم ما يرفع سنه إلى الستين مع أنه لم يصل بعد إلى الثلاثين!

إنه واحد من كثيرين جداً بذلوا محاولات سيئة الحظ لخلق أشكال جديدة للشعر العربى، ولم تنجح هذه المحاولات، لأنها كلها متشابهة!

منح نفسه الحرية فى استخدام الأوزان والتفاعيل فى كل ما يخطر له من موضوع، أو لفظ أو معنى!

قال لى إن قلبه يخفق بغير قاعدة... أحياناً يسرع فى ضرباته، وأحياناً يبطئ فى ضرباته. وإن هذه ظاهرة تزعجه، وتثير فى نفسه الشعور، بأنه يوشك أن يموت...

وقلت له إن قلبك مثل شعر الذين قلدوك... يتحرر من الوزن والتفعيلات،،، وإذا كان هناك من يزعجه هذا التصرف، ويرى فيه علامة الموت، فلا ينبغى لك ذلك لأنك شاعر متمرد على القواعد!

ليس هذا رأياً فى الشعر المتجرد من الموسيقى فى الإيقاع والتعبير، وإنما هو رأى فى القلب الذى يتمرد على طبيعته الموسيقية... فيضطرب فى ضرباته وخفقاته بلا ضرورة، بلا دافع، بلا غاية!

* * *

لا تترددى

● عبثاً حاولت أن أفكر فيها وحدى!

كانت آلامى معى دائماً... سكيناً تمزق أحشائى، سوطاً يلهب مشاعرى، يداً تضغط دمى، وتخنق أنفاسى!

وأمس فكرت فيها دون أن أتألم... إنها لم تعد جديرة بألمى... كانت عظيمة وجميلة فارتفعت إلى ذروة آلامى، وقد أصبحت الآن جميلة فقط... فانحدرت إلى هاوية يتعفف عنها الألم!!

ولكن ما هذا الذى أحسه؟ لعله حيرة، لعله غيظ، لعله اشمئزاز... أم ترانى عفوت عنها فلم أعد أحبها؟ كلا... فما زلت ألاحقها بحبى... إن الحب مثل القانون... يحمى البرئ ويتعقب المجرم... وقد كان حبى يحميها... فأصبح يتعقبها!!

تعالى... لا تخافى أن تذكرينى بالماضى... إننى عندما أراك... لا أغوص فى أيام ذهبت، ولكن أتسلق ما بقى لى من أيام!!

ليس فى حياتنا، ماض وحاضر ومستقبل... حياتنا فترة واحدة هى الماضى...

الأمس مضى... واليوم يمضى... والغد سيمضى...

تعالى ولا تترددى... فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى!!

* * *

أتحداك

● أتحداك بحبى أن تكرهينى... فى استطاعتك أن تدمرى حياتى، ولكنك لن تستطيعى أن تخرجى من حياتى...!!!

قلبى واللغات

● حسبى أن أعرف من دنياى حقيقة واحدة، حقيقة الدمعة والابتسامة، ولكن كيف أعرف هذه الحقيقة؟ إن الدموع والابتسامات ليست حقائق، ولكنها لغات لا يحسن ترجمتها إلا القلوب...

إن قلبى فى هذه الأيام ضعيف فى اللغات إلى درجة تثير حيرتى...

الفن والحياة

● ليس الفن أن تنقل الأحداث كما هى... ولكن الفن هو الانفعال بالأحداث، والتعبير عنها بشعورك الذاتى... والفن الواقعى... هو إعادة بناء الواقع بخيال شديد.!!

* * *

عاقبها بذنوبى

● يا رب لا تعاقبها بذنبها... ولكن عاقبها بذنوبى... فليس لى ذنوب!!

أجمل أحلامى

● بعد فراق خمس سنوات... التقيت بها... ظننت يوماً أنى نسيتها، فلم أكد أراها حتى وجدتنى نسيت نفسى!

شعرت بخوف لذيذ وأنا أصافحها... كانت لحظات الكلام عذبة... ولحظات الصمت أكثر عذوبة!

وذهبت إلى فراشى وحاولت أن أنام لأعثر على حلم جميل... وعشت أجمل أحلامى... ولكنى لم أنم!

* * *

الصداقة

● قال لى: ماذا تصنع إذا غدر بك صديق؟

ـ أتألم!

قال: ألا تكرهه؟

ـ لا!!

قال: كيف تتألم من شئ... ولا تكرهه؟

ـ ألا تتألم من الحياة؟

قال: جداً.

ـ هل تكرهها؟ هل تريد أن تتخلص منها؟

قال: الحقيقة أنى أتألم من حياتى ولكنى أتشبث بها!

ـ الصداقة كالحياة... نتألم منها... ونحبها!!

* * *

الشاعر والملهمة

● لا تختفى عنى... فلست عدواً حتى تتهيبى لقائى، ولم أعد ذلك العاشق الذى تجدين راحتك فى أن تعذبيه بالهجر، والقلق!... وإنما أنا شاعر، وأنت ملهمة، وكلما رأيتك حلقت فى آفاق جديدة من الجاذبية، والرقة، والجمال... فأعبر عن مشاعرى بكلمات تنبض، وتضئ، وترتعش... لماذا تضنين على كلماتى، بالنبض... والضوء... والرعشة؟!

تناقض حياتى

● إننى أعانى تناقضاً رهيباً فى حياتى. جسدى أرهقته الشيخوخة... ومشاعرى لم تتجاوز مرحلة الطفولة... وتفكيرى فى عنفوان الشباب!

ليتنى أستطيع أن أتخلص من شيخوخة الجسد، وطفولة المشاعر، وأحتفظ بالشباب فى جسدى... ومشاعرى... وتفكيرى. فالحياة ليست هى الطفولة، وليست هى الشيخوخة قطعاً... إن الطفولة مثل الشيخوخة تعثر وطيبة، أما الشباب... فهو وحده الحياة... إنه الطيش، والانطلاق.

أريد أن أطيش... أريد أن أنطلق... أريد أن أحيا!

* * *

فى الهاوية

● قالت لى: لماذا لا تنصحها بألا تهدر سمعتها، وتقتصد فى ممارسة نزواتها بهذه الطريقة التى تثير الاشمئزاز؟

- عندما حاولت أن أنصحها... كانت قد ألقت بنفسها... من قمتها إلى الهاوية!!

.. من العبث أن أقول لها عودى... فهى لن تسمعنى، ولو سمعتنى لعجزت عن العودة بعدما انحدرت من القمة وأصبحت بين أحضان الفضاء... كل ما أستطيع أن أفعله... هو أن أصرخ وأبكى، ولقد صرخت، وبكيت!!

قريب من الله

● كلما انتابنى مرض... أحسست أنى قريب من اللّه، وفى هذه الأيام لا أشعر بأنى قريب من الله فقط... ولكن أشعر بأننى بين أحضانه!

* * *

ترفقى يا حريقى

● لماذا تحاولين أن تدمرى يأسى منك، بعدما تبدد أملى؟! إنك لا تريدين لى أن أستريح... لقد أصبح التنكيل بطمأنينيتى هواية تمارسينها بخفة وبراعة!

أى خاطر شقى أغراك بأن توقظى تليفونى من غفوته التى استمرت ثلاثة أشهر؟!

لقد أحسست وأنا استمع إلى صوتك فى التليفون... أنك تحرقيننى بنبراتك التى تشعل النار فى مشاعرى كلما سمعتها أو تذكرتها!

... ولكنك لن تستطيعى أن تحرقى قلبى... فلقد احترق... ولم يبق منه إلا الرماد!

دعى تليفونى... إنك لا تديرين أرقامه... ولكن تديرين رأسى وتلهبينه.

هل تريدين بعدما أحرقت قلبى... أن تحرقى رأسى أيضاً؟

ترفقى بى يا طفلتى... يا حبيبتى... يا حريقى!!

احتشمى يا ذكرياتى

● احتشمى يا ذكرياتى... لا تحاولى أن تردينى إلى الماضى الذى هربت منه... بعد ما عض مشاعرى، ولوى قلبى!

لا تسرقينى

● افهمينى على حقيقتى... إننى لا أجرى وراءك... ولكنى أجرى وراء دموعى، وأنفاسى وخلجات نفسى، أريد أن أستردها بعدما خسرتها على مائدة الحب... تماماً كما يفعل المقامر الذى يخسر أمواله... ويبرر خسارته بسوء الحظ، ولا يخطر بباله أن من يلعب معهم لصوص... وأنهم كلما لاعبوه تضاعفت خسارته!

العبى معى مرة أخرى... ولن أبالى سوء حظى، ولكن لا تسرقينى!

* * *

هل الحب جريمة؟

● قال لى: أما زلت تؤمن بالحب؟

- أومن بأنه انتحار!

قال: ولكن الانتحار جريمة...

- والحب أيضاً جريمة تشبه جريمة الانتحار!

قال: أنا لا أفهم ما تعنيه!

- إن من يفشل فى ارتكاب جريمة الانتحار... يتعرض للعقوبة، ومن ينتحر فعلاً... يفلت من العقوبة... لأنه يموت!

قال: وما علاقة هذا بالحب؟!

- من يفشل فى ارتكاب جريمة الحب... يعيش فى عذاب.

قال: ومن ينجح؟

- أنا لا أتكلم عن الآخرين... أنا أتكلم عن نفسى!

ياويلى من طيشى

● العجوز الطائش... كالسهم الطائش.. كلاهما لا يصيب الهدف... يا ويلى من طيشى!

الفقــر

● لو كان الفقر رجلاً لقتلته، ولكن الفقر، مع الأسف، رجل وامرأة!

الحــب

● سألتنى: ما بال ساقك معوجة؟ هل أصابها كسر؟

قلت: لا. ولكن أصابتها عدوى من سلوك معوج!!

قالت فى ثقة خبيثة: وما الذى يرغمك على معرفة أصحاب السلوك الأعوج؟

قلت: الحب... يا حبيبتى!

* * *

الحب والموت

● قالت: متى ستكتب قصة حياتى؟

- عندما أمارس حياتى!!

قالت: اكتبها الآن إذن...

- كيف؟ وأنا لا أعيش ولكنى أموت...

قالت: أنت تموت؟!

- نعم. لأنى لا أزال أحبك!

فصاحت غاضبة: هل تعتقد أن حبك لى موت؟

وقلت لها: اهدئى... لا ترفعى صوتك حتى لا يسمعك الموت... فيغضب منى!

* * *

أصبحت مثل ساعتى

● أصبحت ساعتى مثلى... أصابتها الشيخوخة، فقدت توازنها، تريد أن تسير فتقف. تحولت دقاتها المنتظمة إلى سعال متقطع!.

كل يوم يبذل الساعاتى معها... ما يبذله الطبيب معى. ولكن الزمن أقوى من الساعاتى، ومن الطبيب!

حاولت التخلص منها، فماذا أصنع بها؟

... آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى... لأنى أصبحت مثل ساعتى!!

* * *

الزواج والحرية

● إنه يصغرنى بعشرين عاماً. ولما رأيته خيل لى أنه يكبرنى بعشر سنوات!! سألته عما به... فقال: زواج وخمسة أولاد!

قلت: أنت بطل.

قال: الزواج ليس بطولة... الزواج عبودية.

قلت: الإنسان الذى اخترع الزواج والسجون... ليس له أن يبكى على الحرية!!

نظراتك

● إن نظراتك الغامضة تكاد تأكلنى... كُلينى إذا شئت!!

ولكنى أكره أن تلتهمنى العيون. وأحب أن تلتهمنى الشفاه!!

* * *

الحياة والموت

● سألتنى: ماذا بعد الحياة؟

ـ وماذا قبل الحياة؟

قالت: عدم...

ـ مستحيل... فالعدم لا يؤدى إلى الوجود.

قالت: ماذا قبل الوجود إذن؟

ـ وجود ينتهى إلى وجود!!

قالت: بقى سؤالى كما هو... ماذا بعد الحياة؟

ـ حياة...

قالت: ألا تؤمن بأن الحياة تفنى؟

ـ الحياة كشمس تشرق لتغيب... وتغيب لتشرق!

قالت: ألا يساورك الخوف من الموت؟

ـ مادمت حيّاً فلن أحس الموت حتى أخافه... وإذا مت...

فإنى سأصبح عاجزاً عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة!

قالت: لقد أرحتنى من هذه المشكلة...

ـ أية مشكلة؟

قالت: مشكلة الموت...

ـ الموت ليس مشكلة... الحياة هى المشكلة!!!

أطلال امرأة

● لعن الله الأيام، ماذا صنعت بها؟! الملامح الناضرة المشدودة... كيف ذبلت وترهلت؟ العينان المنطلقتان بنظرات تنفث السحر بسخاء وتوجع القلوب بقسوة... كيف تحولتا إلى محجرين يتوكآن على نظارة سميكة تحجب الضوء والنظر... القوام الممشوق... كيف أصبح حزمة من حطب يغطيها فستان؟!

كنت أجرى وراءها... فأصبحت أجرى منها... كنت أخشى غدرها... فصرت أخشى وفاءها!

جاذبية الكذب

● آه من الكذب... ما أشد جاذبيته فى دمعتك... وفى ابتسامتك!

* * *

ابعدى طيفك

● اتركى لى يومى... لا تدعى طيفك يقتحم أحلامى ويوقظنى ويخدعنى بأنك بين ذراعى، فإذا صحوت... لم أجد إلا ذراعى!

اتركى لى يقظتى... لا تملئيها بشبحك الذى ينبض باللعنة والجاذبية... ماذا تبغين منى؟ هل تريدين أن نعود إلى حبنا القديم؟... ولكن كيف لى أن أبدأ بعدما انتهيت... ولم يعد لى قلب يقوى على أن يحب، ولا على أن يكره؟!

أريحينى من ذاكرتى... أريحينى من ذاكرتك!

* * *

سحر الذكريات!

● أصبح هذا الشارع مثاراً لذكريات تلسع نبض قلبى!

ففى هذا الشارع كم قضيت ليالى بلغ فيها شبابى قمة النشوة!!

وقد ظلت القمة كما هى. ولم يبق لى من الشباب ما أصعد به قمة. أو أمشى به خطوة!

وفى هذا الشارع، عرفت مئات من الأصدقاء... كانوا يسكنون أبنيته الجميلة التى تطل على البحر، وقد ذهبوا جميعاً إلى العالم الآخر وتركونى وحدى. وكلما مررت بعمارة... تذكرت صديقاً كان يسكنها فتنقبض نفسى وأقرأ على روحه الفاتحة.

هذا الشارع أصبح بالنسبة لى ساحة مقدسة، تشير أبنيتها إلى الأصدقاء الذين كانوا يملأونها... ويملأون حياتى، فرحلوا عنها وعن حياتى!!

ما بال هذه الأبنية قد استحالت إلى أضرحة... كلما رأيتها أحسست أن مشاعرى تصلى... وتسجد... وتركع!

* * *

آه من فمها

● آه من فمها...

الشفتان المليئتان الملتهبتان الحمراوان كقرص الشمس!!

الأسنان الناصعة البياض كالثلج!!

الابتسامة التى تحاول أن تظهر... ولا تظهر!!

هذا الفم يقول لى وهو صامت: احذرنى... سأخدعك!

فأكذبه ولا أحذره... ثم تمضى الأيام... فإذا بى أحبه، وأصدقه، وآمن إليه!!

يا قلبى المغامر!

● يا قلبى...

أيها المغامر العجوز!!

إنى فى الخامسة والخمسين، وهى فى العشرين...

إذا لم تخجل منى... فاخجل منها!

* * *

المتحف

● المتحف... هو المكان الطبيعى للذين يتمنون الشباب بلا جدوى!
وأنا لا أتمنى شبابى وحده... ولكنى أتمنى طفولتى أيضاً
فأين يا ترى مكانى؟!

أمواج البحر!

● أيتها الأمواج... اضربى جسدى... اصفعى وجهى!!
خذينى بين أحضانك... ولكن لا تخنقينى...
لو لم تكونى ماء... لكنت غانية!!
فما أشبهك بالغوانى... فيك ما فيهن من جمال، وغدر، وجاذبية!

قلبى العاشق

● إن قلبى لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل!!
ولذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب... حتى لا يتعرض للبطالة!

خواطر وتأملات

شعرى

لا تحاول أن تنسب شعرى إلى مدرسة فنية بذاتها، كالواقعية، والرومانسية، والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب واحد منها... إن فيه واقعية تعبر عن تجربة ما، وفيه رومانسية تحلق فى الخيال، وفيه طبيعة حرة لا تقف عندما هو كائن، ولكن تتحرق شوقاً إلى معرفة ما وراء الطبيعة!

ولا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين... فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن؟ فإن المجانين وحدهم... هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلاً...

لست متشائماً، ولست مجنوناً، ولكنى أحاول أن أكون صادقاً مع ما أشعر به، وما أفكر فيه!

وأنا فى شعرى ألتزم بإنسانيتى، وخلجات نفسى... وقد أعجز عن أن أنظم الشعر بطريقة أخرى، ولكنى لا أعترض على أية طريقة يثبت بها صاحبها أنه شاعر!

ولقد حررت أشعارى من القيود، وأخضعتها للقواعد. وعندى أن القيود هى نظم القصيدة من بحر واحد، وقافية واحدة، والحرص على تساوى عدد التفعيلات فى كل بيت من أبيات القصيدة.

أما القواعد، فهى الوزن، والإيقاع اللفظى والإيقاع المعنوى. وقد

حرصت على هذه القواعد لأنها الجوهر الصحيح لفن الشعر.

والشعر إذا لم يهز قلبك، وذهنك... فهو ليس شعراً. ولا يكفى أن ينبض فيك الشعر الذى تقوله، بل يجب أن ينتقل نبضه إلى قلوب الآخرين...

والشعر رقصة عاطفية وعقلية، ولابد للرقصة من موسيقى تصاحبها، وتقودها، وإلا صارت خطوات ملتوية!

وقد حاولت فى شعرى أن أغنى، وأبكى، وأرقص بصدق وموسيقى... ولا أعرف هل نجحت محاولتى أو فشلت؟

كل ما أعرفه أنى كنت صادقاً فى غنائى، وبكائى، ورقصى...

* * *

خذوها... واطبعوها

هل عندى ما أقوله؟ ربما! ولكن هل هذا الذى أقوله يستحق أن أجمعه فى كتاب؟ ظللت طيلة اليوم أراجع أوراقاً لم أنشرها بعد. فوجدت قصصاً قصيرة، وقصة طويلة بدأتها فى عام ١٩٥٠، ولم أنته من كتابتها حتى الآن، عثرت على بضع قصائد تحتاج إلى إعادة النظر فيها وعدة بحوث عن حياة المتنبى، وأبى حيان التوحيدى، وسخرية أبى العلاء.

وأخذت أقلب فى المجموعات التى تضم ما نشرته لى الصحف خلال خمسة وعشرين عاماً وإذا هى تكفى من حيث كثرتها لإصدار عدة كتب تتناول عشرات الموضوعات. ومع ذلك فأنا أتهيب تأليف كتاب يحمل إسمى. وإنى لأعرف ناساً يبهجهم أن تصدر لهم دور النشر كل يوم كتاباً، أو قصة أو ديوان شعر، فما سر تهيبى مما يبهج هؤلاء الناس؟

ربما لأنى لا أثق بنفسى. وليس هذا تواضعاً، ولكنه شعور صادق بحقيقتى، فأنا أومن بأن الحياة نمو وحركة وفى كل يوم أنمو بالقراءة، وأتحرك بدراستى المباشرة للناس، فحياتى متطورة، وهذا التطور يغير نظرتى إلى الأشياء، فيثير شكوكاً فى آرائى أو يدعم هذه الآراء.

وكم من فكرة خطرت لى، فلم أجرؤ على إذاعتها، واكتفيت بتسجيلها فى دفتر أدفنه بين كتبى المتناثرة فى جميع غرف البيت حتى لقد صار بيتى أشبه بمقابر الصدقات!

وأحياناً تمتد يدى إلى دفتر من هذه الدفاتر فأقرأ فيه سطوراً تعجبنى، وأقرأ سطوراً أخرى لا تعجبنى، ثم أتركها كما هى، فمن يدرى؟

لعلها تعجب غيرى فيذيعها بعدما أصبح فى ذمة التاريخ، وهى ذمة تتسع للنابغين وللتافهين على حد سواء!

وقد يسأل واحد من القراء: لماذا إذن تسمح بنشر ما تكتبه من شعر ومقالات؟ وجوابى عن ذلك أنى لا أنشر شيئاً، ولكنى أدفن بعض ما أكتبه فى دفاترى الخاصة، وأدفن بعضه الآخر فى مطابع الصحف التى أعمل بها، ومن حسن حظى أن ما دفنته فى مطابع الصحف أصابه العبث، ولقى صداه عند قارئ، أو أكثر، فأصبحت كاتباً فى رأى بعض القراء!

أنا لا أجلس مع الناس لأقتل وقتى، وإنما أجلس معهم، لأخلق النبض فى حياتى، والطريقة التى أدير بها الحديث فى مجالسنا، تشحذ خواطرى، وتساعد أفكارى على تدريب عضلاتها!

وفى كثير من الأحيان أترك بيتى أو مكتبى بعد عمل دائم يستمر حتى منتصف الليل، وأذهب إلى حيث أجتمع بناس أستريح لهم، أو أضيق بهم. فالراحة والضيق يثيران شوقى إلى الكتابة، وأنا لا أعرف كيف أكتب دون أن أحس لذعة الشوق وحرارته.

وقد انتابنى فى هذا الصيف طموح إلى أن أطبع عدة كتب، وديوان شعر، ولم أكد أعود إلى القاهرة حتى عدلت عن تفكيرى. قد نسيت فى الاسكندرية طموحى مع رمال الشاطئ والمايوه.

أنت يا صديقى أحمد تصغرنى بعشرين عاماً على الأقل، وستعيش بعدى، وعندما تحترق سيجارة حياتى ويرسف القدر آخر نفس فيها، فاهرع إلى بيتى، وخذ ما تجده من أوراق وانشره على الناس، وما أقوله لك ليس مداعبة، ولكن وصية أسجلها هنا علناً، وعلى رؤوس الأشهاد!

وقد تأثرت فى مستهل حياتى بكلمة لناقد عربى قديم، وقد ذكر أن

الإنسان يظل بعقله إلى أن يؤلف كتاباً، أو يجمع ديوان شعر!

ويظهر أننى حرصت أكثر مما ينبغى، على أن أظل بعقلى! وشئ آخر تأثرت به، فقد قرأت منذ ثلاثين عاماً، أن الشاعر الفرنسى بول فاليرى كان لا ينشر قصائده، وإنما ينظمها، ويتركها ملقاة على مكتبه، ثم يعود إليها فينقحها ويهذبها، وكثيراً ما كانوا يترددون عليه - فإذا وجدوا قصيدة كاملة سرقوها ونشروها باسمه.

وكان إذا هاجمه النقاد لا يرد على هجومهم لأنه لم ينشر شيئاً!

وقد سوغ طريقته فى الإصرار على ألا ينشر آثاره، بأن جميع الشعراء والفنانين القدامى كانوا يصممون أعمالهم فى فترة قصيرة، ويخصصون أكبر فترة لوضع اللمسات الأخيرة لهذه الأعمال، وقد تستغرق هذه الفترة عمراً طويلاً، وبعد ذلك يلقون بما يعملون إلى النار، أو إلى الناس... فالنار والناس كلاهما جحيم يحرق عمل الفنان!

وأبادر فأسجل أننى لا أنشر آثارى فى كتاب خوفاً عليها من الإحتراق، فليس فيها ما أخشى أن تحرقه النار، أو يحرقه الناس!

وشئ ثالث أغرانى بالتأنى فى إصدار الكتب، فقد تأثرت بأستاذ عظيم هو أحمد لطفى السيد، وطالعت آثاره التى ترجمها عن أرسطو، واستمعت إليه محدثاً فى كل فن، وظفرت منه بأحاديث نشرتها فى الصحف، وليس للطفى السيد كتاب واحد من تأليفه إلا بضع مقالات جمعها تلميذه الأستاذ إسماعيل مظهر.

إن الكتاب مسئولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها، أو جاهل بها، وأنا حتى هذه اللحظة لا أقوى عليها، ولا أجهلها!...



الحياة... أوهام لا تنتهى

فى أحيان كثيرة، يخطر لى أن حياتنا ليست إلا وهماً... وأن ما فيها من كائنات حية، وحركة وامتداد زمنى، وأبعاد، ومسافات ودوران للأرض ما هو إلا هواجس، أو كابوس، أو أضغاث أحلام!

وهذا الخاطر يسيطر على نفسى كلما أصابنى مرض، أو فقدت صديقاً... فقدته ميتاً، أو حيّاً...!

وحياتى مشحونة دائماً بنوبات المرض، وعدد الأصدقاء الذين فقدتهم موتى، أقل من عدد الأصدقاء الذين أفقدهم وهم أحياء.

وكم أتساءل فى مرارة: ما هذه الحياة التى لا أعرف كيف بدأت، ولا لماذا بدأت... ثم أراها وهى تنتهى، دون أن أدرك لماذا تنتهى؟

ونهاية الحياة بالنسبة لى ليست أن أموت، ولكن أن تختنق أحلامى، ومشاعرى وتتعقب الخيبة آمالى... فأرى أن مشاعر الحب، والخير، والوفاء التى ينبض بها قلبى، وتتجه فى فرحة ونشوة إلى كل الناس، قد تحولت عند بعض الناس إلى صخب من الشر، والحقد والكراهية يمزق أعصابى، ويضغط دمى، ويشيع فى نفسى قلقاً، وخوفاً، وكآبة لا تعترينى إلا عندما أسمع صفارة إنذار بغارة جوية، أو نعيب بومة أو اللحن المميز للبرنامج الإذاعى، «خمسة فرفشة»!

وفى الساعات القليلة التى أستريح فيها من شدة مرضى، وحدة الغدر. تبدو لى الحياة أجل من أن يشوهها الحقد، والجحود، وأقوى من أن ينال منها شئ... فكل شئ مسخر لبقائها... الموت نفسه فى خدمتها،

فهو عندما يقبض روحاً إنما يفسح المجال لخلق روح أكثر جدة، وأقوى حيوية... إن فناء ناس، وخلق ناس آخرين يجدد خلايا الحياة، وينشط غددها، وينظم دورتها الدموية، ويجعلها دائماً فى ريعان الشباب.

وأمس زارنى صديق يعانى ما أعانيه من هواجس، إذا ما حزنت، أو انتابنى مرض، وعندما زارنى كنت أعيش فى جو من الرضا، والتفاؤل والطمأنينة، وأخذت أبدد أوهامه ومخاوفه بتجاربى فى الحياة وهى تجارب تجمع بين الهزيمة والنصر، واليأس والأمل، والدمعة والابتسامة...

قال لى ببرة شاكيه إن زميله فى العمل دس له عند مدير المكتب

فسألته: وماذا جرى؟ فقال: لا شئ... فقد عرف المدير الحقيقة وأثنى على كفاءتى ونزاهتى، وأقصى عنه الموظف الدساس...

- ولماذا أنت حزين؟ ألا تكفيك هذه النتيجة؟

قال: أؤكد لك أنى تألمت لما أصاب زميلى من عقاب، ولما أصابه من انتكاس فى أخلاقه وعواطفه. وعجبت كيف يصنع معى هذا وهو صديق منذ عهد الدراسة. ولقد ساعدته فى عمله، ووقفت إلى جانبه فى أزمات عصيبه

واستطرد يقول:

أليس عجيباً أن تحسن إلى الناس، فيسيئوا إليك.

قلت له: لا تظلم الناس فهم ليسوا جميعاً مثل زميلك، إن بينهم من يغلب عليهم الخير فيمنحك الحب والود والغفران، وبينهم من يغلب عليه الشر فهو يحقد عليك لكل سبب، وبدون سبب، إذا كان ضعيفاً ولم تعطف عليه كما يريد، حقد عليك... وإذا عطفت عليه كما يشاء وأكثر مما يشاء حقد عليك لأنك قوى، وهو ضعيف.

وقد علمتنى التجارب أن أكون دائماً مع المظلوم، والذكى، وصاحب

الموهبة، يستوى فى ذلك من تنطوى روحه على الخبث ومن تنطوى روحه على الطيبة... ولكى أتفادى أذى الجانحين إلى الشر تعودت أن أكتم عنهم ما أقدمه لهم من خير حتى لا يتعقبونى بحقدهم... أعرف واحداً من الناس أنقذته من المحنة أكثر من مرة... وعرف من غيرى أنى وقفت معه فى ثلاث مناسبات، فشكر لى موقفى منه، وأخجلنى بعباراته المهذبة، ورنة صوته الحزين، وإشاراته المستكينة، ونظراته التى تنبض بالحنان والدموع، وقد رأى أن يوقع بينى وبين زملائى وبينى وبين رؤسائى فى العمل، وكنت شاباً صغيراً، ولكنى لم أكن أحفل به وبغتة نهشنى وعضنى، فلم أحقد عليه، وقلت لعله ظن أنه صار صاحب أظفار وأنياب، وأراد أن يجرب قدرته على النهش والعض فجربها فى الرجل الذى يقف إلى جواره.

وقال لى أصدقائى: لماذا لا تصارحه بأنك منعت عنه الأذى عشر مرات فى سنة واحدة، مع أنه لم يكن يوماً ما صديقاً لك؟.

وقلت لأصدقائى: إذا كان قد نهشنى وعضنى بعد ما عرف أنى وقفت معه ثلاث مرات فقط، فماذا عساه يصنع بى إذا عرف أنى وقفت معه عشر مرات؟ إنه فى هذه الحالة لن يكتفى بنهشى وعضى، ولكنه سيحاول قتلى.

وشكا له صديق من أن زوجته أم أولاده تركته، وانفصلت عنه، ونازعته أمام المحاكم، وانتهى النزاع بالطلاق...

وسألته: هل كنت تحبها؟ فقال: ومازلت أحبها.

قلت: إن الطلاق، مثل الزواج، مثل الموت، قدر لا حيلة لنا فيه... وأنت على أية حال أحسن حظاً من فلان... فقد ضحى بثروته ومواهبه وأعماله الناجحة فى سبيل زوجته، كانت مريضة إلى حد اليأس من الشفاء، أو تخفيف ضربات الألم، فطاف بها بلاد العالم، ودخل معها أكبر المستشفيات،

واقتضاه مرضها المخيف أن يسهر على راحتها إذا نامت، وأن يسهر معها إذا أرقت، وكان يشعر بآلامها دون أن يتناول ما تتناوله من الأدوية المسكنة للألم... وبعد خمس سنوات من العذاب نجت من المرض بمعجزة، وعادت معه إلى بيته، ولكنها لم تعش فى البيت، وعاشت فى بيت آخر، مع شخص آخر، فطلقها ومازال حتى هذه اللحظة يتلوى قلبه من الحزن، واللوعة والذهول!

وهدأ صديقى واسترد إيمانه بالإنسانية والإنسان... وقال إذا كان الجحود يحض على الكفر، فالوفاء يدفع إلى الإيمان، والحياة فيها جحود وفيها وفاء، فلماذا نرضخ للجحود ونكفر بالحياة، ولماذا لا يستهوينا الوفاء ونؤمن بالحياة؟

وسألته: كيف حال صحتك الآن؟ فقال: حالتى الصحية طيبة جداً.

ألم تعد تشكو من الانقباض والأرق ووجع الظهر والصدر؟

قال الصدق: لقد زالت هذه الأعراض من يوم أن تحدثت مع الدكتور «ميم» فى التليفون... والفضل لك... فقد أعطيتنى رقم البيت الذى كان يعود فيه أحد مرضاه... ولما شرحت له حالتى طمأننى، ونصحنى بأن أستمر فى تناول الدواء الذى وصفه لى من قبل! فضحكت فى وجه صديقى بصورة غير عادية، وسألنى: لماذا تضحك هكذا؟ وكتمت ضحكى، ونقلت الحديث إلى موضوع آخر...

وعندما يقرأ صديقى هذه العبارات سيعلم لماذا ضحكت؟...

كان صديقى يشكو من آلام فى ظهره وصدره، وتوهم أنه مريض بالقلب، فدخل المستشفى، وأجرى عدة فحوص وتحليلات وأشعة، وزار عدداً كبيراً من الأطباء، فطمأنوه على حالته، ولكنه لم يطمئن. وقال لى

إنه يريد أن يعرض نفسه على الدكتور «ميم» بالذات... وأنا أعلم أن الوصول إلى الدكتور «ميم» يحتاج إلى أن يستخدم المريض صاروخاً يخترق به فضاء الأيام والأسابيع! واستطعنا أن نجد هذا الصاروخ ووصلنا إلى الدكتور «ميم» وقام بدراسة الصديق المريض. ودراسة تقارير الأطباء والمعامل، وأكد أن صديقنا لا يحتاج إلا إلى تناول ثلاث حبات من «فيتامين ب» كل يوم.

واطمأن الصديق، ومارس حياته بتفاؤل وثقة، ومنذ أسبوع اتصل بى ليلاً، بواسطة تليفون الجريدة التى أعمل بها، وسألنى أين اندكتور «ميم» وقلت له إن العقبات التى وجدناها فى العثور عليه أول مرة، تجعلنى أيأس من البحث عنه مرة أخرى!

قال: ولكنى مريض... عندى أرق شديد، وإذا لم يرنى الدكتور «ميم» هذه الليلة، فلن أعيش حتى أرى الصباح!

وقلت له إن الدكتور «ميم» يزور الآن أحد المرضى، ويمكنك الاتصال به تليفونياً فى هذا الرقم، وأعطيته رقم تليفونى الخاص.

وبعد دقيقتين دق جرس تليفونى وجرى الحديث بين صديقى وبينى على النحو الآتى:

الصديق: الدكتور «ميم» موجود؟

- لحظة من فضلك؟

ثم ارتفع صوتى بنبرة مختلفة عن نبرتى الطبيعية، وقلت: أنا الدكتور «ميم».

الصديق. لا تؤاخذنى... إذا كنت قد طلبتك فى وقت غير مناسب، وظرف غير مناسب...

ـ العفو... أنت مواظب على تناول «فيتامين ب».

الصديق: نعم... لكنى شعرت الليلة بأرق، مصحوب بألم خفيف فى الظهر.

اشرب فنجاناً من النعناع الساخن. واستمر فى تناول فيتامين ب وبعد أسبوع اتصل بى لأراك فى العيادة.

الصديق: متشكر يا دكتور.

وفى اليوم التالى اتصلت بصديقى وسألته: ماذا صنع أمس، فحكى لى ما دار بينه وبين الدكتور «ميم»... وقال: إن هذا الرجل ساحر... المكالمة التليفونية معه أراحت أعصابى وهيأت لى نوماً عميقاً مريحاً.

ولما سألته أمس، متى تتصل بالدكتور «ميم»؟

قال: ليس الآن فأنا بخير والحمد لله!

ما أشق هؤلاء الذين يمرضون بالوهم فيلجأون إلى الطبيب والدواء... مع أن مرض الوهم لا علاج له إلا الوهم!

وأنا واحد من هؤلاء الأشقياء!



الحق... والحياة!

قال لى طبيبى إن نسبة السكر فى دمى قد ارتفعت بصورة تدعونى إلى الحيطة والحذر... وأخذ يشرح تقرير طبيب التحليل، ويضع خطوطاً تحت الفقرات الهامة التى تضمنها التقرير، ثم أعطانى قائمة بالأدوية التى يجب أن أستعملها حتى أقاوم خطر ارتفاع نسبة السكر... وبدا من نبرات صوته أنه لا يصف لى علاجاً ولكن يرثينى بكلمة تأبين... وأحسست وهو يودعنى إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقاً ولكن يشيع جنازة!

وكنت منذ دخل السكر حياتى، أفزع إذا ما ارتفعت نسبة السكر وأظل أوجه إلى طبيبى أسئلة تدل على خوفى من الموت، وتشبثى بالحياة.

فى هذه المرة لم أفزع، ولم أسأل الطبيب عما إذا كان هناك خطر على حياتى؟

وأخذت منه قائمة الأدوية الجديدة، وأحسست وأنا أضعها فى جيبى أن رصيدى من الأدوية قد تضخم... وهكذا أصبح لى رصيدان بلغا الضخامة والجسامة أقصى الحدود... رصيدى من الأدوية، ورصيدى من الديون!

وذهبت إلى البيت، وأخلدت إلى نفسى أفكر فيما ينتظرنى، أو أنتظره... بعدما ساءت حالتى الصحية؟ وما الذى ننتظره أو ينتظرنا، إذا مرضنا إلا الموت...

وأعترف بأنه حدث أكثر من مرة أن مرضاً خطيراً عرضنى لموت محقق، وكنت كلما نجوت بحياتى أفرح وأنتشى، فقد كان شعورى برهبة

الموت يفتت قلبى، ويسحق أعصابى ويثير الرعب فى دمائى وعروقى... كان الموت هو عدوى الوحيد الذى أخشى لقاءه أو لعل هذا هو إحساس الناس جميعاً ولا أدرى لماذا؟ فإنهم مثلى لا يعرفون ما هى الحياة؟ ولا يعرفون ما هو الموت؟ هل الموت منفصل عن الحياة؟ لماذا إذن نتهيبه ونجفل منه، فى حين نقبل على الحياة ونطمئن إليها؟ هل هو نهاية شاذة للأحياء؟ كيف يكون ذلك وكل من سبقنا من الأحياء انتهوا بالموت؟ هل هو نهاية طبيعية لكل ما هو حى؟ إنه كذلك فعلاً... فكيف نحاول أن نفر من نهايتنا وإلى أين الفرار؟

ومع ذلك فما أكثر ما أحببت الحياة! وما أكثر ما كرهت الموت، دون أن أفهم لماذا أحب، أو لماذا أكره؟ كل ما أدركه الآن من أسباب حرصى على أن أحيا، هو أنه كان لى فى الحياة ما أريده وكان عندى للحياة ما أعطيه!

وتناولت الأدوية التى وصفها لى الطبيب... الحبوب والسوائل والحقن وسأظل أتناولها لا خوفاً من الموت، ولكن خوفاً من الانهيار تحت وطأة المرض... فلم يعد يعنينى أن أحيا، ولم يعد يهمنى أن أموت، وإنما الذى يعنينى ويهمنى هو أن أحيا وأنا فى صحوة الفكر والمشاعر، والجسد. وأن أموت ورأسى ملئ بالأفكار والظنون وقلبى نابض بالإيمان والحب وجسدى ينتفض ويتحرك، ويمشى على قدميه!!

* * *

أيتها الذكريات... ماذا تريدين منى؟

عشت اليوم فى جو العيد، كل ما حولى فى البيت، والمكتب، والشارع، يستعد لاستقبال عيد الأضحى غداً.

المحررون والموظفون والعمال يتجمعون فى مكتب الصراف ليتسلموا المكافآت وجزءاً من المرتبات، بينهم من تعلو فمه الابتسامة، وبينهم من لا يبتسم، ربما لأنه يدخر ابتسامته ليوم العيد! ربما لأنه لا يعرف كيف يواجه العيد بهذا القدر الذى تسلمه من المكافأة والمرتب!

سكان البيت حبسوا الخراف فى المطابخ وغرف الغسيل، والردهات، وربطوا رقبة كل خروف بحبل يتيح له أن يتحرك دون أن يمشى، ويتيح له أيضاً أن يعبر عن ألمه بهذا الصوت (ماء... ماء) وإذا صاح خروف فى أية شقة بهذه الصيحة: (ماء) صاحت معه بقية الخرفان، فى كل الشقق، وتحولت الصيحات... إلى احتجاج جماعى توجهه الحملان الوديعة إلى من أسروها، وأعدوها، لكى تكون ضحية العيد!

وقد أخرج السكان التراب من شققهم بالمنافض والمكانس وخراطيم المياه، وألقوا بالأتربة فوق عتبات السلالم الخلفية، وأخذ البوابون ينقلون هذه الأتربة إلى صناديق القمامة، تمهيداً لتسليمها إلى عمال النظافة...

وفى الشارع حركة غير عادية، صبية الكوائين، يروحون ويجيئون بسرعة ونشاط، عربات التاكسى والعربات الخاصة، تقف عند أبواب البيوت والعمارات وتنزل منها لفافات تحمل أسماء أشهر محال الحلوى، والأقمشة، والخياطين. والعجلات التى تطوف البيوت باللبن والخبز كل

يوم، طافت اليوم أكثر من مرة لتزود السكان بحاجاتهم فى إجازة العيد!

ولقد اعتدت هذا الجو فى الأعياد الماضية، وكنت أطيقه. ولكن فى هذه السنة ضقت به. وأحسست رغبة شديدة فى الهرب من مواجهة العيد هنا فى بيتى... ولكن إلى أين أذهب؟ إلى الاسكندرية ففيها البحر الواسع الكبير الذى تستطيع مشاعرى الجريحة أن تجد فيه ما يضمد جراحها!

ولكن الدم لا يسيل من مشاعرى وحدها، إنه يسيل من ذكرياتى أيضاً... ولا أعرف إلى متى تبقى هذه الذكريات، ولا أعرف ماذا تريده منى؟

ما أكثر ما عرفته ونسيته. إلا ذكرياتى، فأنا لا أستطيع أن أنساها، وهى لا تريد أن تنسانى... ويالها من ذكريات يختلط فيها الرضا والغضب، والذكاء والغباوة، والاطمئنان والقلق، والاستقرار والضياع.

بعض الذين أذكرهم تركوا الحياة، ولكنهم لم يخرجوا من حياتى، وبعض الذين أذكرهم دخلوا حياتى، وخرجوا منها وهم أحياء، ومازلت أبحث عنهم بخيالى، بأوهامى، بنبض قلبى، بخلجات نفسى... أراهم وهم يهربون من عاطفتى فى طيارة أو صاروخ، فألهث، وراءهم بوفائى وحبى! ويا له من إنسان ساذج هذا الذى يحاول أن يلحق الطيارة أو الصاروخ بالوفاء والحب! ليته يعلم أن الوفاء ساق مشلولة، والحب جناح كسير!



صخب وهدوء

بغتة وفى وقت واحد، أدرت الراديو والتيفزيون، ومسجل الأشرطة والفونوجراف. وتحدثت فى التليفون... أريد أن أثير ضجة، وصخباً، وزعيقاً لعلنى أنسى هواجسى وتأملاتى، أو أفقد ذاكرتى!

ولكنى لم أفد من ذلك إلا الشعور بوجع رأسى، وارتديت ملابسى واتجهت إلى المقابر، كما اعتدت فى كل عيد. وهناك وجدت الهدوء المهيب الرهيب ووقفت عند قبر لا أعرفه، وتمثلت فيه كل أهلى وأحبابى الذين ذهبوا إلى غير رجعة، رأيتهم بملابسهم، بسحناتهم بملامحهم بمزاياهم النفسية والعقلية. كدت أسمع أصواتهم من شدة شعورى بهم.

وبدأت أتحدث إليهم... وفجأة أدركت أن فمى لا يتكلم. وأن عينى هى التى تتكلم... فلم تنطلق منى كلمة، ولكن انطلقت أنات ودموع!

فيم أنينى وبكائى؟ هل يرد الأنين غائباً ليس لغيبته إياب.؟ هل يعيد البكاء يوماً من سنة، أو دقيقة من ساعة؟

أم ترانى لا أئن شوقاً إليهم، ولا تدمع عيناى حزناً عليهم. وإنما أنا أتأوه من ألمى، وأبكى على نفسى؟

وما الذى يؤلمنى؟ إن أقسى ما أعانيه هو المرض، وأين الإنسان الذى لا يعانى علة؟ وعلام نخشى المرض مادمنا نستطيع مقاومته بالدواء؟ هل نخاف أن ينتهى بنا إلى الموت؟ وهل المرضى وحدهم هم الذين يموتون؟

ما الذى يؤلمنى، وأنا أحيا كما أريد. أعمل، وأقرأ، وأكتب، وأفكر،

وأعيش عصرى بكل ما فيه من حضارة، وعلم، وفن، وجمال؟

إن الحياة فى نطاقها المادى المحسوس لا تؤلم الأحياء. وإنما تؤلمنا حياتنا عندما يجتاحها تيار الانفعال بالحب، والخير والوفاء، والذكريات؟ إن انفعالاتى هى سر ألمى!

وإذا كانت ذكرياتنا عن أحبابنا الموتى سوطاً يلسع ظهورنا، فإن ذكرياتنا عن أحبابنا من الأحياء خنجر يشق قلوبنا، وحبل يشنق رقابنا.

إننى أكتب هذه الكلمات وقد نفضت قدمى من صحراء الإمام، وسرت فى الطريق الصحراوى إلى الأسكندرية... إن الصحراء تغرينى بالتأمل، سواء كانت طريقاً أو مقبرة... وبعد ساعتين سأكون فى الأسكندرية. حيث البحر العميق العملاق... وكم ألهمنى هذا البحر أفكاراً، وأشعاراً، وتعبيرات صادقة... وكم تخلى عنى فلم يلهمنى شيئاً إلا الوحشة والكآبة!

ليتنى أستطيع أن أكسب صداقته لحظة واحدة... لحظة أغرق فيها ذكرياتى عمن يعيشون معى وليسوا معى! الموتى الذين سأعود إليهم يوماً، والأحياء الذين لن أعود إليهم أبداً.



كيف تعيش حياتك..؟

فى أحيان كثيرة يخيل لى أنى لا أعيش حياتى، ولكنى أموتها... الأيام تمر بى، فتأخذ من عمرى دون أن تعطينى شيئاً أى شئ... انفعالاً، شعوراً، تجربة!؟

وفى أحيان أخرى يخيل لى أنى أعيش حياتى بعقلى، وقلبى، وكل خلجات نفسى... أحس أننى أؤدى دوراً فى الحياة ومع الحياة... دورى فى الحياة هو أن أعمل وأتأمل وأناضل فى سبيل فكرة أو عاطفة... ودورى مع الحياة هو أن أستوعب ما فيها من خير وشر، وإيمان وشك، واستقامة واعوجاج... أقاوم النزوة، وأستسلم للجمال! وكم توهمت وأنا أسهر الليل أن الغد لن يصحو إلا إذا أيقظته بآهاتى، أو ضحكاتى، أو دراساتى... وهل ليالى التى أسهرها إلا آهة أو ضحكة، أو دراسة؟

وفى لحظات الشعور بالثقة والصمود أستقبل يومى الجديد كما أستقبل أستاذاً جاء يمنحنى العلم والموعظة... فأحتفى به، وأقدم له فهمى، وانتباهى!

وكم أتصور الأيام خيلاً، تملأ حظيرة عمرى، فأقصى منها المشوه والهزيل، وأنتقى الجياد الأصيلة، فأمتطيها، وأنتقل بها بين اليوم والغد، فى قوة، واعتزاز، وخيلاء!

وأنا حريص على أن أؤدى دورى فى الحياة. قد يكون هذا الدور فوق المسرح، دور بطل أو دور كومبارس. وقد يكون فى مقاعد المتفرجين. فى المقاعد الأمامية، أو فى أعلى التياترو! وإنى لتنتابنى الرغبة فى أن يكون

دورى أكبر، ولكن لا أرغب ولا أفكر فى أن أتشبث بالبقاء على المسرح أو فى الصالة بعد إسدال الستار...

ولهذا فأنا لا أهاب الموت لأنه خاتمة الرواية... ولكنى أهاب المرض لأنه يعوقنى عن تأدية دورى!

والحياة عندى ليست فقط جسراً نعبره إلى حياة أخرى، وإنما هى طريق نقطعه... طريق له بداية نود أن نعرفها، وله نهاية لن نصل إلى مداها... ولا يعنينى أن أقع وأنا سائر فى الطريق، وإنما الذى يعنينى أن أسير فى الطريق، ولوبضع خطوات!

وما أكثر الذين وقفوا فى طريق الحياة... لم يمشوا، ولم يقعدوا... لم يفتحوا أعينهم على ضوء، ولم يلتفتوا بآذانهم إلى نغمة، وهؤلاء اصطلحنا على تسميتهم أتقياء ورعين مأواهم الجنة... وما أظن أن لهم هذا المأوى أبداً! فالله الذى خلق الدنيا وأودع فيها فنه العظيم لن يفتح جنته لمن تجاهلوا دنياه!

إن الحياة ليست جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين. وليست جحيماً يشوى جلودنا ويكوينا. وإنما هى ظل وشمس... والإنسان الحى ليس من يحتمى دائماً بالظل، وليس من يعيش دائماً فى وهج الشمس، وإنما هو من يمارس الظل والشمس معاً؟

فكيف تعيش أنت حياتك؟



عقليات ترتدى «الشورت»... و«المايوه»!

ما من مرة ذهبت إلى الشاطئ إلا تمنيت أن أرتدى البنطلون «الشورت» أو «المايوه» وأتمرغ على الرمال، وأستقبل أشعة الشمس، وأدير لها ظهرى، وأقذف كرة، وأجرى خلف بالون، وأغوص فى قاع البحر، وأطفو فوق سطح الماء، وأرتطم بالموج وأمتطى القارب العائم!

ولكن ما من مرة أدركت ما تمنيت. صحيح أنى لبست المايوه، وسبحت فى البحر، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن، ثم حدث أن غرق ابن عمى أمام عينى فى شاطئ سيدى بشر، فظللت زهاء عشر سنوات أجفل من رؤية البحر، كنت أرى الماء فأدوخ، وأقترب من الشاطئ فأحس أن قدمى تغوصان فى الرمال، وأن الأمواج تضغط رقبتى بقبضة من حديد... من هذا التاريخ اكتفيت من الشاطئ بالمشى، والجلوس، واكتفيت من البحر بالنظر إلى موجه، والسباحة فى هوائه!

أما البنطلون الشورت فحتى هذه اللحظة لم أجرؤ على ارتدائه ولو على سبيل التجربة... وكيف أجرب الخوف والفزع لى وللآخرين... فأنا فى حجم الفيل، وإنه شئ يخيف، ويفزع منظر الفيل... وهو يرتدى البنطلون القصير أمام الناس أو وحده، وفى الطريق العام.

الناس يستريحون فى المصيف لأنهم يحررون أجسادهم من القيود، ويرتدون أخف الثياب، وأقصرها. ولا يشغلون أنفسهم بمشكلات الحياة.

وأنا أستريح فى المصيف، برغم أنى لا أخفف ثيابى، ولا أتخلص من فضول الكرافتة، والجورب، والحذاء المربوط... فلماذا؟ هل الجو وحده

يكفى للراحة أم ترانى أستعيض عن تحرير جسمى من قيود اللبس، بتحرير عقلى ونفسى من قيود التفكير فى مشاكلى وهمومى؟ ولكنى أقرأ وأفكر فى المصيف، أضعاف ما أقرأ أو أفكر فى أى مكان آخر.

ولقد أحصيت عدد صفحات الكتب التى قرأتها خلال الأسبوعين الماضيين فوجدتها خمسة آلاف صفحة! وأحصيت عدد المشاكل التى واجهتها فوجدتها عشرين مشكلة.

فما هو إذن سر راحتى وهدوئى وشعورى بالخفة والانطلاق!

لقد حاولت أن أعرف السر فى نفسى فلم أستطع، فرحت أبحث عنه فى نفوس أخرى... ثلاثة أشخاص تعودت أن أراهم فى الأسكندرية كل صيف... وهم جميعاً يرتدون الملابس الشتوية كاملة، وفيهم من يحتفظ بصديرى فوق القميص، و«بالجيتر» فوق الحذاء... أستاذنا لطفى السيد، والدكتور سليمان عزمى، وممرن الخيول سيمون... وكلهم تجاوزوا الثمانين... وفى كل عام تتجدد أعمارهم، وتكتسب فتوة، ونشاطاً، ونضارة!.

إنهم لا يرتدون «الشورت»، ولا «المايوه»، ولا يسبحون فى الماء، ولا يمشون على رمال الشاطى بأقدام عارية... إن عقولهم ونفوسهم وقلوبهم هى التى ترتدى «الشورت» و«المايوه»... إنهم يحررونها من التفكير العميق، ويكتفون بالنظرة العابرة، والمشاهدة السريعة... فأستاذنا لطفى السيد معلم الجيل، وفيلسوفه، صاحب العقلية التقدمية، والفكر الواعى المدرك يريح رأسه ـ خلال فترة الصيف ـ من الدراسات الثقيلة ويكتفى بقراءة الجرائد والمجلات العربية والفرنسية. وهو يجلس فى بهو الفندق يتأمل الرائحين والغادين. ثم يستقل عربته إلى بلاج المنتزه، ويعود إلى الفندق عند الظهر ليتناول طعام الغداء، ويأوى إلى غرفته حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم ينزل إلى الفندق ليستقبل زائريه ويوزع عليهم ابتسامات من

وحى يومه، وأفكاراً من وحى أمسه! ثم يخلو بصديقه الدكتور سليمان عزمى ويلعبان الطاولة ساعة أو ساعتين!

والدكتور سليمان عزمى يقضى يومه مع أسرته الصغيرة، ويختلس من الساعات الأربع والعشرين ساعتين يقضيهما مع صديقه لطفى السيد.

وسليمان عزمى أستاذ الطب الباطنى، وقد تخصص فى مرض القلب، وهو نفسه يعانى هذا المرض من نحو خمسة وثلاثين عاماً!

وفى أثناء أشهر الصيف يغلق عيادته، ولا يعود المرضى إلا فى الحالات المستعصية، وإذا رأيته اليوم فى نشاطه وحيويته أحسست أنه شاب فى الثمانين!

والمرن سيمون هو المريض الوحيد الذى يعوده الدكتور سليمان عزمى فى الاسكندرية فهما ينزلان فى فندق واحد، وكلما انتابت سيمون أزمة قلبية استدعى له الفندق أقرب طبيب... وسليمان عزمى هو أقرب طبيب من غرفة سيمون لأنه يحتل الغرفة المجاورة!

وقصة سيمون تدعو إلى الدهشة والعجب... فهو قد أشرف على التسعين ولا يزال إلى الآن يتولى تدريب خيول السباق، ويذهب إلى الإسطبل كل يوم مرتين، ليتولى تضمير الخيل، وتمرينها، وعلاجها، وطريقة معيشتها...

وقد أصيب منذ عامين بمرض من أمراض القلب، وأجمع العلم والطب على أن أيامه معدودات، وذهبوا به إلى المستشفى، ولما طالت إقامته هناك ارتدى ملابسه وغادر المستشفى إلى الفندق، وهاج أخوه الذى يصغره بأربعين عاماً وقال له: حرام عليك تترك المستشفى وأنت مريض مرض الموت!

وفى كل صيف كنت أرى سيمون ومعه أخيه الصغير... ووجدت فى هذا الصيف سيمون وحده... فقد مات أخوه!

وكان الطبيب قد منع سيمون من أكل البطيخ، واستعمال الملح، وتناول الشاى، ولكن سيمون لم يخضع لتعليمات الطبيب. وظل يأكل البطيخ، ويستعمل الملح، ويتناول الشاى بإسراف شديد... وغضب «ا تمورجى» الذى يتولى خدمة سيمون وقال له: أنا لا أستطيع الاستمرار فى خدمتك مادمت لا تتبع تعليمات الطبيب... ويقول سيمون: لقد عشت تسعين عاماً على البطيخ والملح والشاى... ووجدت الذين لم يأكلوا البطيخ، ولم يستعملوا الملح، ولم يشربوا الشاى قد ماتوا فى ريعان الشباب... فكيف أكذب الواقع وأصدق الطب!

وفى أحد الأيام تأخر «التمورجى» عن الحضور فى موعده المعتاد... وأقسم سيمون أن يضربه بالعصا، ولكن سيمون لم يبر بقسمه فقد مات «التمورجى»!

وسيمون يعيش بقوة الإرادة، والعناد، وقد كافح فى حياته حتى أصبح شيخ ممرنى الخيول. وفى إسطبلاته تربت خيول سلطان والشريعى وأحمد ماهر وحفنى محمود وشعراوى وعبود وعشرات من خيول الوجهاء وأصحاب الملايين من أجانب ومصريين، وهو يحتفظ بذكريات، عن جميع الوزراء وأصحاب السلطان خلال سبعين سنة مضت.

وسيمون قصير القامة، ضامر الجسم، عصبى، عنيد، يتوكأ على عصا خيزران وقد أنهكته الأيام حتى لم يبق منه إلا عناده، وعصا الخيزران!

ويقول أصدقاء سيمون إن عزرائيل زاره خلال العامين الماضيين مرتين... فكان يهش عزرائيل بعصاه فيتقهقر عزرائيل احتراماً لشيخوخة سيمون، ولكن عزرائيل لا ينبغى أن يزور أحداً ويرجع ويده فارغة... ففى الزيارة الأولى ترك سيمون وأخذ معه شقيق سيمون... وفى المرة الثانية

ترك سيمون وأخذ معه «تمورجى» سيمون!

إن سيمون مثل سليمان عزمى، مثل لطفى السيد، لم يرتد جسمه الشورت، ولا المايوه فى أثناء الصيف... ولكن ثلاثتهم كانوا يحررون رؤوسهم وقلوبهم من القيود... ويجعلونها تلبس «الشورت» و«المايوه»...



نحن نتعلم... لكى نحيا!

ما الحياة بالنسبة إلى الإنسان؟ هل هى أن يتنفس برئته، ويتحرك بجسده، ويأكل وينام؟ لو أن حياة الإنسان هكذا، فما الذى يميزه من الحيوان الذى يتصرف بغرائزه، ولا يقوى على أن يهذب هذه الغرائز أو يفلت من قيودها؟

لا شئ. ولكن الواقع أن الفرق بين الحياة الإنسانية، والحياة الحيوانية، واضح وعميق فالحيوان يتنفس بالرئة، ونحن نتنفس بالرئه وبالذهن. والحيوان يتحرك بجسده ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان يرى بعينيه. ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان تمر به التجارب والأحداث فلا يهتم بها، ولا يستفيد منها، ونحن ندخل التجربة ونفيد منها، ونواجه الأحداث ونتأثر بها، ونؤثر فيها... الحيوان يستسلم للغريزة، ونحن ندرس غرائزنا ونقدر على أن ننتقى منها ما هو خير، ونتفادى ما هو شر. الحيوان يعبر الحياة فلا يضيف إليها شيئاً، ونحن نبنى الحياة، ونطورها ونسمو بها...



الجمال... أقوى من الحب!

والجمال... ياله من قوة طاغية؟ ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟

لو أردنا أن نحصى كل ما قيل عن الحب والجمال، لملأنا آلافاً من المجلدات، وبرغم ذلك مازلنا نعانى الحيرة فى مفهوم الحب والجمال، ونتساءل ما هما، وهل لهما حقيقة محددة، أو أنهما شعور طليق ليس له حدود؟

والفرق بين الحقيقة والشعور، أن الحقيقة يمكن التعبير عنها بسهولة. وإن كان الحصول عليها صعباً، أو مستحيلاً. وعلى عكس ذلك الشعور: الانفعال به سهل، والتعبير عنه شاق، وأكاد أومن بأن الجمال والحب شعور ذاتى، فنحن نحس الجمال. وننفعل بالحب، دون أن نتجشم ما ينبغى أن نتجشمه للوصول إلى الحقيقة من بحث، ومنطق وإدراك!

ولنتصور إنساناً لا يشعر إلا بعد دراسة، ولا ينفعل بالحب إلا بعدما يستخدم علمه ومنطقه... إن مجرد هذا التصور يثير السخرية حتماً!

الحب شعور لأنه ينبع من داخلنا، والجمال شعور لأنه أيضاً ينبع من داخلنا... فاعترافنا بالجمال لا يتوقف على خضوع ما نراه جميلاً لمقاييس اصطلحنا عليها، وإنما نعترف بجمال الشئ إذا ما انفعلنا به وتجاوبنا معه...

وقد تنجذب إلى ذات، أو جو، أو منظر، يحس غيرك نفوراً من هذه الذات، وهذا الجو، وهذا المظهر!

الجمال إذن مثل الحب ليس صورة عامة خارجية، ولكنه إحساس ذاتى ينبع من نفوسنا.

ولكن هذا استطراد ربما أقصانى عن الخاطر الذى أريد تسجيله فى هذه السطور... وهو خاطر بسيط لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد...

منذ عشر سنوات، كنت أقضى إجازتى الصيفية فى أحد الفنادق بمدينة الأسكندرية، واتفقت مع صيدلية قريبة من الفندق على أن ترسل لى «التمورجى» صباح كل يوم، ليحقننى بالأنسولين وكل الفيتامينات اللازمة لمن يعانون مرض السكر.

وكنت أشعر بالراحة والحرية، وأنا أتناول الحقنة فى غرفة النوم، فإن ذلك يهيئ لى أن أستلقى على السرير وأمارس أجمل لعبة رياضية تطيل العمر... وهى لعبة الكسل!

واتصلت بى الصيدلية، وأخبرتنى أن «التمورجى» مريض، وأنه لا يوجد عندها من يتولى مهمته إلا الطبيب الصيدلى، وهو لا يستطيع مغادرة الصيدلية... وحاولت أن أقنع الصيدلى بزيارتى ولكنه رفض... فلم يسعنى إلا أن أذهب إليه لأتناول حقنة تحت الجلد، وحقنه فى العضل... وشعرت بضيق شديد... هل سأرتدى ملابسى الخارجية يومياً وأتوجه إلى الصيدلية، ثم أعود إلى غرفتى وأخلع ملابسى لأستريح، أو أظل خارج الغرفة دون أن أستريح!

ولم أكد أدخل الصيدلية، حتى شعرت بنشوة عميقة... الصيدلى رجل وقور مهذب، ونظام الصيدلية رائق مريح... ولكن هذا لم يكن مبعث نشوتى، لقد أحسست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الخزانة، وبجوارها آلة تليفون!... ما جدوى أن أصف عينيها، وقوامها، وابتسامتها... وصوتها...

إن هذه السمات والملامح ربما كانت فى مستوى متواضع للجمال لو أن للجمال مستوى... ربما! ولكنها فتنتنى وأغرتنى بأن أتردد على الصيدلية فى اليوم الواحد عدة مرات... أشترى الدواء، وأعود بعد دقائق

وأسأل عن دواء أعلم أنه غير موجود!... ثم أعود وأشترى كولونيا، أو صابوناً، أو أمواس حلاقة، أو معجون أسنان!

وكان بجوار الصيدلية مقهى صغير. فأخبرت الفتاة أنى سأجلس فى المقهى أنتظر مكالمة تليفونية سيحولها الفندق على الصيدلية... وكنت قد أوصيت عامل تليفون الفندق أن يطلبنى كل نصف ساعة فى رقم تليفون الصيدلية!

وبعد أيام. عاد «التمورجى» إلى العمل، وأراد أن يوافينى فى الفندق كعادته قبل أن يمرض، ولكنى أفهمته أنى مستريح إلى تناول الحقنة فى الصيدلية... وسألنى: أليس فى هذا تعب لك؟ وأجبته بأن الذهاب إلى الصيدلية والعودة منها إلى الفندق يريحنى جداً. ولم يكن فيما قلته كذب أو مبالغة. فإن رؤيتى للفتاة كانت تتيح لى لذة أحلى من لذة الاعتكاف فى غرفتى، والاستلقاء فوق السرير، والاسترخاء على المقعد، والإغراق فى الكسل!

وكان لى فى ذلك الحين قلب يمارس حباً عابثاً... فحررتنى فتاة الصيدلية من حبى... لم أحبها، فقد كان جمالها أقوى من أن أحبها... وكان أقوى من حبى لغيرها!!

الجمال... ياله من قوة طاغية! ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟



الإنسان البدين.. قليل الدين!

عانيت فى هذا الأسبوع أزمة صحية لا عهد لى بها، كنت فى الأزمات السابقة أعرف مرضى، فأقاومه بمختلف الأدوية والعقاقير، أحياناً استشير الطبيب، وأحياناً لا أستشيره...!

فى هذه الأزمة لم أعرف المرض الذى أقاسيه على وجه التحديد، هل هو برد؟ ولكن البرد يقترن عادة بزكام، وسعال وارتفاع فى درجة الحرارة، غير أنى لم أشعر بزكام، أو ارتفاع فى درجة حرارتى، ولم أحس إلا السعال العادى الناشئ من تدخين السجائر بنهم شديد..

هل هو ضغط دم؟ الطبيب أكد لى منذ شهر مضى أن ضغطى طبيعى؟ هل هى حالة من حالات الكبد والمرارة؟ لا أدرى... كل ما أدريه أنى لم أكن أستسيغ طعم الماء أو الأكل أو السجائر، وأن رأسى يئن من الدوار، وأطرافى باردة وجسمى كله منهار!

وذهبت إلى واحد من أطبائى العديدين، وقد اخترت هذا الطبيب بالذات لأنه يميل إلى الأدب، والفن، والفلسفة، وهو متفائل دائما، يجيد الابتسام فى وجوه مرضاه، يستوى فى ذلك المريض المتماثل للشفاء، والمريض المشرف على الموت!

وفحصنى طبيبى، وقرر أنى مصاب بحالة من حالات البرد ساعد على شدتها مرض السكر!

وقلت له: إننى أسير طبقاً للنظام الذى وضعه لى، لكى أقاوم السكر، وصارحته بأنى منذ اتبعت هذا النظام، وهن عظمى، فلا أكاد أتحمل

نسمة باردة، وأصابنى الأرق فلا أستطيع أن أنام إلا بالأقراص المنومة، والحبوب المهدئة للأعصاب!

وضحك الطبيب وقال: إن الهزال هو العلاج الوحيد لمرض السكر.. ولو استطعت أن تخفض وزنك أكثر من ذلك فسوف تبرأ من مرض السكر حتماً!

واعترضت على رأيه هذا بأن بدانتى ليست طارئة، وإنما هى طبيعية، فقد خرجت إلى الدنيا وأنا من الوزن الثقيل، وعشت طفولتى وصباى وشبابى بديناً، وكنت برغم بدانتى إنساناً نشيطاً، أجرى دون أن ألهث وأركب البسكليت، وألعب البلياردو، وأصعد إلى الدور الرابع عشر مرات فى اليوم بأنفاس هادئة ومنتظمة!

وقال الطبيب: إن تكوينك غير طبيعى، ومهمة الطب أن يجعلك إنساناً طبيعياً، حتى لا تتعرض لأمراض أخرى أشد خطراً من مرض السكر، فأصحاب الوزن الثقيل، معرضون أكثر من غيرهم لضغط الدم، وتصلب الشرايين وتضخم الكبد، وكل أمراض القلب..

وذكر أنه قرأ فى إحدى المجلات العلمية، أن بعض رجال الدين فى أوروبا، يرون أن البدانة خطيئة يعاقب عليها الدين!

وأن الإنسان البدين يعد مذنباً، وعاصياً، لأن البدانة تنشأ من الإفراط فى الطعام وقد نهى الدين عن الإفراط فى كل شىء!

وقلت لطبيبى: إن ديننا يدعو إلى ذلك أيضاً، فمن تعاليم الإسلام: «خير الأمور الوسط» و«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» و«جوعوا تصحوا».

وهممت بالانصراف، فقال لى: انتظر حتى أكتب لك «الروشتة».

وقلت له لا حاجه لى بالروشتة لقد عرفت دوائى: لن آكل حتى أجوع، وإذا أكلت لن أشبع.

وقال الطبيب الفيلسوف: لو طبق مرضاى هذه الحكمة لاعتزلت مهنة الطب!

وذهبت إلى البيت ووجدت فى انتظارى صينية بطاطس مدعمة باللحم، وطاجناً من الأرز.. ولعنت الأنانية التى تجعلنى أوثر صحتى على أن يمارس طبيبى مهنته.. لعنت الأنانية والتهمت البطاطس والأرز، حتى أستطيع أن أتردد على الطبيب فى اليوم التالى!

إن التجارب علمتنا أن المرض مثل العمر، سر غامض، وقد عرفت ناساً كانوا يأكلون بنهم ولم يمرضوا، وناساً كانوا يأكلون بحذر وظلوا طول حياتهم مرضى..

ومنذ سنوات أصيب أحد أصدقائى بقرحة فى المعدة، وذهب إلى أوروبا، وعولج من مرضه، وعاد إلينا صحيحاً معافى، وذات يوم صدمته سيارة ومات!

ليست هذه الخواطر دعوة إلى الناس بأن يخرجوا على تعاليم الطب، وإنما هى برقية عزاء أبعثها إلى نفسى.. بعد أن أكلت صينية البطاطس وطاجن الأرز!



عقلى.. وصحتى!

مـا أكثـر الكلمـات التى وعـاهـا ذهنى وأنا صـغيـر، فبـهـرتنى من هذه الكلمات حكمة تقول: «العقل السليم فى الجسم السليم».

وكنت أظن أننى سـأظل مـبهوراً بها طول عـمرى. فالأذهـان فى مـرحلة الطفولة، مثل الأرض، تحتفظ بالبذور المغروسة فيها. البذرة القوية تنمو، والبذرة الضعيفة تذوب فى الأرض وتصبح جزءاً من الأرض!

ولكن سـوء حظى أغرانى بأن أناقش الحكمـة القديمـة، وأدخل مـعهـا فى تجربة، وانتهت المناقشة والتجربة بأن اقتلعت الحكمة من رأسى، فقد اتضح لى أن سـلامة جسمى تقتضينى أن أقيد عقلى فيصبح عاجزاً عن أن يفكر، أو يتخيل. وما جدوى العقل إذا عجز عن التفكير والخيال!

إن جـسـمى لكى يكون سليـمـاً من المرض، يجب أن أتبع فـى حـيـاتى نظامـاً صـارمـاً، فأمتنع عن الطعام الذى أحبـه، ولا أتناول من الأطعمـة إلا مـا لا أطيقـه كاللحم المسلوق، والخضـر الخالية من الملح، والخبـز الأسـمـر الجاف.. الخيار فاكهة.. واللبن الزبادى حلوى!

ويجب أيضـاً أن أقلع عن السـهـر، وأنام مبكراً، وألغى الليل من يومى ولا أعترف إلا بالنهار..

ولا ينبـغى أن أدخن سيجـارة، أو أشـرب فنجـان قهوة، حتى لا يرتفع ضغط الدم، أو أتعرض لهبوط فى القلب!

ولقد خضعت لهذا النظام فترة طويلة، فاكتسبت صحتى نضارة، ولكن عـقلى أخـذ يذوى، ويذبل وخـيل لى أنى فـقـدته فكنت أدق على رأسى

بأصبعى.. أحاول أن أبحث عنه كما لو كان شيئاً مادياً ضاع منى!

وفى هذه الفترة قرأت كتاباً قيماً عنوانه «عقلك مصدر الصحة والمرض» وهو من تأليف الدكتور «ك. س. وختل» وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٩٧ وتلقى علومه فى جامعاتها، وتخصص فى الطب العقلى، والطب النفسى الجسمى، ورحل إلى أمريكاً فى ١٩٣٧. وتوفر على معالجة حالات كثيرة من الأمراض، وعكف على دراسة مرضاه نفسياً وجسمياً، وعقلياً واستخدم دراساته وتجاربه فى كتابه الشائق الذى يقع فى أكثر من ٣٠٠ صفحة.

وقد ترجمه الأستاذ سامى على الجمال وراجعه الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة.

والفكرة الجوهرية للكتاب هى - كما يقول الدكتور مراد - أن ما يحدثه التفكير الخاطئ من اختلال فى الصحة الجسمية والنفسية، يمكن للتفكير السليم الواقعى أن يعالجه. ولا يعتمد المؤلف فى تدعيم فكرته على مجرد الجدل النظرى، بل يذهب مباشرة إلى الواقع ويستخرج من ملفات مرضاه عدداً كبيراً من الحالات، تاركاً للواقع الحى، أن يتحدث بلغته المقنعة.

ولقد أخذنى الكتاب بأسلوبه البارع فى سرد التجارب، وشرحها وتيسيرها بحيث يستطيع القارئ العادى أن يستوعب أدق الحالات.

والكتاب يتناول عدة فصول أهمها «ما الذى يجعلك مريضاً، وما الذى يجعلك سليماً» و«المريض بالوهم مريض فعلا وعقله يستطيع أن يشفيه».

وكل فصوله تزخر بقصص حقيقية لمرضى باشر الدكتور «وختل» علاجهم بنفسه. وبينهم من أدرك عقله حقيقة ما يعانيه واتبع نصيحة الأطباء فعاش، وبينهم من أخطأ فهم الحقيقة أو أدركها ولكنه لم يقتنع

بها فمات.

أحد المرضى كان يشكو من المرض بصفة عامة، وعرض نفسه على أمهر الأطباء فأثبتوا له أنه ليس مريضاً. ولكنه لم يصدق أطباءه وصدق نفسه، وانتقل إلى العالم الآخر.. وجاء فى تقرير وفاته أنه «مات فى أحسن صحة».

استهوتنى من الكتاب نظرية تؤكد أن الأمراض والإصابات تثير فى الجسم نشاطاً داخلياً فيرسل الجسم تلغرافات إلى المخ، ويتولى العقل حل رموز هذه التلغرافات.. مثلا إذا أصابك جرح خارجى فإنك تتلقى من داخل الجسم برقية تأمرك: «بأن تضمد الجرح وتستدعى الطبيب» والعاقل من ينفذ الأمر فوراً فيظفر بالشفاء!

ولقد دفعنى الإعجاب بهذه النظرية إلى أن أطبقها على نفسى، فجعلت من مخى جهاز استقبال للبرقيات التى أتلقاها من داخل جسمى.. وكانت أول برقية مغصاً فى الجانب الأيمن من البطن وحللت رموزها فإذا هى حالة «مصران» أعور.. وذهبت إلى الطبيب وفحصنى وقرر أنى لا أعانى أى التهاب لا فى «المصران» الأعور ولا فى «المصران» الغليظ!

وكانت البرقية الثانية ضيق تنفس وفهمت من الرموز أن هذا الضيق إنذار بذبحة.. وفحصنى الطبيب وقرر أننى على ما يرام.. وكانت البرقية الثالثة دواراً فى رأسى وارتخاء فى جفونى، وأدركت أن هذه أزمة كبد.. وفحص الطبيب حالتى وقال لى: الكبد فى أحسن حال!

وكنت وأنا مهتم هذا الاهتمام بالبرقيات التى أتلقاها من صدرى وأمعائى أسير طبقاً للنظام الطبى الصارم. لا سهر، ولا تدخين، ولا طعام، ولا قهوة، ولا انفعال بالحياة!

وفى لحظة من لحظات هياج الأعصاب قررت أن أصفى جهاز استقبال التلغرافات، التى أتلقاها من داخل الجسم حتى أريح نفسى من الحيرة هل أنا أعانى المرض؟ أو أنا أعانى الوهم.. ثم إنى وجدت أن اهتمامى بصحتى، قد أورثنى ضياع عقلى.. فإن اتباعى لنصيحة الأطباء قد حولنى من جثة هامدة إلى جسد يتحرك ولكنه فى الوقت نفسه قد جعل من رأسى ضريحاً يضم رفات عقلى!

إن النظام الذى وضعه لى الأطباء يحتم أن استسلم للفراش. يرقد جسدى فلا يتحرك. ويرقد عقلى فلا يفكر.. ويرقد قلبى فلا ينفعل!

وهذا النظام قد يطيل عمرى، ولكنه لن يطيل حياتى.

لقد قاطعت السجائر، فشفى الله صدرى وحلقى من الكحة والسعال، ولكنى كنت أحس أن عقلى يسعل ورأسى يكح.

إن دخان السيجارة هو العصا التى تتوكأ عليها خواطرى، والأجنحة التى تحلق بها أفكارى وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون خواطر، وأفكار!



العقـــاد

اليوم يجتمع أصدقاء أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد، فى مسكنه القديم بمصر الجديدة، لمناسبة بلوغه العام الرابع والسبعين. وقد قرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة فى الصباح..

فالعقاد الذى سهر الليالى ستين عاماً يبحث، ويفكر، وينظم الشعر، ويؤلف الكتب. أصبح بحكم السن لا يسهر إلا فى النهار!

إن العقاد أستاذ جيلين أو أكثر فمنذ نيف وخمسين عاماً بدأ اسمه يظهر فى حياتنا الأدبية، كأحد ثلاثة من طليعة الثائرين المجددين فى الشعر، الداعين إلى وحدة القصيدة.

أما زميلاه الآخران فهما عبدالرحمن شكرى وإبراهيم عبدالقادر المازنى.

وقد كتب العقاد مقدمة الجزء الأول من ديوان شكرى فى عام ١٩١٢. وتعد هذه المقدمة أول دراسة جاءت واعية لمفهوم الشعر، ومن يقرؤها اليوم تأخذه الدهشة لما تنطوى عليه من آراء متطورة والتفاتات ذهنية إلى جميع اتجاهات الأدب العالمى.

وقد ظل العقاد طيلة حياته يمارس الكتابة والاطلاع، والدرس بعمق ومعاناة ويتزود بالثقافات الإنسانية على اختلافها، ويتابع بفهم ووعى كل ما يصدر فى العالم من كتب فى الفلسفة وعلم النفس، والمنطق، والسياسة والتاريخ، واللغة، والدين، وفنون النحت، والرسم، والموسيقى والمسرح.

والعقاد شخصية إنسانية فذة فهو أستاذ نفسه. وتلميذ نفسه أيضاً.

فمازال حتى هذه اللحظة يخصص وقتاً لتلمذته هو الوقت الذى يقضيه فى القراءة، ويخصص وقتاً لأستاذيته هو الوقت الذى يكتب فيه!

والعقاد شاعر، ومفكر، وكاتب. وقد اشتركت فى تكوينه نزعة العاطفة ونزعة العقل، وكان فى مطلع شبابه لا يتحيز لإحدى النزعتين وأخيراً آثر العقل ولاذ بحماه فهو يسيطر بعقله على جميع انفعالاته العاطفية والفكرية وما أكثر ما اشتبكت فى عقل العقاد عناصر الشك واليقين. ثم انتهى هذا التشابك إلى إيمان راسخ بالدين والعلم معاً.

ولقد أصدر العقاد حوالى ثمانين كتاباً تؤكد جدارته بالقمة التى يجلس فوقها.

وعندما بلغ السبعين من عمره كان عدد الكتب التى ألفها يوازى عدد السنين التى عاشها، وقد سألته إذ ذاك:

«لو التقى بك التاريخ وقال لك أنا مسافر الآن إلى الأجيال القادمة.. وأريد أن أحمل معى إلى أبناء هذه الأجيال كتاباً واحداً من كتبك فما هو الكتاب الذى تختاره؟».

فقال بلا تردد: أختار كتابى عن ابن الرومى..

وابن الرومى معروف بشؤمه، وقد لحق شؤمه بالعقاد. فعندما كان يؤلف هذا الكتاب قدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة العيب فى ذات الملك فؤاد وأدانته محكمة الجنايات، وأمضى فى السجن تسعة أشهر.

وسألت العقاد: لماذا اختار كتابه عن ابن الرومى؟

فقال: هذا الكتاب يحدد مقاييسى فى النقد، وخلاصة رأيى فى الأدب الإنسانى.

ودار بينى وبينه حوار أسجل منه هذه السطور:

- ألا تخاف على نفسك وأنت فى التاريخ من شؤم ابن الرومى؟

العقاد: إننى ما خفت على نفسى من شؤم ابن الرومى وأنا حى أستطيع الخوف.. فهل أخاف منه بعدما تنتهى الحياة وأصبح عاجزاً عن كل شىء. حتى عن الخوف!

- ألا تخشى أن يمتد شؤمه إلى عمرك الآخر.. عمر الخلود؟

العقاد: أصبحت لا أكترث بالخلود!

- هل تتساوى قدرتك على التعبير الفنى مع قدرتك على تلقى المعلومات والانفعال بالشعور؟

العقاد: أظن.. ربما.. نعم!

- هل تحب أن تغزو التاريخ بشعرك أو بكتابتك؟

العقاد: بشعرى..

- وأى قصيدة تختارها لتغزو بها التاريخ؟

العقاد: قصيدتى «ترجمة شيطان».

- ولماذا تختارها وحدها؟

العقاد: لأنها تصور منى الجانب الشعرى والجانب الفكرى.

- هل تعتقد أن التاريخ سيحتفظ بكتاب آخر من كتبك غير كتاب ابن الرومى وقصيدة أخرى من شعرك غير قصيدة ترجمة شيطان؟

العقاد: هذا الأمر لا يعنينى!

ربما شك بعض الناس فى أن العقاد لم يقل الحقيقة عندما أجاب هذه الإجابة. ولكن الذى لا شك فيه أن الاحتفاظ بآثار العقاد أمر يحرص عليه التاريخ.

الفقر الذكى.. والثراء الغبى!

ماذا تصنع لو خيرتك الأقدار بين أن تكون فقيراً ذكيا، أو ثريا فى منتهى الغباوة؟

إذا تركت نفسك لسجيتها، فسوف تختار حتماً، الثراء مع الغباوة.. فالفقر يقتل فى الإنسان كل شىء، يقتل المواهب، والمشاعر، والمعانى... إنه يحول القوة إلى ضعف، والصحة إلى مرض، بل إنه يحول الذكاء المفرط، إلى غباوة مطلقة!

وقديماً دعت أعرابية لطفلها الوليد أن يرزقه الله حظاً يخدمه أصحاب العقول، ولا يرزقه عقلاً يخدم به أصحاب الحظوظ!

وهو دعاء يتمشى مع الغريزة، والفطرة، ومنطق الحياة..

أنا شخصيا أوثر أن أكون ذكيا ولكنى أكره الفقر.

وليس معنى ذلك أنى أحب المال. أو على الأصح لست أعرف كيف أحدد علاقتى بالمال، هل أحبه أو أكرهه. فما أكثر ما تتجمع الأموال فى يدى، وما أكثر ما أبددها.. وكلما عضنى الإفلاس بأنيابه الحادة لجأت إلى مصل السلف.. أحقن به نفسى! أحياناً أحصل على هذا المصل من البنك، أو من إدارة الجريدة وأحياناً أحصل عليه من السوق السوداء بواسطة المرابين!

والذين يروننى يظنوننى فى حالة ثراء فاحش.. فأنا أتصرف فى المال كالأغنياء، والفرق بينى وبينهم أنى أنفق آخر قرش، وهم ينفقون أول قرش.. وأنا مثل الأغنياء أتعامل مع البنوك والفرق بينى وبينهم أنهم يدينون البنوك، وأنا أستدين من البنوك!

هناك كثيرون يحصلون على المال ويحددون إقامته فى عمارة أو أرض، أو سهم، أو سند، أو رصيد.. ولست من هؤلاء، فإنى لا أكاد ألقى القبض على المال، حتى أطلق سراحه وأتركه يركض دون أن أسأله إلى أين؟ دون أن أعرف هل يعود أو لا يعود!

ولعلى لم أجب بعد عن سؤالى: هل أحب المال أو أكرهه؟ وما أظننى أردت بهذه الكلمة أن أجيب عن هذا السؤال، وإنما أردت أن أسجل شعوراً تائهاً مبهماً.

ولكن لماذا انتابنى هذا الشعور اليوم بالذات؟

كنا نتحدث عن أمراض السكر، ضغط الدم، وتصلب الشرايين، وكان بيننا أساتذة فى الطب فأجمعوا على أن هذه الأمراض تظهر بكثرة فى الطبقة الغنية، وتختفى فى الطبقة الفقيرة، فقد ظهر من إحصاءات دقيقة أنه يوجد بين كل مائة غنى تسعون غنياً يعانون أمراض السكر والضغط وتصلب الشرايين. فى حين لا يوجد بين كل ألف فقير أكثر من شخص واحد يعانى هذه الأمراض.

وقد علل الأطباء الفنيون هذه الظاهرة، بقدرة الأغنياء على ملء بطونهم بالأطعمة الدسمة، والحلوى، والنشويات.. وليس هذا هو السبب الوحيد للأمراض التى أشرت إليها، فهناك نظرية ترى أن الخوف يجلب هذه الأمراض. ولقد قام أحد العلماء بتجربة أكدت صحة النظرية: حبس قطاً فى وضعين متقاربين. وقاس ضغط الفأر وضغط القط قبل حبسهما فوجد الضغط عندهما عادياً. وبعد شهر قاس ضغط القط فوجده كما هو، وقاس ضغط الفأر فوجده عالياً جداً.. وخرج من هذه التجربة بأن خوف الفأر من القط المجاور له هو الذى ضغط دم الفأر!

والخوف يدخل حياة الأغنياء ولا يدخل حياة الفقراء.. فعند الأغنياء

ما يخافون عليه من مال ومتعة، وجاه.. أما الفقراء فليس عندهم أى شىء يخافون عليه!

ولقد تآمر الترف والخوف على الأغنياء، فأصابهم بالسكر، وضغط الدم، واختصر أعمارهم.. ونجا الفقراء من الترف والخوف معاً فطالت أعمارهم، ولم يتعرضوا لهذه الأمراض الوبيلة، وكل مرض يصيبهم قابل للبرء والشفاء.. بما فى ذلك أمراض السل والأنيميا، والتهاب الرئة!

أما الأغنياء فلا يمكن أن يبرءوا من أمراضهم إلا إذا عاشوا كما يعيش الفقراء.. يعملون، ويكدحون، ويمشون ويمتنعون عن النشويات والدهنيات!

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ هل نفسرها بأنها عدل طبيعى لمحو الفوارق غير الطبيعية بين الأغنياء والفقراء؟ هل نفسرها بأنها سيطرة الذكاء الفقير على الثراء؟ إننى أميل إلى هذا التفسير الأخير.. فمنذ آلاف السنين احتكرت طبقة غنية قليلة العدد خيرات بلادنا. كانوا هم يملكون الأرض وكان الفقراء يعملون. كانوا يجنون، والفقراء يزرعون ويكدحون واستطاع الزارعون الكادحون بذكائهم أن يقنعوا الأغنياء بأن الأذرة، والجبن القريش، واللبن الرايب ليست إلا توافه. وأن الخير فى دقيق القمح الأبيض، والجبنة الدسمة، والقشدة والسمن.. وظل الأعيان يأكلون هذه الأطعمة التى تضغط دماءهم وتوتر شرايينهم.. وعاش الفقراء على الأطعمة التى أصبحت أحدث دواء لضغط الدم، وتصلب الشرايين.. وهى الجبن القريش، واللبن الرايب، والخبز المصنوع من الأذرة.

ويخطئ القارئ إذا ظن أن هذا الكلام بحث فى فلسفة الغنى والفقر والذكاء، والمرض.. فليس هذا الكلام فى الواقع إلا تحية لآبائنا الفلاحين الفقراء الأذكياء الذين استطاعوا أن ينتقموا من ظالميهم فيدسوا لهم السم فى الدسم.. فى الزبدة والسمن واللبن الحليب والبيض ودقيق القمح الأبيض!

قفى أيتها الأيام!

قفى أيتها الأيام، إنك لا تقطعين طريقاً.. ولكن تقطعين عمرى.. استريحى وأريحينى، فقد ظللنا نجرى معا أكثر من ثلاثة وخمسين عاماً..

ولكن.. كيف نتوقف عن المشى؟ إن معنى ذلك أن نموت، وأنا أتشبّث بحياتى، وهى مهما ترهقنى.. أحبها، إننا نبكى منها، وإذا هدّدتنا بالتخلى عنا.. بكينا على أنفسنا!

وما أعجب العمر!! إنه الشىء الوحيد الذى إذا زاد نقص.. وفى هذا اليوم ينقص عمرى.. فقد أضافت إليه الأقدار عاماً جديداً!!

* * *

وجهة نظر
مولد الرسول

هذا الإنسان العظيم جعل من الكلمة سلاحاً ونوراً. فبالكلمة التى تلقاها من ربه، بالقرآن بين للناس الحق من الباطل، والخير من الشر، وبالكلمة دعانا إلى أن نتأمل، ونرتفع وننمو، ونتقى، ونحب الآخرين.

ولنفكر فى كل شىء: فى أنفسنا، فى السماء، فى الأرض، فى الله.

ولنمد يدنا للفقير. وما نعطيه لهم ليس صدقة، ولكن حق لهم عندنا!

ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً.. ولنعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً..

ولنتحرر من الضعف فلا انحلال ولا استخذاء، ولكن قوة نحارب بها أعداءنا، فإن جنحوا للسلم جنحنا لها، ولا استغرق فى الكون، ولكن ممارسة للحياة.. ولا انعزال عن المجتمع ولكن اندماج فيه، ومشاركة فى العمل والبناء..

ولنقذف بالأوهام إلى قاع سحيق.. فلا سحر، ولا شعوذة، ولا رجم بالغيب.. وكذب المنجمون ولو صدقوا!

ولا تأليه لطاغية، أو صنم، أو شهوة. ولكن تحطيم للطغاة، والأصنام والشهوات.. فلا إله إلا الله!

والمسلم لا يتعصب ولكن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وهو يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلا تفرقة عنصرية ولا تمييز لجنس أو لون، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بتقوى الله!

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده.. والإسلام سلام.. فتحية المسلمين فى الدنيا: السلام عليكم، والجنة تحيتهم فيها سلام!

وقد عمت رسالة نبى الإسلام العالم، وصارت حضارة فكرية نامية، وعقيدة دينية راسخة.

وصلى الله على محمد....



إلى أين....؟

فى منتصف ليل أمس، وعلى قرع أجراس الكنائس، وخلال فترة ظلام صاخب، امتدت يد القدر إلى حياتى فانتزعت منها عاماً كاملاً..

وكم من مرة انتزع القدر من حياتى أعواماً وأعواماً، فما تألمت، ولا جـزعت لأن أيامى كانت كثيرة... كنت فى ثراء فاحش من صباى وشبابى... ولكن أيامى اليوم قليلة.. وانتزاع عام منها يشعرنى بالفقر، والفراغ، والعدم... فقد تجاوزت الأربعين، تجاوزتها وحدى لا صحة، ولا مال، ولا زوجة ولا ولد، ولا صديق..!

إلى أين أيها العام المنقضى...؟ إلى أين أنت ذاهب بأعمارنا، وإلى أين نحن ذاهبون...؟ ولو كنا ندرى لما سحقتنا الحسرة والحيرة، ولو كنت تدرى لكان لنا فيك عزاء عن جهلنا، ولكنك مثلنا تجهل ولا تعلم..!

وإلى متى نرى أعمارنا هكذا تجرى بلا قيد وراء الأعوام الذاهبة..؟ ونرى آمالنا ترسف، بل تحجل، وكأنما هى مشدودة إلى جبل..؟

ولكن علام نبكى الحياة، وماذا لو رحلت عنا، أو رحلنا عنها.... ما دام الرحيل هو الغاية والهدف...؟

وما هى الحياة..؟ إنها كما يقول «أبوالعلاء».

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد.

وهل نحن، والحياة، والموت.. إلا كما يقول «إديسون»: نئن ونبكى وهذه هى الحياة.. ثم نتساقط ونذهب.. وهذا هو الموت»!

أمض أيها العام.. أمض.. فغداً مثلك سنمضى..!

رسائل حب

كان كامل الشناوى يحرص على أن يعبر عن خلجات نفسه، وخفقات قلبه وفوران عواطفه فى رسائل يكتبها للملهمة التى أحبها بصدق بعضها أرسله إليها والبعض الآخر احتفظ به.

تلك الرسائل احتفظ بها ورحل وتركها فى أدراج مكتبه، حرص شقيقه الشاعر مأمون الشناوى على أن ينشرها للقراء بعد أن رفع منها الأسماء وبعض الوقائع التى ربما قد تشير ولو من بعيد إلى من عناهم بها.

تلك الرسائل تعكس مشاعر اللهفة والحنين والصدق فى حب هذا القلب العاشق الذى لم يجن من حبه سوى العذاب والألم والدموع الصامتة!

أنها خفقات قلب.. وأنات روح.. ومشاعر شاعر أحب فعشق فصدق، ثم تعذب وبكى وتألم!، وبعد، فهذه هى بعض تلك الرسائل .

وكل الدلائل تشير أنه كتبها للمطربة "المنيون" التى أحبها والتى قال عنها فى إحدى خواطره:

«ياقدرى الشقى...ياحبى

متى تيأس منى، فلا تطاردنى، ولا تغرينى بأن أطاردك؟!

وكانت مأساة قلب كامل الشناوى أنه أحب لدرجة العشق المجنون، فبعد أن اكتشف خيانتها لم يستطع أن ينساها أو يكرهها، حتى أنه صرخ فى قلبه المشدود إليها متمردا:

كيف يا قلبى ترتضى   طعنة الغدر فى خشوع؟

وتدارى جحودها في رداء من الدموع؟

لست قلبي..وإنما خنجر أنت في الضلوع؟!

دمرتني لأنني كنت ـ يوما ـ أحبها

وإلى الآن لم يزل نابضا فيك حبها؟

لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها

ولأن الشاعر لم ينسها، فقد ظل يناجيها في رسائل حبه ويعاتبها، ويهاجمها، ولكنه لم يكرهها، وقد ذكر شقيقه مأمون الشناوى قصة هذه الرسائل ولماذا قرر نشرها، فقال:

«ترددت طويلا قبل أن أشرع في تقديم هذه الرسائل.. فصاحبها الشاعر الفنان كامل الشناوى لم يكتبها لتنشر على الناس وأنما كتبها لتقرأها واحدة من الناس كتبها واحتفظ بأصولها لديه، ولعله لم يرسل هذه الرسائل.. ولعله بعث بها كلها.. ولكن لاشك أن ثمة رسائل أخرى كثيرة ذهبت إلى من وجهها إليهم دون أن يحتفظ بأصولها.

ولقد حسمت ترددى وأقدمت على نشر هذه الرسائل بعد أن رفعت منها الأسماء وبعض الوقائع التى ربما قد تشير ولو من بعيد عناهم بها.

وبعد، فهذه هى بعض رسائل كامل الشناوى العاطفية التى كتبها للمرأة التى أحبها بكل نبض قلبه، وبكل صدق مشاعره نلمس فيها حرارة العاشق المفتون، وثورة القلب المهجور، وغضب الوجدان المجروح من تلك الملهمة التى أدمت قلبه، وأسالت دموعه، وأهدرت كرامة المحب المفتون.. إنها خفقات قلب، وهمسات روح قبل أن تكون مجرد رسائل حب.

رسائل حبه إليها

(١)

حبيبتى...

اغفرى لى هذه الحماقات... اغفرى لى حبى... ووفائى... واصفحى عن قلبى المسكين فقد أحب بلا قصد... ولا عمد... ولا سبق إصرار وأنسى كل التفاهات الكثيرة المتعددة التى طالما خدشت بها أذنيك معبرا عن ألمى وغيرتى!

فما كان لى أن أتألم... ولا أن أغار؟ وما كان لى أن أدع شعورى بالألم والغيرة يطرق سمعك الرقيق الذى ما تعود غير كلمات الرياء والخداع والثناء...

لا تظنى بى السوء أو الشر فما كنت سيئا ولا شريرا.

كل ما هنالك أننى أردت أن أرفع روحى إلى سمائك فوجدتنى فى الهاوية... ولست أدرى هل أخطأت الطريق إلى السماء فهويت... أم أنك لم تكونى قط فى السماء!؟

إنى أكاد أفنى خجلا وحياء كلما تذكرت كلمات الطهر والبراءة والقداسة التى أتعبتها من طول ما مرت بشفتى ولم تستطع الكلمات ولم تستطع شفتاى أن تجعلها تتجاوز فمى إلى أذنيك...

لقد كنت أطمع فى أن أصبح فى مكان الإعزاز من نفسك... واخجلتاه من هذا الغرور... ولكنى يعزينى أنه لم يدم طويلا... فلقد عرفت فى وقت

قصير أنى لن أكون فى هذا المكان لا لأنه لا يوجد فى قلبك... بل لأن قلبك ليس له وجود! وظننت أنى قد أكون صديقا... فإنك تحسنين لقائى وتبتسمين لى وتشدين على كفى بقوة واندفاع... وهذه معاملة الأصدقاء... واسترحت قليلا لهذا الوهم الذى فلسفت به عواطفك... ثم إذا بى أراك تحسنين لقاء الناس جميعا وتشدين على أكفهم جميعا بقوة واندفاع...

ما أكبر حزنى... لقد تخيلت أن هذه الابتسامات وهذا الحنان وهذه الرقة تخصيننى بها وحدى ولم أدرك أنها صورة معروضة أمام جميع الأنظار... وكتاب منشور للقراء... وإذا أنت كالوردة لا تضن بعبيرها على من يزرعها فى حديقته ولا على من يسرقها من حديقة الجيران!

طالما اتهمتك بالدهاء فى المعاملة ولباقة التصرف وكياسة السلوك... أبدا لست كذلك... إنما أنت دمية جميلة صنعت هكذا ولا حيلة لها فى نفسها... ولا ضير عليك وإنما الضير على أولئك الذين ظنوك مخلوقا يحس ويعقل... ولكن كيف تكونين دمية؟ وهذا الجمال كله أيكون من صنع بشر؟ أأنت من صنع إنسان؟؟ كلا بل خلقك الله كما خلق الشيطان والأفعى.

ولقد أحببت من أجلك كل شيطان وكل أفعى... ولست آسفاً... والحزن الذى سيطر على نفسى سأعرف كيف أمسحه بدموعى..

(٢)

حبيبتى...

مازلت على هدوئى

لم أثر... ولم أغضب... ولم أعاتبك ورضيت أن أتقبل مصيرى كما هو... لا كما أرجو أن يكون من يدرى...

(٣)

حبيبتى...

لقد أحببتك من قلبى... وكرهتنى من قلبك!

منحتك دمى ووقتى وعقلى... ثم كشفت لك صدرى لأتلقى أوسمة رضاك... فرشقت مكان الأوسمة سهاما مسمومة.

لقد فتحت لك ذراعى لتملئي بوفائك ما بينهما من فراغ فإذا أنت تملئين هذا الفراغ غدرا وحقدا.

(٤)

حبيبتى...

أنسى؟ وكيف أنسى هذا الحب ولا حياة لى بغيره.

حاولت أن آخذ بنصيحتك... حاولت أن أنسى فانطلقت الذكريات من أعماق الماضى تشحن بالجراح نبض قلبى وخلجات نفسى.

(٥)

حبيبتى...

إننى هنا أبذل محاولتى الأخيرة فأصارحك بالحقيقة.

إنك لم تكونى لى مخلصة ولا وفية ذات يوم... لا حبا فى خيانتى والغدر بى... ولكنك عاجزة عن الإخلاص والوفاء...

ربما كانت هذه فلسفتك فى الحياة

وليس من حقى أن أثنيك عنها... كما ليس من حقك أن ترغمينى على الرضوخ لها.

(٦)

حبيبتى...

كيف بكيت من عتابى؟

لأول مرة فى حياتى أرى القسوة تبكى!

أذهلنى أن أرى الروح الكثيفة تستشف الألم وتتأثر!

لعلك مظلومة... ولكن لماذا تلجأين للصمت وراء الدموع؟

لماذا لا تتكلمين... فربما قاومت الأقدار التى كتبت لك الغدر وكتبت لى الوفاء؟

أصارحك بأنى ضعفت أمام دموعك... ضعفت أنا وبقيت المشكلة قوية كما هى... بل أقوى..

(٧)

حبيبتى...

ولا تظنى أنى أتشبث بك... ولكنى أتشبث بقلبى الذى مزقه حبى لك... وبكبريائى التى أهدرتها بيديك...

أتشبث بهذه الدموع التى أرقتها فوق رمال محرقة.

(٨)

حبيبتى...

أتعجبين حقا من أننى أعيد سماعة التليفون إلى مكانها بمجرد الاستماع إلى صوتك.

ألا تعرفين السبب؟

إذن فلأصارحك

فمازلت على خطتك الهابطة وأسلوبك الملتوى...

إننى أسمع صوتك فى التليفون فيخيل لى أنك تخاطبين شخصا آخر... لا صدق... ولا عاطفة بل لا صوت... وإنما هى أصداء حديدية تتردد فى آلة من حديد...

معذرة يا سيدتى فأنت على حق حين تسألين: لماذا أثور هذه الثورة...

نعم... لماذا كل هذا... لماذا أشقى نفسى بمعان لم يكن لها وجود فى نظرك!

أليس أجدى من كل هذا أن أنفض قلبى من حب ذهب ولن يعود.

وفيم أحزن وأشقى، بل وفيم أذكرك؟ لماذا أبكى منك أو أبكى عليك؟

(٩)

حبيبتى...

وعدتنى بزيارتى... ولكن كعادتك أخلفت وعدك... واعتذرت بأنك مريضة.

وتشاء الأقدار أن أراك فى نفس اليوم وبعد الموعد بقليل هناك على شاطئ النيل فى المكان الذى أعد ملتقى للأحباب والعشاق.

أى شىء أنت؟ أى جناية؟ أى جريمة؟ أى مأساة... معذرة أيتها الملاك... فأنا وحدى الجريمة والجناية والمأساة...

* * *

«من رسالة له إلى صديق»

عزيزى...

تقول إنها ليست فى حاجة إلى المال وتدهش لأنها تطالبك بمال ليست فى حاجة إليه.

إنها يا صديقى كميزان الطريق لا تقدر وزنك إلا إذا وضعت القرش فى ثقبه!!!

«من رسالة إلى صديق»

عزيزى...

إنها لم تخدعك... أنت الذى خدعت نفسك... وظننت أنها لك وحدك...

لم تخدعك... لأنها تكون لك وحدك حينما تكون معك أنت وحدك ولا أحد سواكما فى المكان.

(١٠)

حبيبتى...

لم يعد بيننا ما يغرى بأن أخدعك، أو تخدعينى فقد خرجت من حياتى وأنا أيضا خرجت من حياة نفسى! لا تدهشى... فالحياة التى أحياها اليوم لا يربطنى بها ما يربط الناس بحياتهم من أمل ويأس... أو راحة وعذاب... إنها حياة لا أتحرك فيها، ولكن أتمدد كجثة... وهى لا تضمنى بين أحضانها ولكن تلفنى كالكفن!

فى استطاعتى الآن فقط أن أصارحك بحقيقة قصتى معك... لقد خدعتنى... وخدعتك... خدعتنى بكذبك الذكى، وخدعتك بصدقى الغبى.

ظللت سنتين كاملتين أتوهم أنك تحبيننى، فجريت وراءك بقلبى الأبله ومشاعرى الحمقاء... وخلال السنتين كنت أنتزع من نفسى خلجاتها وأقدمها لك فى آهة، دمعة، كلمة، قصيدة... وقد دفعك إيمانك بصدق عاطفتى إلى أن تمارسى حقوق حواء بقدرة وجدارة... فغدرت بوفائى وضحكت من دموعى!

واستطاع حبى لك أن يحررنى من سيطرة عقلى على تصرفاتى. فكنت إذا مشيت أتخبط، وإذا فكرت أهذى... وأخذت - كأى مجنون- أتناول كل ما تقع عليه يدى وأحطمه... ومن سوء حظك أن يدى وقعت على قلبى ذات ليلة وحطمته، وبدأت منذ تلك الليلة أفيق من غفلة القلب وأعرف الحقيقة الضارية.

هل تذكرين تلك الليلة...؟ أنا أذكرها فاستمعى لى، ولا تحزنى!.

لقد حاولت أن أنساها، ولكننى لم أستطع... ففى حياة الناس أشياء يعجزون عن نسيانها لأنها تثير خجلهم... وكم شعرت بالخجل وعانيته طيلة هذه السنين، وأعتقد أن خجلى سيعيش معى إلى أن ألفظ آخر أنفاسى... فإن ذاكرتى لا تريد أن تنسى هذه الليلة.

* * *

كنا فى بيتك القديم، وكان مفروضا أن نسهر فيه لنحتفل بعيد ميلادك التاسع عشر. وكان المدعوون يزيدون على العشرين، بينهم قليلون أعرفهم، وآخرون لم ألتق بهم قبل اليوم... وبغتة أعلنت أن الاحتفال بعيد الميلاد ينتقل إلى مكان آخر، وسألتك عن المكان فأرسلت ضحكة تنبض

بالخبث والجاذبية... وقلت لى ستعرف المكان عندما تصل إليه. وقلت لك إننى أخشى أن يكون مكانا عام.

فسألتنى: هل تخشى من الأمكنة العامة؟

وأجبتك بأننى لا أخشاها ولكنى لا أستريح إليها فى مثل هذه المناسبات.

قلت: اطمئن... سنذهب إلى بيت أحد الأصدقاء الموجودين معنا الآن.

- ربما كان صديقك غير مستعد لاستقبالى فى بيته. وربما كنت أنا غير مستعد لقبول دعوته المفاجئة!

وقلت: إنه يكن لك الحب والاحترام

- من هو؟

وقلت: ألا تزال تصر على أن تعرفه منذ الآن؟

- كل الاصرار؟

* * *

وغبت عنى لحظة، وحضرت لى... وفى إحدى يديك ذراع شخص فى حدود الأربعين... يضع على عينيه نظارة سوداء، إطارها من الذه ب، وفى معصمه ساعة كبيرة أسورتها هى الأخرى من الذهب... وقد اعترضت صدره سلسلة ذهبية ضخمة، وتدلت من رقبته ربطة عنق فاقعة اللون، يتوسطها مشبك من الذهب الخالص... وفى إصبعين من أصابع يديه خاتمان أحدهما يبرق منه فص من الماس، والآخر له فص من الفيروز. حذاؤه أسود لا مع وبذلته جديدة بلا أناقة. قميصه أبيض وله كمان يمسك بهما زراران هما سلسلتان تنتهى كل منهما بقطعة نقود ذهبية من

فئة الجنيهات الخمسة!

وكان الرجل مزهوا بنفسه يتحدث عن أعماله التى لا تترك له وقت فراغ... وحاولت أن أعرف من طريقة حديثه نوع العمل الذى يمارسه، فخطر لى أنه مقاول، أو تاجر فى وكالة البلح، أو سمسار!

وقد أدهشنى أنه محام، وأنه يتولى قضاياك! وحاول الرجل أن يكون لطيفا معى فدعانى إلى بيته بإلحاح.

وحاولت أن أكون سخيفا معه فأفهمته أنى مرهق.. وأن السهر يتعبنى، وأنه لم يكن فى نيتى أن أمكث هنا إلا وقتا قصيرة ولكن لطفه تغلب على سخافتى.. وذهبت مع المدعوين إلى بيته وهو بيت أشبه بصاحبه.. فيه كل مظاهر الترف والثروة.. والتفاهة.. والذوق الغبى.

وانصرفت بعدما أطفأنا الشموع التسع عشرة.. وأحسست أنى أطفأت شمعة حبى مع هذه الشموع!

تركت السهرة وعدت إلى بيتى.. حاولت أن أنام ولكن الأرق ظل يتبعنى ويرسم لى كلما أغمضت عينى صورة بشعة لهذا المحامى الذى آثرت أن تحتفلى بعيد ميلادك فى بيته!

وكنت وأنا أعانى الأرق، أعقد مقارنة بينه وبينى.. فيقنعنى غرورى بأنى خير منه. وأثور عليك لأنك تخصينه بحبك، أو على الأقل بإعجابك وثقتك.. فى حين تعرضين عنى وتجرحين كبرياء حبى.. ولقد تساءلت عما يمكن أن يصنعه لك هذا الرجل.. أهو إغداق المال عليك؟ ولكنك لست فى حاجة إلى مال، ولم أعرف عنك رغبة فى استغلال ثروات الناس.. بل العكس هو الصحيح.. فما أكثر الذين استغلوا سخاءك ممن تعرفين، وممن لا تعرفين؟ هل سر تعلقك بالمحامى أنه بارع فى كسب قضاياك ازدحمت

بها المحاكم؟ ولكنك لم تكسبى حتى الآن قضية واحدة!.. لماذا إذن تتشبثين به.. هل يجيد الترافع عن جاذبيتك. هل يجيد الترافع عن جاذبيتك.. أن قلبى يترافع كل يوم عما تمتازين به من سحر وجاذبية وليس له عندك إلا الغدر والجحود.. هل يستطيع محاميك أن يرسم لك صورة فاتنة كتلك الصور التى رسمتها من خفقات قلبى ودمع عينى؟

ولكن متى كان للحب منطق حتى أناقشه بهذا الأسلوب؟

إن الحب ليس له عقل، وهو قادر على أن يسحق أكبر العقول. ولست مغرورا حتى أتصور أن لى عقلا كبيرا.. ولكنى شجاع إلى حد الاعتراف بأن الحب انتزع عقلى من رأسى، وألقى به فى عرض الطريق.

وفى بعض الأحيان أعثر على عقلى، وأضعه فى رأسى وأفكر فيما صرت إليه معك، ويكاد تفكيرى يخنق أنفاسى ويضغط دمى.. وأنا الآن أخاطبك وأنفاسى مختنقة، ودمى مضغوط.. ولست ألتمس منك عفوا عن الذى قد يصيبك بصراحتى.. فالأذى يقربنى إليك.. وأنا برغم كل شىء أحرص على قربك يا صديقتى ذات يوم، وعدوتى فى كل يوم!

نسيت أن أقول لك إننى تقابلت مع محاميك فى الكافتيريا، وأمضينا ساعة تحدثنا خلالها عنك.. سألنى: لماذا لم يعد يرانى عندك.. وقلت له يكفى أنك عندها!

قال: هل تظن أن بيننا علاقة غير علاقة العمل؟

قلت: أنا لم أتعود على الظن فى مثل هذه الأمور.. وأفضل دائماً أن أعتقد على أن أظن!

وتوهمت أنه فهم ما أعنيه، وإذا هو لم يفهم ما قصدت إليه.. ربما لأنه أذكى مما أتصور، ربما لأنى أغبى مما يتصور!!

وقد ضقت بجلوسنا معا. فتركته واتجهت إلى مائدة جلس حولها بعض أصدقائى.. ولكنى لم أمكث معهم إلا بضع دقائق.. كنت أريد أن أجد شخصا أحدثه عنك، أو يحدثنى عنك.

فإن أسرارى أصبحت كالكحة إذا لم أتخلص منها سدت القصبة الهوائية وعرضتنى لإغماء قد لا أفيق منه أبدا.

وبعدما درت فى الكافتيريا لحظات قصيرة، وجدتنى أسحب مقعدا وأجلس مرة أخرى مع المحامى الذى يحضنى على احتقاره، والغيرة منه.

وقد استطعت أن أعبر عن احتقارى له، ولكنى لم أستطع أن أبوح بغيرتى.

وفى هذه المرة لم أتركه وانصرف، ولكنه هو الذى تركنى وانصرف!

لماذا تسيئين بى الظن، وتتهمينى بالحملة على أصدقائك، بدافع الغيرة والمرارة؟

(١١)

حبيبتى...

لقد التقيت اليوم بصديقك المحامى، فى نفس المكان الذى تعود كلانا أن يتردد عليه. كان وحده وكنت وحدى، وقد امتلأت «الكافتيريا» بأكثر من مائدة خالية، ولكن أحدا لم يدع الآخر إلى الجلوس حول مائدة من هذه الموائد، وتبادلنا الحديث، ونحن واقفان بجوار الباب الزجاجى نصطدم بالمارة، والمارة يصطدمون بنا.. إننى لا أحقد على صديقك هذا. كل ما هنالك أنى أحب أن أكرهه.. وأجد راحة فى الاشمئزاز منه!

إن حديثه لا ينتهى إلى حد، أو يتقيد بموضوع، وطريقته فى الكلام ترغمنى على أن أرهف أذنى، وأقربها منه، حتى أستطيع أن أتبين ما

يقول. إن صوته أشبه بالأحرف الصغيرة الذى تصر الصحف على أن تجمع به بعض المقالات كى لا يقرأها أحد حتى الذين كتبوها!

وقد فهمت منه أنه حكى لك ما دار بينه وبينى منذ أيام، وأنه شكا من لهجتى الغاضبة العنيفة... وقال إنك علقت على ذلك بابتسامة تخللتها هذه الكلمة: مسكين... لقد دمرته الغيرة!

وصدقينى إذا قلت لك، أننى لست مسكينا. ربما كنت كذلك لو أننى استسلمت للوهم الذى علقنى بك. ولكننى قاومته، ورفضت، وجعلت من كبريائى حصنا يحمينى منك، ومن قلبى!

ولا شىء يقوى على أن يدمرنى لأننى أحيا، وما دمت حيا، فإن العواصف التى تهب من حولى لا تزيدنى إلا قوة على مواجهة الأعاصير.

أننى لست كثيبا من الرمل تبدده حفنة من الهواء، ولكنى جبل لا أبالى العاصفة، بل أحتفى بها، وأحتضنها، وبدلا من أن تزمجر فى الفضاء أجعلها تغنى من خلال صخورى!

وليس صحيحا أنى أغار من أى انسان تعرفينه. فالغيرة لا تكون إلا ممن تحبونهم. وقد عرفت بالتجربة أنك لم تحبى إلا ذاتا واحدة لا أستطيع أن أغار منها، لأنها مختبئة فى ثيابك!

إنك تحبين نفسكِ، وتغارين ممن يشاركونك حبها، بل إنك تناصبينهم العداء. ومن أجل ذلك عاملتنى كما لو كنت عدوك الطبيعى. أحببتك فكرهتنى، قدمت إليك قلبى فطعنته بخنجر مسموم!

وأنت لا تعرفين ما هو الحب. وليس هذا طعنا فيك. وإنما هو إحدى مقومات شخصيتك.

(١٢)

حبيبتى...

التى عذبتنى سنين وسنين... أنك تفكرين بعقلك. ولا أدرى هل أنت ذكية أو غبية. كل ما أدريه أن عقلك كبير وشرير... فهو يريد أن يجعل من القيم والمعانى طريقا تدوسينه بقدميك الرشيقتين وتصلين به إلى غايتك... وما هى هذه الغاية؟ أن يحبك الناس جميعا... وأن تكرهيهم جميعا!

صدقينى إننى لا أغار إلا من إنسان تخصينه بحبك.. وأنت لا تخصين بالحب إلا ذاتك... فهل أغار منك؟

صدقينى... لا!

ربما أدهشك أن تعرفى هذه الحقيقة التى أخفيتها عنك خجلا منك، أو خجلا من نفسى. أنك تذكرين كم كنت أضيق بصديقك المحامى وأتجنب لقاءه عندك، وكانت سيرته تثير اشمئزازى، وخاصة إذا ما رأيتك تغدقين عليه صفات الذكاء والنبوغ والشهامة! فهل تعلمين أننى فى هذه الفترة بالذات وقعت تحت تأثيره، وكنت برغم كراهيتى له أحرص على أن ألقاه، وأتحدث إليه، وأستمع إلى آرائه بشغف واحتقار... نعم، فقد دخل حياتى من نفس الباب الذى دخل منه مرض السكر حياتى... وأصبح كلاهما مرضا يحتل كيانى، ولا حيلة لى فى التخلص منه... إن مرض السكر يقتضينى أن أمتنع عن تناول المواد السكرية والنشوية، وأن أحترم سطوته ونفوذه حتى لا أتعرض لأزمات تكلفنى التضحية بحياتى... وصديقك المحامى، اقتضانى أن أذعن لنصائحه، وأمتنع عن المكابرة والعناد وإلا فقدتك إلى الأبد. ولقد كنت بالنسبة لى كل ما فى الحياة من نبض، ونشوة، وألم، وانفعال، وقد استطاع أن يسيطر على ذاتى بما له من

مكانة فى نفسك. كنت أراه يتصرف فى مصيرك بقوة وبساطة. يكاد يحدد لك نبضات قلبك والتفاتات ذهنك. يكاد يختار لك أصدقاءك وأعداءك، وما تأكلين، وتلبسين، وتقرئين..

إنه ليس وصيا عليك بحكم القانون، وقد بلغت سن الرشد. ومع ذلك فأنت لا تحبين ولا تكرهين إلا بأمر منه، وبناء على مشورته.

وقد تخيلت أننى إذا وصلت إلى قلبه فسوف أصل إلى قلبك. ولكنى أخطأت التقدير، فإنه مثلك لا قلب له.. أو لعل له قلبا ذكيا أدرك حقيقة مشاعرى، وهو أننى أكرهه باصرار.

وقد صارحنى فى زهو، أنه منعك من الزواج أكثر من مرة، لأن من تقدموا إليك كانوا يطمعون فى عزبتك التى ورثتها عن أبيك.

وسألته: ألم يكن راغبا فى الزواج منك شخص واحد أحب فيك الجمال والجاذبية؟ فضحك بأعلى صوته وقال: إن الرجال يحبون الجمال.. ولكنهم لا يتزوجون إلا من المال!!

وكان وهو يلقى بهذه الكلمات يحدق فى قسمات وجهى ليرى هل انفعلت كما ينبغى؟

والواقع أن ما قاله لى زادنى نفورا منه.

ولكنى أخفيت نفورى بابتسامة كدت لشدة افتعالها أتصور أنى وضعتها بأصابعى فوق فمى..

وأخذت أسأله- وأنا هكذا فى حالة ابتسامة مفتعلة- هل تزوجت يا أستاذ؟

فقال بزهو: تزوجت مرتين..

وعدت أسأله: وهل كانت الزوجتان من ذوات المال؟

فقال وهو يضرب إحدى كفيه بالأخرى: أبدا.. ولهذا طلقتهما.. ولن أعود إلى الزواج بأى ثمن..

فعقبت قائلا: ربما تتزوج إذا عثرت على ابنة الحلال الغنية؟

فقال وهو يتكلف التواضع:

- وما الذى يجعل فتاة غنية تتزوج من شخص تجاوز الأربعين؟

قلت: إنك مازلت فى عنفوان الشباب.. وإذا كانت سن الأربعين تمنع من الزواج فماذا أقول أنا وقد تجاوزت الخمسين؟

فقال ببلاهة: صحيح.. لماذا لم تتزوج؟

قلت: لأنى أبحث عن بنت الحلال الفقيرة الذكية الجميلة!

فقال وهو يكاد يغيب عن الوعى من القهقهة: لا.. أنا عارف بنت الحلال التى تقصدها أنت!



مختارات
من أحلى قصائد
كامل الشناوى العاطفية



لا تكذبى

لا تكذبى..

إنى رأيتُكُما معًا..

ودعى البكاءَ..

فقد كرِهْتُ الأَدْمُعا

ما أَهونَ الدمعَ الجسورَ إذا جرى..

من عينٍ كاذبةٍ

فأنكر وادَّعَى!!

* * *

إنى رأيتُكما

إنى سمعتكما

عيناكِ فى عينيهِ

فى شفتيهِ

فى كفّيهِ

فى قدميهِ

ويداكِ ضارعتانِ

ترتعِشانِ من لَهَفٍ عَلَيْهِ!!

تتحَدَّيانِ الشوقَ بالقُبُلاتِ

تَلْذَعُنى بسوطٍ من لهيبِ ! !

بالهمسِ، بالآهاتِ، بالنظراتِ،

باللَفَتَاتِ، بالصَّمْتِ الرهيبِ ! !

ويَشُبُّ فى قلبى حَريقْ

ويضيعُ مِنْ قَدَمى الطريقْ

وتُطِلُّ مِنْ رأسى الظنونُ تلومنى

وتَشُدُّ أُذْنِى ! !

.. فَلَطَالما بارَكْتُ كِذْبَكِ كُلَّهُ

ولَعَنْتُ ظَنِّى ! !

* * *

ماذا أَقولُ لأَدْمُعٍ سَفَحَتْها أشواقى إليكِ ؟

ماذا أَقولُ لأَضْلُعٍ مَزَّقْتُها خوفاً عليكِ ؟

أأَقولُ هَانَتْ ؟

أأَقولُ خانَتْ ؟

أأَقولها ؟

لوْ قُلْتها أَشْفِى غَليلى ! !

يا ويلتى ..

لا، لَنْ أَقولَ أنا، فقولى ..

* * *

لا تَخْجَلِى..

لا تَفْزَعِى مِنِّى

فَلَسْتُ بِثَائرٍ..!!

أنْقَذْتِنِى

مِنْ زَيْفِ أَحلامى وغَدْرِ مَشَاعِرِى...!!

* * *

فَرأَيتُ أَنَّكِ كُنْتِ لى قَيْداً

حَرَصْتُ العُمْرَ ألاَّ أَكْسَرَهْ

فَكَسَرْتِه!

ورأَيْتُ أَنَّك كُنْتِ لى ذَنْباً

سَأَلْتُ الله ألاَّ يَغْفِرَهْ

فَغَفَرْتِه!

* * *

كونى كما تَبْغِينَ

لكنْ لن تكونى..!!

فأنا صَنَعْتُكِ من هَوَاىَ، ومن جنونى..!!

ولَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الهوى ومن الجُنُونِ..!!

* * *

حَبيبُهـــا

حَــبــيــبَــهــا، لَسْتَ وَحْــدَكْ

حــبــيــبَــهــا... أنا قَــبْلَكْ!!

وَرُبَّمَــــا جِـــئْتُ بعــــدَكْ

وَرُبَّمـــــا كُنْتُ مـــثْلَكْ!!

***

فَــلَــمْ أَزَلْ ألــقـــــــــاهــا

وتَسْـــتــبـــيحُ خِـــداَعى

بِلَهْـــــفـــــة فى الــلقـــاءِ

بِــرَجْـــــفَـــــةٍ فى الــوَداعِ

***

بدمـــعـــة لَيْسَ فـــيـــهـــا

كـــالدَّمْعِ... إلا البـــريقْ!!

بــرعـــــشــــــة هى نبضٌ

.. نَبْضٌ بِغَــيْـــرِ عـــروقْ!!

***

حَـــبِــيــبَــهـــا، وروَتْ لى

مــــا كــــان منْكَ وَمِنْهُمْ!!

فَهُمْ كَثِيرٌ... ولَكنْ

لاَ شَئَ نَعْرِفْ عنْهُمْ!

* * *

وعانَقَتْنِى، وألْقَتْ

برَأْسِها فَوْقَ كِتْفِى

تَباعدت وَتَدانَتْ

كإصْبَعَيْنِ بِكفِّى!

* * *

ويحْفُرُ الحبُّ قَلْبى

بالنار، بالسِّكِّينْ

وَهَاتفٌ يَهْتِفُ بى:

حَذَارِ يامسكينْ!

* * *

وسِرْتُ وَحْدى شريداً

مُحَطَّمَ الخُطُواتِ

تَهُزُّنى أنْفَاسى

تُخِيفُنى لَفَتاتى!!

* * *

كَهَاربٍ ليْسَ يدرى

من أيْنَ، أَو أيْنَ يَمْضى؟

شَكٌ ! ضَـــبـــابٌ ! حُـطَامٌ !

بَـعْــضِى يُـمَــزِّقُ بعــضى ! !

* * *

سَـــأَلْتُ عَــقْلى فَــأَصْــغَى

وقَـــــــالَ : لا ، لَــنْ تَـراهـا

وقـــــــالَ قـلـبـى : أراهـا ! !

ولـن أُحِـبَّ ســـــــــواهـا ! !

* * *

مــــا أَنْتَ يا قَـلْبُ ؟ قل لـى :

أَأَنْـتَ لَـعْـنَـةُ حُـــــــبِّى ؟ !

أَأَنْتَ نِـقْـــــمَـــــةُ ربِّى ؟ !

إلـى مَـــــتـى أنـت قـلْـبـى ؟ !

* * *

قلبـــى

أنت قَلْبى، فـــــلا تَـخَـفْ

.. وأجِبْ: هل تُحِـبُّـهـــا؟

وإلـــى الآن لـــم يَـــزَلْ

نابضــاً فــيكَ حُــبُّــهـا؟

لـسْـتَ قـلـبـى أنــا إذَنْ!!

إنما أنـتَ قَلْبُـــــهــــا!!

* * *

كــيـفَ يا قَـلـب تَـرْتَـضِى

طعْنَةَ الغَـدْرِ فى خـشـوعْ؟

وتـدارى جُـحُـودَها

فـى رِداءٍ من الـدمـــوعْ؟

لـسْـتَ قـلـبـى.. وإنمـا

خِـنجـرٌ أنْتَ فى الضـلوعْ!!

* * *

أو تَـدْرى بَـمَـا جَـرَى؟

أو تـدرى؟ دَمِـى جَـرَى..

.. جَـــــذَبَتني مـن الـذُّرَى
وَرَمَتْ بِي الـى الثَّـــــرى!!
أَخَـــــذَتْ يَقْظتي، ولَمْ
.. تُعْطِني هَدْأَةَ الكَرَى!!

* * *

قَـــدَرٌ أحْـــمَقُ الخُطى
سَـحَـقَتْ هَامَـتِي خُطَاهْ
دمْـعَـتي ذابَ جَـفْنُهـا!!
بَسْـمَتي مـالهـا شـفـاهْ!!
صَـحْـوةُ الموتِ مـا أرى؟!
أَمْ أرى غَـفْـوةَ الحيـاةْ؟!

* * *

أَيْنَ يأْسِي؟ لقـد مـضى
ومَـضت مِـثْلَهُ الْمُنَى
فـحـيـاتي كـمـا ترى:
لا ظـلامٌ ولا سَـنَـا!!
كلُّ مـا كـان لم يَكُنْ
وأنـا لم أَعُـدْ أنا!!

* * *

أنــا فــى الــظــل أصْــطَــلِــى

لَفْــحَــةَ النار والهــجــيــرْ

وضـــمـــيــرى يَشـــدُّنى

لِهــوىً مــالَهُ ضـــمـــيــرْ!

وإلـــى أيْـــنَ؟ لا تَـــســـلْ

فـــأنا أَجْـــهَلُ المصـــيـــرْ!

* * *

دَمَّـــــــــرَتْـنــى لأَنَّـنــى

كُنْتُ ـ يومــاً ـ أحِــبُّــهــا

وإلـــى الآنَ لـــم يَـــزَلْ

نَابضــاً فــيكَ حُــبُّــهــا!؟

لَــسْــتَ قــلــبــى أنــا إذنْ!!

إنمـا أنْتَ قَـلْـبُـــــــهـــــا!!

* * *

لست أشكو

لسْت أَشكو منْك

.. فالشكوى عذابُ الأَبرياءْ ! !

وَهْيَ قيْدٌ تَرْسُفُ العِزَّةُ فيه والإباءْ ! !

أنا لا أَشكو

.. ففى الشكوى انحناءْ ! !

وأَنا نبضُ عروقى كبرياءْ ! !

* * *

لستُ أَشكو فاستمعْ لى وأَجبْنى

.. رُبَّما أَسْمَعُ ما يُدْنيكِ منًى

رُبَّما أَسْمَعُ ما يُقْصيكَ عنِّى ! !

كلُّ ما عِندى سؤَالٌ يتَرَدَّدْ

وَظنونٌ ـ يا حبيبى ـ تتجدَّدْ

* * *

كُنْتُ أَلقاكَ على البُعْدِ

فأَلقى فيكَ أَحلامى ورُوحى ! !

صِرْتَ فى قُربى ولا أَلقاكَ

.. لا ألقاكَ إلاَّ فى جروحى !!

* * *

أَنتَ عينى وأَنا عينُكَ قلْ لى:

ما الذى أَغْمَضَ عينى؟

.. ما الذى أَغْمضَ عيْنَكْ؟

فغدا القُرْبُ سِتاراً

.. يا حبيبى بَلْ جداراً

.. حائلاً بينى وبيْنكْ؟!

* * *

يا حـــبـــيـــبى، كــان حــبى

لـكَ حُـــــرًّا وجـــــريئـــــا

.. يَتَـــحَـــدَّى الويْلَ أَن يأْتى

.. فـــيـــخـــشى أن يـجـــيـــئـــا

مُـــسْـــرعَ الخُطْوةِ كـــالظُّلْمِ

.. وكـــالعـــدْلِ بطيـــئـــا!!

.. نابضـــاً فى القلبِ كـــالذَّنْبِ

.. وإنْ كــــانَ بـريـئَــــا!!

* * *

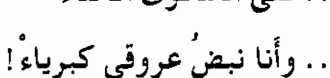
جُرْأتى راحَتْ ولا أَعْرِفُ أينْ؟

بَسْمَتى ضاعَتْ ودَمْعِى بَيْنَ بَيْنْ!

.. الهوى خجلانُ دامى الوَجْنتينْ!

وحنينى لكَ مكتوفُ اليدينْ!

أنا لا أشكو



.. ففى الشكوى انحناءْ

.. وأنا نبضُ عروقى كبرياءْ!



وردتـــــى

يا وردةً لم يَزَلْ فى جونّا أَثَرٌ

.. من نَفْحِها

.. آهِ لَوْ عَادَتْ لياليكِ

ذَكَرْتُ بَعْدكِ أيامى التى سَلَفَتْ

.. فاشْتَقْتُها

.. غيرَ يومٍ خاننى فِيكِ:

يومَ افترقنا

.. على أَنِّى أَراكِ غَداً

.. فلم أَجد فى غدى إلاّ تَنائيكِ ! !

لولا إبائى، ولولا أَنَّنى رَجُلٌ

.. لَحَدَّثَتْكِ الليالى: كيْفَ أَبكيكِ ! !

* * *

الخطايـــا

زَعَموا حُبّيَ ـ يا قلبُ ـ خَطَايا !!

لم يُطهِّرْها من الإثْمِ بُكايا !!

والخطايا مالها من غافرٍ

فترفَّقْ، وتَمَهَّل

فى الخطايا..

* * *

حَسْبُنَا ما كانَ

وأهدَأْ.. هاهُنَا

فى ضلوعى

واحتَبِس خلف الحنايا !

لا تُثِرْ لى ذِكرياتى

أنها شيَّبتنى..

.. شَيَّبَتْ حتى صِبايا !

* * *

ذكرياتٌ رَسَفَتْ فى أدْمُعى

وشُجُونى

وتَمَشَّتْ في دِمَايا ! !

ذكرياتٌ حَطَّمَتْنِى

ذكرياتٌ لم تدعْ من أجَلِى إلاَّ بقايا ! !

* * *

أنا لا أعرف حداً لِهَواها !

أنا لا أعرف حَدًّا لِهَوايا ! !

.. كم يُرينى النوْمُ منها عَجَباً !

.. فتنةً يَقْظَى

ورُوحاً، وسَجايا ! !

ضَمها صدْرِى

ومسَّتْ شَعْرَها .. راحتِى

.. وارتَشَفَتْها شفتايا ! !

وعليها مِنْ ذِراعىَّ وِثَاقٌ

شَدَّهُ قلبى

وأَرْخَتْهُ يَدَايا ! !

فإذا ما نَفَضَتْ عينِى الكَرى

لم أجِدْ بَيْنَ ذراعىَّ سِوايا ! !

* * *

آهِ من نومى

ومن صَحْوِى

ومن ساعةٍ تُعْلِنُ أَو تُخْفِى أسايا ! !

آهِ منها

.. أنا لم أُدْرِكْ مَداها !

آهِ منِّى

.. هى لم تُدْرِكْ مَدَايا ! !

حَطَّمَتْنى مِثْلمَا حَطَّمتُها

.. فهى منِّى.. وأنا منها.. شظايا ! !

* * *

لا، وعينيك!

لا ـ وعينيكِ ـ ياحبيبةَ روحى

.. لم أَعُدْ فيكِ هائماً

.. فاستريحى!

سَكَنَتْ ثورتى

فَصار سواءً

.. أَنْ تَلِينِى

أَو تـجْنَحِى للجُمُوحِ!

وَاهْتَدَتْ حيرتى

.. فَسِيَّانِ عندى:

أَن تَبوحى بالحب أَو لا تَبوحى!

وخيالى الذى سما بك يوماً

.. يَالَهُ اليومَ من خيالٍ كسيحِ!!

والفؤَاد الذى سكنتِ الحنَايَا

منه.. أَودعتُه مهبَّ الريحِ!

* * *

لا ... وَعَيْنَيْكِ

.. ما سَلَوْتُكِ عمرى

فاستريحى !!

وحاذرى أَن تُريحى !!

* * *

الحسن الثرثار!

دارِى غرامى ـ مابدا لكِ ـ دارى

أنا بالصبابة هاتكٌ أستارى!

هيهاتَ.. لا أَقوى

على كتمانِ

ما باحتْ به عيناكِ من أسرارِ!!

.. عَيناكِ حدَّثتا

بما سَكِرتْ به روحى

.. وعَرْبد خمره بوقارى!!

* * *

وإذا سَكَتُّ عن الهوى وحديثِه

.. كيفَ السكوتُ لحُسْنِكِ الثرثارِ؟!

يافتنه هَدَتْ الفؤادَ

إلى هوًى

حُلْوِ العذابِ مُطَهِّرِ الأَوْزارِ!!

* * *

أفديكِ راضيةً

.. فقلبى فَرْحَةٌ نَشْوَى

.. وأَحلامُ الصِّبَا سُمَّارى ! !

أَفديكِ غاضبةً

.. ولو لم تغفرى

.. أنَكرتُ ليلِى واتَّهمتُ نهارى ! !

أَفديك صامتةً

يَضِجُّ بِحُبِّها قلبى

.. وتهمِسُ حولَها أفكارى ! !

أَفديكِ شادية

.. فصوتكِ فتنةٌ قَهَّارةٌ

.. كجمالك القَهَّارِ ! !

.. تَتَرَنَّحُ الأَلفاظُ فى شفتيكِ

.. سَكْرَى مِنْهُمَا !

وتفوحُ كالأزهارِ ! !

ولها بسمعى مِثْلُ أصداءِ الْمُنَى

ولها بقلبى مِثْلُ لَذْعِ النار ! !

يا حيتـــى!

مــا زالَ يَحْـــمِلُ قلبَـــهُ المجنونا

فاسْقِيهِ من غَصَصِ الخِداعِ فُنُونا

صُبِّى لَهُ الكأسَ التى ما ذاقـها

.. إلاَّ وَجُنَّ من العذاب جُنونا !!

* * *

يا حُــبَّـهــا ، لا تَنْسَ أنَّ لِمِـثْلِه

عـقـلاً .. فـحَطِّمْ عَـقْلَهُ المفتـونا

قَـيِّـدْهُ بالآمــالِ يَنْفُـذُ سِـحْـرُها

كالسهم .. واحرِصْ أن يَظَلَّ طعينا

وحَـــذَارِ مِنْ يَأْسٍ يُلِمُّ بِرُوحِــهِ

.. فَيَعُودَ .. لا .. ولَهاً ، ولا مجنونا !!

* * *

يا حَيَّتى الرَّقطاءَ أَرْشُفُ سُمَّها يَوْماً

لأَحْـلُـمَ بـالــمَـنُـونِ سنيـنـا !!

قـدَّسْتُ مِنْ دنيـاىَ كُلَّ شـرورها

.. يا حَيَّتى فَهَواكِ أصبح دِينَا !!

عينـــاك

عَيْنَاكِ، عَيْنَاكِ
نامَتْ فى جُفُونِهِمَا مَفَاتِنُ
أَيقظَتْ لَيلِى وأَعْصابى ! !
أَصُدُّ عنها بِعَيْنٍ غير صادِقةٍ
وبيْنَ جَنْبَىَّ
قلبٌ غيرُ كذَّابِ ! !

* * *

يا كبريائى..
لقد كلفتِنى خطراً
.. فيه الـمَنَايَا مُطِلاَّتٌ بأَنيابِ ! !
تَمَرَّدَ الليلُ
لا أَغفو بِهِ أَبَداً
حتى أَرَى الفجر مسفوحا على بابى ! !

فى الكافيتريا

مَـرَّتْ بِنَا كـالطَّيفِ تَسْـأَلُنَا

مـاذَا نُريدُ، فَلُذْتُ بالصَّـمْتِ

وَدَنَت لِتَسْـأَلَنِى على حِـدَةٍ

عَمَّـا أُريدُ.. فَقُلْتُـهـا: أنتِ!!

* * *

غَـضِـبَتْ وأَلْقَتْ نَظْرَةً نَزَعَتْ

قَلْبِى وشَـدَّته إلى فـمِـهـا

يا ليـتَـهُ يَقْـوَى يُقَـبِّلـهـا

.. يا ليْـتَـهُ ينْسَابُ فى دَمِـهـا!!

وأَرَدْتُ أُرضيها، فقلت لها:

هَلْ تعرِفين..

ومَنْ أَكُونُ أنا؟

أنا يَا صَـبِـيَّـةُ شـاعـرٌ هرِمٌ

قد جَاءَ يَسْتوحى الشبابَ هُنا!!

* * *

أُرِيدُ إِلهامةً جَديدهْ

بقدْرِ ما أَنظِم القصيدهْ

* * *

فافْتَرَّ ناظِرُها وَمبْسَمُها

وقصيدتى مازِلتُ أَنْظِمُها

.. وأظلُّ طولَ العُمرِ أَنْظِمُها

رفـــات

قــد خَلَت مِنْكِ حـيــاتى

وخلَتْ منّى حـــيـــاتُكْ

مــــــــــا نـراه مـنـكِ

أو مِـــــــــنّـــــــــى

رُفَــــاتى، وَرُفَـــاتُكْ!!

لست عبداً

عَـــــلامَ يا قَـلْبُ تَشْكو
نقْضَ الحـبـيبِ عُـهُـودَهْ؟
دَعِ الـهـــــــوانَ وحـطِّـمْ
أَغـــــلالَهُ وقـــيـــــودَهْ

* * *

يا فِـتْنَتِى، لَسْتُ عَـبْـداً
ولا أَطِـيقُ الـعُـــبـــودَهْ
.. مَلَكْتِنِى غـيــرَ نَفْسٍ
على الخُطوبِ جَلَيـــدَهْ
.. نَفْسٍ من الكِبْرِ نَشْوَى
وفى الهـوى عِـرْبيـدَهْ!!!

* * *

يَـا فِـتْنَتيِ، أنتِ شِـعــرٌ
الله صَـاغَ قـصـيـدهْ!!
وأَنْـــتِ فـــى الأُذن لحْـنٌ
وفى فـــمِى تـغـــريدَه

وأنـــتِ فـــى الـــنـــوم

طَيـــفى الذى أَخـــافُ

شُــــــــــــرودَهْ!!

وأنْتِ دُنيـــاىَ... دنيـــا

مِن النَّعِـــيم جَـــديدَهْ

* * *

لــكــنَّــنــى لِـــىَ روحٌ

كــمـا عــرَفْتِ ـ عَنِيــدَهْ

... إبـاؤُها لا يُبَـــالــى

الــعـــــــــــذابَ

أَن يـــســـتـــزِيـدَهْ!!

* * *

كُـونى الجـحـيمَ سـعـيـراً

. فَلَنْ أَكـــونَ وَقُـــودَهْ!!



أين هى؟

حـبـيـبـتى ؟ ! أَيْنَ ؟ هُنا ؟ !

لـيـس هُـنـا إلا أنـا ! !

لكننى أُحـسُّـهـا

تمـلأُ عـيـنـيَّ سَـنـا

وينبض القلبُ بهـا

حُـبـاً ، ويأسـاً ، ومُنىً ! !

* * *

يا لهـفـتى من خـاطرٍ

أَسْـودَ مـجنونِ الخُطَى

ينسَلُّ فى جـوارحى

لصّـاً على روحي سَطا

* * *

جـرَّدَنى من هـدأتى

وشَـدَّنى إلى الجنونْ

حـبـيـبـتى؟ ! أَيْنَ؟

ألا جَـوَابَ لـى

إلاَّ الـظـنـونْ؟ !

ظمأ وجوع

أحبَبْتُها وظَنَنتُ أَنَّ لِقلبها

.. نبــضـــاً كـــقلبى

لا تقيِّـــيــدُه الضلوعْ !!

.. أَحْـــبَـــبْــتُـــهَـــا

.. وإذا بها قلب بلا نبض

.. ســـرابٌ خـــادِعٌ

.. ظمـــأٌ وجـــوع !!

فـــتـــركْـــتُـــهـــا ..

لكنَّ قلبى لم يَزَلْ طِفْــلاً

يعاوِدُهُ الحنينُ إلي الرجوعْ

وإذا مَررْتُ ـ وكم مَرَرتُ ـ

ببـــيـــتِـــهـــا

.. تبكى الخُطى مِّنى !!

وترتعـــدُ الدمـــوعْ !!



انتهينـــا

قُـــضِى الأَمْـــرُ يا مَلَكْ

.. لَـــم تَـــكُـــن لـــى

فَـــلَـــسْـــتُ لـــكْ

غـمـرت قـسـوةُ الشـيـاطين

رِقَّـــــــةَ الـفَـلَـكْ ! !

لـم يعـــد لى به ســـوى

نـبـض حُــــــبِّــى

.. وقـــــد هَـلَـك ! !

* * *

لَمْ تَكُنْ لى .. فَلستُ لك

قُـــضِـىَ الأَمْـــرُ يَا مَلَكْ ! !



النسيــان

آهِ منّ دَوْرَةِ الزَّمـانِ دهتَنـي

وَرَمَــتّنى فى غــمــرة

الـنـســيـــانِ ! !

وَبِعَــيْنِى رأَيْتُ قُــدّرةَ ربىٌ

وهى تمحــو رســمى

وتُــخَــلــِى مــكـانــى

* * *

قـد تَخَلَّتْ عنايةُ الله عنىٌ

وتَخَلَّتْ عنـاية الشيطانِ ! !

ضــاقَ بى مَــعْــبَــدِى

وضــاقت حَــانى ! !

.. لا صَــلاتى تُجْــدِى

ولا ألحــــانــى ! !



أحب الجمال

لاَمَنى فى غـــــرامِكِ
الـلائـمــــــــونـا
لَيْسَ قلْبى يُصْــغِى لما
يُرْجِــــفـــونـا

لـيس قـلبـى مـــعى
.. فـيــســتــمع اللومَ
.. ولكنّه تلاشى أنينـا!!

***

أيهـــا اللائمــون قـلبى
عــــلـــى الحُـــبِّ
رُوَيْــــــــداً
.. فمـا عسى تبتغونا؟!
أَسُلُوّاً عـن الجــمـــالِ
وقَلْبى عــاشَ للحـــسن
عــاشـقــاً مـفـتـونا؟!

***

أنا أهوى الجـــــمـــــالَ

في حَـــيْـــثُـــمَـــا كـــانَ

حَـيِيـا، أَو ثائراً، أَو رَزِينا

أنا أهوى الجـــــمـــــال

في ظـلـمـــــــة الـلـيـل

يُثيرُ الحنينَ والشَّجوَ فينا

.. في حــديثٍ كــالوحى

أَو لُـغَـــــــة الحـــبِّ

تسَــامَى عُــذوبةَ ورنينا

.. في ابتـــــســـــام

تَرَقْرَق الحــزنُ فــيـــهِ

أَيُّكُمْ مَنْ رأى ابتــســامــاً

حــــــــزيـنـــا؟!

أُوقِظُ الفَــجْــرَ بالشَّكاةِ

وأَرعَـى أَنْــجُــمَ الـلـيـلِ

حَـــــيْـــــرَةَ وظـنـونـا

* * *

المعــادى، أَو نـفــحــةَ من

هــــــــواهـــــــا

يُودعُ القلْب في شـــذاها

الأنـــــــيـــــنـــــــا

المـــعـــــــــــادى

.. فــقــد تَـرَكْتَ فــؤادى

فــــــى ربُـــــاهــــــا

مُــــشَـــــرَّداً مــــجنونا

يـا حـــــبــــيـــــبـى

حـــسـبـى من الـوصـل أنـىٌ

بـالأُمـــانـى أُلـقـــاك حِــيـناً

فــــــحــــــيـنَـــا !!



بــــدرى

بـدرَ الســـــمـــــاءِ

هـــل رأيـــتَ بَــدْرى؟

وكـــــيف تـلقـــــاهُ؟

.. وضيءَ الـثـــغـــرِ؟

وَهَلْ تَراه حـافـلاً بأمـرى؟

مقدرِّاً لأدمعى وشِعرى؟

* * *

سَــكَـــتَّ يـــا بـــدرُ

.. فـــــهل لأمـــــرِ

.. سَـــــكَـــــتَّ؟!

أَو أَنَّــكَ لـســتَ تـدرى؟!

.. بما أقـاسى من جَـوى

الــغـــــــــــرامِ

ولـوعـــــة الآلامِ والأيَّامِ؟!

* * *

يـــا روضُ قُـــلْ لـــى:

أيــن ولّــى طــائــرى؟

وهل يَعُودُ مالئاً مَشَاعِرى

.. بصوته ومُنْعِماً نواظرى

بما عليه من جمالٍ ساحرٍ؟

* * *

سَــكَــتَ يــا روض

فــهــل لأمــرِ

.. ســكــتَّ؟!

.. أو أنَّكَ لستَ تدرى؟!

.. بما أقــاسى من جَــوى

الــغــرامِ

ولوعَــةِ الآلام والأيّامِ؟!

* * *

يا ربِّ عذِّبْ بالهيامِ قلبَهُ

وزِدْ على مَرِّ الليالِي حُبَّهُ

ولا تُفَرِّجْ بالبكاءِ كَــرْبَهُ

لَعَلَّهُ يَرْحَمُ من أَحَــبَّــهُ

فَلاَ يُذيبَ بالحنين جَنْبَهُ

مــســائلاً: كــيف ذَوَتْ

أحــلامــى؟!

وأين ما بَنَتْهُ لى أوهامى؟!

آمــــنت

يا مُلْهِمَ الدمْعِ لِلْمَــآقِيَ
وباعِثَ الوَجْـدِ فى القُلُوبِ
آمَنْتُ بالحُبِّ فى عُــرُوقِي
.. بالظَّنِّ، بالشـــوْكِ،
بـالـلـهـــــــيـبِ
آمنْتُ آمنْتُ يا حـبـيـبى
آمَنْتُ فـــاغـــفـــر إِذَنْ..
ذُنـــــــوبـــــــى!!

* * *

يا فتنةَ الـروح.. ما لِرُوحِي
تَضِلُّ عن عَفـوِكَ الرَّحِيبِ
.. كم رَاعَــهـا الدهرُ فى
صِـــــبـــــاهـا
بِكُلِّ قـاس من الخُطُوبِ!!
ورُعْــتَـــهـا بالصُّــدودِ
. ويـــــلـــــى!
. أأَنْــتَ والــدهْــرُ.. يـا

حـــــبـــــيـــــبـى؟!

* * *

نـاشَــــــدتُـكَ الحُـبَّ

.. دَعْ ضـــلـــوعـــى

تَقَـــرَّ مِنْ ثورةِ النحـــيبِ

وقـل لبـــــعض الكَـرَى

يُــــــواسـى

عَيْنَىَّ فى سُهدِىَ الرَّهيبِ

نـاشَـــــدتُـكَ الحبَّ

..فِـــــيـمَ أَذْوِى

شــوقــاً إِلى غُـصـنِكَ

الــــرطـــيـــبِ؟!

وفـيم أَدرِى، ولستَ تدرى

مـــا سِـــرُّ شكـوایَ؟

.. مـــا شـــحـــوبى؟!

مـا الدمعُ مثل السحاب

يَــهْـــــــمـى؟

وأَيْـــــــنَ؟!

فى مُـقْـفِـرٍ جَـديبِ؟!

* * *

أَيَنْقَضِى العمرُ بَيْنَ أَهلى

وأشتكِي لوعةَ الغريبِ؟!
ويَرتَوِي الوَرْدُ من دُموعي
ليُصْبح الشَّوْكُ من
نصيبي؟!



يوم مولدى

عُــدْتَ يا يَوْمَ مــولدى

عُــدْتَ يا أيُّهــا الشَّــقِى

الصِّــبــا ضــاعَ من يَدِى

وغـزا الشَّــيْبُ مَـفْـرِقِى

ليْتَ - يا يومَ مــولدى

كنتَ يوْمــاً بلا غــدِ !!

* * *

لَــيْــتَ أَنــىَّ - مِـنَ الأَزَلْ

لم أعِشْ هَذِهِ الحــيــاهْ

عــشْتُ فــيــهــا ولم أزَلْ

.. جاهلاً أنهـا حـيـاهْ !!

لَــيْــتَ أنــى مــن الأَزَلْ

كــنــتُ روحــــــــاً

.. ولــــــــم أزلْ !!

* * *

أنا عُــمْــرٌ بلا شَــبَــابْ !!

وحَـــيـــاةٌ بـلا ربيعْ ! !

أَشْـــتَـــرِى الحُـبَّ

بـالـعــــذابْ ! !

.. أَشـــتـــريـهِ

فَـــمَـنْ يبـــيعْ ؟ !



أنـــــا

يا رب فـــيمَ خَلقْـــتنا

وتركـتنا نَهْبَ الضـبـابِ

فـــــلا ظـلامَ ولا سَنـا ؟!

ونَـدِبٌ فــــــوق الأرض

لا نـدرى بـهـــــــــا

... وندبٌ فـــوقَ الأَرض

لا تـــدرى بــــنــــا ؟!

* * *

أَنـــا مَـــنْ أَنـــا ؟!

أَنـا مـن أكـــــــونُ؟!

.. وســـيلة أم غـــايةٌ؟!

... أَنا لست أَعـرفُ منْ

أَنــــــــــــــا !!



مختارات
من أروع قصائد
كامل الشناوى الوطنية

وطنيات كامل الشناوى

رغم رومانسية كامل الشناوى وولعه بالجمال وتحصنه فى برج عاجى يتأمل منه الحياة، والناس ويناجى منه ملهماته إلا أنه كان فى نفس الوقت كاتبا وطنيا يتفاعل مع قضايا وطنه مصر وقضايا الأمة العربية، شارك فى كل أحداث الأمة العبيسة منذ مطلع شبابه حتى آخر أيامه..

وكان فى كل مواقفه كاتبا وطنيا شريفا، يرفض أن يبيع قلمه، وظل يشرع قلمه فى وجه أى ظلم أو افتئات على حرية مصر وحرية أمته العربية.

ومن موافقة الوطنية الشهيرة موقفه من معاهدة صدقى ـ بيفن حيث كتب يعارضها سنة ١٩٤٩ تحت عنوان «ألعنها ولا أوقعها» وقد حلل الكاتب الصحفى أنيس منصور حيرة كامل الشناوى بين الأدب والسياسة، فكتب يقول:

«كامل لم يفلح ـ وما كان يستطيع ـ أن يعقد زواجا شرعيا بين السياسة والأدب، وكل كاتب لابد أن يكون سياسيا، ولابد أن يكون له موقف من القضايا الانسانية، لابد أن يكون له رأى وأن يلتزم به، وكامل الشناوى اختار أن يكون عاشقا للسياسة، وأن يكون عاشقا للقضايا الانسانية، ولم يكن زوجا قط، فليس فى كل ما كتبه كامل الشناوى نثرا أو شعرا ما يدل على أنه من لون سياسى وإنما هو صديق للسياسة، فالصداقة أولا والفن ثانيا، لأن حياة كامل الشناوى هى فى علاقته بالناس، فالعلاقة هى أذرع تمتد حوله، يعيش بها ولها وضدها أيضا.

وقد عايش كامل الشناوى قضايا وأحداث مصر السياسية والوطنية فى كتاباته الصحفية، كما عكس انفعالاته ومشاعره الوطنية شعرا.

فأثناء أحداث المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر وأحداث الفدائيين فى منطقة قناة السويس فى مطلع الخمسينيات جسد مشاعره الوطنية فى قصيدة «نشيد الحرية» التى بدأها بقوله :

أنت فى صمتك مرغم　　　أنت فى حبك مكره

فتألم، وتألم　　　وتعلم كيف تكره

وأعطاها للموسيقار محمد عبد الوهاب فلحنها وغناها وسجلها ولكن سلطات الحكم الملكى منعت إذاعتها .

وعند قيام ثورة ١٩٥٢ أفرج عنها بعد تغيير مطلع القصيدة ليصبح :

كنت فى صمتك مرغم　　　كنت فى حبك مكره

وعندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ كانت قصيده «أغنية عربية» التى تغنى بها الموسيقار محمد عبد الوهاب ومطلعها :

كان وهما وأمانى　　　وحلما كان طيفا

ومع انفعاله بثورة يوليو وخطها القومى التحررى بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر كانت أنشودته «أنا الشعب» التى تغنت بكلماتها كوكب الشرق أم كلثوم ومطلعها :

على باب مصر، تدق الأكف، ويعلو الضجيج

كما انفعل بثورة الجزائر وأبدع أوبريت «جميلة» محييا بطولتها وصمودها .

وبعد فهذه مختارات من وطنيات كامل الشناوى . .

نشيد الحرية*

كُنْتَ فى صَـمْـتِكَ مُـرْغَمْ

كُنْتَ فى حُـبِّكَ مُكْرَهْ

فَـتَكَلَّمْ، وتَـأَلَّمْ

وتعلَّمْ كَـيْفَ تَكْرَهْ

* * *

عِرْضُكَ الغالى.. على الظَّالِمِ هَانْ

وَمَشَى العارُ إِلَيْهِ وإِلَيْكْ

أَرضُكَ الحُـرَّةُ غَطَّاها الهوانْ

وطَغَى الظُّلْمَ عَلَيْها وعَلَيْكْ

* * *

قَـدِّمْ الآجالَ قُـرْباناً لِعِـرْضِكْ

اجْعَلْ العُمْرَ سِياجاً حَوْلَ أَرْضِكْ

غَـضْبَـةً للعِـرْضِ للأَرضِ.. لنا

غـضبـةً تبـعث فـينا مـجدَنا

(*) نظمت هذه القصيدة خلال أحداث الفدائيين فى منطقة قناة السويس، قبيل قيام ثورة «٢٣ يوليو» من عام ١٩٥٢، وقد لحنها الفنان محمد عبد الوهاب، ولكن الاذاعة حبست اللحن، ولم تفرج عنه إلا فى اليوم التالى لقيام الثورة، واقتضى الموقف تعديل بعض الألفاظ..

وإذا مـــا هَتَفَ الهـــولُ بِنا

فَلْيَــقُلْ كلُّ فَــتىً.. إنِّى هُنا

* * *

.. أنا يا مِــصْــرُ فَـتَـاكِ

بـدَمى أحْــمِى حِــمــاكِ

ودمـــى مِــلْءُ ثَــرَاكِ

* * *

أنـــا وَمْــضٌ وبَــرِيــقْ

أَنا صــخــرٌ... أَنا جَــمْــرُ

لَفْحُ أنفــاسى حَــرِيقْ

ودَمِـــى نـــارٌ وَثَـــأْرُ

* * *

بَلَدى... لا عِــشْتُ إن لم أفــتــدِ

يَوْمَكَ الحـــرَّ بِيَــوْمى وغَــدِى

.. نـازِفـــاً مِنْ دَمِ أعــــدائكَ

.. ما نزفوه

من أَبى أو ولَدِى

.. آخِذاً حُرِّيتى مِنْ غاصبيها

.. سالبيها

وبروحي أفتديها

هاتِ أُذْنَيْكَ مَعي

واسمعْ معى

صيحةَ اليقْظةِ

تجْتَاحُ الجُموعْ

صيحةً شدت ظهور الرُّكَّعِ

ومَحَتْ أصداؤها عارَ الخضوعْ

* * *

أنا يا مصْرُ فَتَاكِ

بِدَمِى أحمى حِمَاكِ

ودمى ملءُ ثَراكِ

* * *

أَنْتَ إنْ لَمْ تَتَحَرَّرْ

بيدى، يا بلدى!

.. فَسَأمضِى أتحرَّرْ

مِنْ قيودِ الجَسَدِ

لا أُبَالِي الهَوْلَ بل أَعْشَقُهُ

لا أُباليه وإن مِتُّ صَرِيعَا

إنه لو لَمْ يَكُنْ.. أخْلُقُهْ

لأَرَى فيه ضَحَايانا جميعا

في دِمـاهُم أَمَلُ النيلِ تَوَحَّدْ

في دِماهُم دَمُ عيسى ومحمدْ

* * *

أنا يا مِصْرُ فتاكِ

بدمي أَحْمِي حِمَاكِ

ودمي ملءُ ثراك

* * *

فاحْتَرِمْ بِالثَّأْرِ

ذكرى شهدائكْ

بذلوا أرواحَهُمْ بذْلَ السَّخِي

وانتقِمْ ! ! . . .

. . إنَّ هُنَا أزْكَى دمائكْ

وهنا أُمِّي، وأُختي، وأَخي ! !

* * *

أنا يا مِصْرُ فَتَاكِ

بدمي أَحْمِي حِمَاكِ

ودمي ملءُ ثراكِ

أغنية عربية

كان وَهْماً وأمانىً

وحُلْماً

كَانَ طَيْفاً !!

وصحا النائمُ يوماً

ورأى النورَ فأغفَى

كلما استَيْقَظَ نَامْ

وارتمى بين الظلامْ

* * *

ثم كانت صحوةٌ

كالنَّارِ، كالتيَّارِ

.. كَالْقدَرِ العنيدْ !!

أيْقَظَتْهُ، بَعَثَتْهُ، خَلَقَتْهُ

مِن جديدٍ، مِن حديدْ

* * *

لا تَسلْنى أين كُنَّا ؟

أين أَصبحنا... وكَيْفَ ؟

.. لا تَسَلْنى ما الذى وحَّدَنا

قلباً وصفاً؟

سَلْ جُمُوعَ الشُّهَدَاءِ

سَلْ دُمُوعَ الأَبْرِياءِ

سَلْ دَمَ السوريِّ والمصرى

يَجرى لَهَباً

صارِخا: عَرَباً كُنَّا ونَبْقى عَرَبا!

لم يَكُنْ أَيُّهُما بالأَمس

وَحْدَهْ

ولقد صارا مع الأَيام وِحدهْ!

* * *

لا تَسَلْني أَيْنَ كُنَّا؟

أَيْنَ أَصبحْنا؟ وكيفا؟

لا تَسَلْني ما الذى وَحَّدَنَا

قلباً وصفّا؟

عَرَفَ الشعبُ طريقَهْ

وَحَّدَ الشعبُ بِلاَدَهْ

فإذا الْحلْمُ حقيقهْ

والأَمانيُّ إرادهْ!!

(*) أنشدت وسط أجواء وحدة مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨، وتغنى بها الموسيقار محمد عبدالوهاب.

أنا الشعب

على باب مِـصْـرَ، تَدُقُّ الأَكُفُّ، ويَعْلُو الضَّـجـيجْ
جِـبَـالٌ تدورُ، رياحٌ تَثُـورُ، بحـارٌ تهـيجْ
وتُصغِي ! وتُصغِي !
فـتـسـمعُ بيْنَ الضـجـيجِ سُـؤَالاً وأَيَّ سُـؤَالْ ! !
وتسمعُ
هَمْهَمَـةً كالجوابِ، وتَسْمَعُ هَمْهَمَـةً كالسُّؤَالْ ! !
أَيْنَ؟ وَمَنْ؟
وكيْفَ إِذَنْ؟
نَعَمْ.. كـيْـفَ أَصـبَحَ هذا الجـلالُ
بأقصى مَداهْ ! ؟
.. حقيقةَ شعْبٍ
غَـزَاهُ الطُّغَـاةُ، وأيُّ طُغَـاة ؟ !
.. أَمُـعْـجِـزَةٌ مـالهـا أنبـيـاءْ ؟ !
.. أَدَوْرَةُ أَرْضٍ بغَـيْـرِ فـضـاءْ ؟ !

* * *

وتمضي المواكبُ بالقـادمـينَ

مِنْ كلٍّ لونٍ وكل مـــجـــالْ
فَمِنْ عَصْرِ مينا إلى عَصْر عمروٍ
ومِنْ عَصْرِ عَمْروٍ لِعَصْر جَمَالْ
وكُلٌّ تَساءَلَ فى دهْشَةٍ!!
وكلٌّ تَسَاءَل فى لَهْفَةٍ:
أيْنَ؟ ومَنْ!؟
وكيْفَ إذَنْ!؟
.. أَمُعْجِزةٌ مالها أنبياءْ؟!
.. أدَوْرَةُ أَرْضٍ بِغَيْرِ فضاءْ؟!

* * *

وجاءَ الغُزاةُ
.. جميعُ الغُزاهْ
فَأَبْدَوْا خشوعاً
وأَحنوا الجِبَاهْ
وكُلٌّ تَسَاءَلَ فى دَهْشَةٍ
.. وكُلٌّ تساءَلَ فى لَهْفَةٍ:
أَمُعْجِزَةٌ ما لَها أنبياءْ؟!
أَدَوْرَةُ أَرْضٍ بِغَيْرِ فضاءْ؟!
وَتلمَحَ بين الجموع وجوها

يَرِفُّ عَلَيْهَا حَنَانُ الإِلَهْ
.. فَفِيهَا المفكِّرُ والْعَبقَرِىُّ
وفِيهَا التُّقَاةُ، وفِيهَا الهُدَاهْ
«فموسى» تَشُقُّ عَصَاهُ الزِّحَامْ
وذلِكَ «عيسى» عليْهِ السَّلامْ
وهذا «محمدُ» خيرُ الأَنامْ
أَمُعْجِزَةٌ مالها أنبياءْ؟!
أدورة أَرضٍ بِغَيْرِ فضاءْ؟!

* * *

فَأَيْنَ تَحَقَّقَ ما كَانَ وَهْمًا
ومَنْ ذا الذى ياتُرى حَقَّقَهْ؟!
وكيْفَ تحرَّرَ مِنْ أَسْرِهِ
سَجِينُ الزمانِ؟! ومن أَطْلَقَهْ؟!
لقد شادَ بالأَمْسِ أَهْرَامَهُ
.. بأَيْدٍ مُسَخَّرةٍ مُوثَقَهْ
على ظَهْرِهِ بَصَمَاتُ السِّيَاطِ
.. وأَحْشَاؤُهُ بالطَّوَى مُرْهَقَهْ!!
... وها هُوَ هو يَبنى بِحُرِّيَّةٍ
دَعائمَ آمَالِهِ المُشْرِقَهْ

بِسَدٍّ مَنيعٍ، عجيبِ البناءِ
يَبُثُّ الرَّخاءَ ويُوحى الثِّقهْ
فَأَرْزَاقُ أَبنائه حُرَّةٌ
وآراؤهم حُرَّة مُطْلَقَهْ
وليْسَ بهم سيِّدٌ أَوْ مَسُودْ
فكلٌّ سَوَاءٌ بلا تفرِقَهْ
أَمُعْجِزَةٌ مالها أنبياءْ؟!
أدورةُ أَرْضٍ بِغَيْرِ فضاءْ؟!

* * *

وصاح من الشعب صوْتٌ طَليقْ
قوىٌّ، أَبِىٌّ، عريقٌ، عميقْ
يقول: أنا الشعْبُ والمُعْجِزَهْ
أَنا الشعبُ لا شَىْءُ قَدْ أَعْجَزَهْ
وكل الذى قاله أَنْجَزَهْ!!

* * *

.. فَمِنْ أَرْضِىَ الحُرَّةِ الصامِدَهْ
بَنَيْتُ حَضاراتِنا الخالِدَهْ
.. بقوميَّتى واشتراكيَّتى
.. بِنَبْضِ العُروبَةِ فى أُمَّتى

أَنـا الشــعب، شــعب الذُّرى وَالْقِــمَمْ
زرَعْتُ النَّخِـــيلَ، صَنَعْتُ الهَـــرَمْ

* * *

رفَــعْتُ المآذِنَ فــوق القِــبـــابْ
بنيتُ الـمَـــداخِنَ تعلو السَّــحـــابْ

* * *

أنا الشـعب لا أعـرف المســتحـيــلاَ
ولا أَرْتَــضـــى بــالخـلــودِ بـــديــلاَ
بلادِىَ مــفــتــوحــةٌ كــالســمـــاءِ
تَضُمُّ الصــديقَ، وتَمْــحــو الدخـيــلا

* ... *

.. أنا الشـعْبُ، شـعْبُ العـلا والنِّضـالْ
أُحِبُّ السَّـــلاَمَ، أَخُــوضُ القِــتَـــالْ
وَمِنِّى الحـقـيــقــةُ... مِنِّى الخـيــالْ!!
وعندى الجـمـــالُ، وعـنـدى «جــمـــالْ»

(*) أنشدت عام ١٩٦٢ وتغنت بها كوكب الشرق ام كلثوم بالحان الموسيقار رياض السنباطى.

محمد رضوان

● ولد محمد رضوان بمدينة الجمالية محافظة الدقهلية بمصر فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٨ م.

● حاصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام١٩٧١ م.

● كاتب صحفى بدار الهلال منذ ١٩٧٣ ـ عضو نقابة الصحفيين ـ عضو اتحاد كتاب مصر.

● من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت ـ أنيس منصور ـ أحمد عبد المجيد ـ محمد إبراهيم أبو سنة ـ عبد العليم القبانى ـ د. مقداد ياجن ـ حسن فتح الباب ـ كمال نشأت ـ فاروق شوشة).

● له خبرة فى الصحافة الأدبية والسياسية، حيث عمل فى سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦)، ومديرا لتحرير مجلة «النهضة» السياسية (١٩٨٢)، ويعمل حاليا مديرا للتحرير بدار الهلال بالقاهرة.

● ابتدع لنفسه منهجا أدبيا فى كتابة السير سماه «المنهج الوجدانى» يجمع بين الموضوعية والعاطفية، بين التحليل الأدبى النفسى وذاتية الكاتب وذوقه الأدبى، ولعل بداياته القصصية هى التى ساعدته فى تأصيل هذا المنهج واكتسابه قاعدة طيبة من القراء فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد بقوله: «حين يتولى محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال، ويتشح برداء عصره الذى عاشه، ويتنسم ما كان يستنشقه، فتجئ ترجمته كظل الغصن أو كرجع الصدى».

● له أكثر من عشرين كتابا فى أدب السير منها: صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك ـ مأساة شاعر البؤس: عبد الحميد الديب ـ اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحى ـ شاعر الأطلال ناجى ـ شاعر الجندول على محمود طه ـ رحلتى مع القلم ـ شاعر النيل والنخيل: صالح جودت ـ عندما يحب الشعراء.

● قام بجمع وتحقيق ودراسة:

ـ ديوان عبد الحميد الديب شاعر البؤس (المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ـ ٢٠٠٠).

ـ ديوان أحمد فتحى: شاعر الكرنك (منشورات سندباد الشعر القاهرة ـ ٢٠٠٧).

ـ ديوان على محمود طه: شاعر الجندول (هيئة قصور الثقافة ـ القاهرة ـ ٢٠١٠).

ـ جوال ٠١٠٦٧٥٩٢٢٤ القاهرة ـ مصر.

* * *

المراجع

- ديوان لا تكذبى : كامل الشناوى (الدار القومية ـ القاهرة ١٩٦٥) .
- ساعات : دار المعارف ـ القاهرة .
- حبيبتى (رسائل حب) المكتب المصرى الحديث ـ القاهرة .
- عرفت عبد الوهاب .
- لقاء معهم .
- شخصيات لا تنسى : مصطفى أمين (دار معارف القاهرة ١٩٨٨) .
- الغزل فى الشعر العربى المعاصر : سعد دعبيس .
- كامل الشناوى : آخر ظرفاء ذلك الزمان : يوسف الشريف روز اليوسف .
- اعترافات أبو نواس (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨) .
- عندما يحب الشعراء : محمد رضوان .

الدوريات :

- مجلات : الهلال ـ الجديد ـ آخر ساعة ـ المصور ـ الأهرام ـ الأخبار ـ الجمهورية .

* * *



الفهرس

الفهرس


صدر حديثاً



شعراء في مواجهة الطغيان

محمد عبد الشافى القوصى



رسائل الحب والجمال
فى حياة الشعراء العرب

محمد عبد الواحد حجازى



أشعار ألف ليلة وليلة

دراسة وتقديم وتحقيق

سمير بسيوني





القاهرة : ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش٢٦ يوليو من ميدان الأوبرات، ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com